

آفاقٌ جَدِيدَةٌ
للدعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَالَمِ الْغَرْبِ

تألِيفُ

أُنورِ الْجَنْدِيِّ

مُؤسَّسَةُ الرِّسَالَةِ



لِلْنُورِ الْجَنْوِيِّ

آفَاقٌ جَدِيدٌ

لِلْدَعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَالَمِ الْغَربِ

مَوْسِسَةُ الرِّسَالَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جَمِيع الْحُكُومَاتِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٠٤ - ١٩٨٤ م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقيا : بيونان



مطالع البحث

ما تزال حقيقة الإسلام تتكشف، وتزداد قوة ووضوحاً، بعد أن مررت بمرحلة مظلمة من الغبن والعقوق، واجهها به أولئك الذين كان «الإسلام» بفكره وحضارته وثقافته أساس نهضتهم وحضارتهم الحديثة. ولقد واجه الإسلام منذ القرن الخامس عشر حملة منظمة كانت تستهدف أمرين:

- ١ - القضاء عليه في نظر الغربيين، والإنسانية جيعاً، وتشويه معالمه الحقيقة، حتى يسقط نهائياً.
- ٢ - إثارة الشبهات والشكوك فيه بالنسبة لأهله حتى يتنهى فيما بينهم كمقوم أساسي للحياة والفكر والحضارة.

وقد نجحت هذه الحملات إلى حد كبير في تحقيق المدفين. غير أن الإسلام بقوته الذاتية استطاع أن ينفذ إلى الفكر الإنساني من خلال الكتابات التي حللت عليه، وشوهرته فأمكن أن يلقي ضوءاً على النفس الإنسانية خارج العالم الإسلامي، ولم يلبث أن اتسع حتى أصبح تياراً قوياً، جمع إليه عشرات من أعلام الكتاب والفلسفه والمؤرخين، والباحثين، هؤلاء الذين لا يشك أحد مطلقاً في أن الإسلام استعملهم أو حملهم على الإيمان به، وتقديره، إلا عن طريق وجدهم وفكيرهم الذي استطاع أن يصل إلى الحقيقة، ويقتنع بها.

ويمثل هذا التيار في الفكر الإنساني غزوة جديدة للإسلام، لا شك في قوتها وأصالتها. والنتائج البعيدة المدى المترتبة عليها.

وجملة القول في آراء هؤلاء الكتاب أن الإسلام دين عالمي إنساني لا شك فيه، وأن الإنسانية في أشد الحاجة إليه الآن لحل مشاكلها.

ولا يخلو بروز هذا التيار من المفكرين العالميين مسؤولية الفكر الغربي في حملته الظالمة على الإسلام. هذه الحملة التي لا تزال مستمرة منذ بدأت في القرن الخامس عشر، والتي تدفعها عوامل النفوذ الأجنبي، والتغريب والسلط على العالم الإسلامي، وسحق مقوماته الأساسية، وتحويله عن قيمه وشخصيته ومفاهيمه، وفرض قيم عليه ليست من طبيعته، ولا من بيئته.

وعندي أن هذا العمل ينفع في مجال خدمة الإسلام العالمي، كما ينفع في خدمة المسلمين أنفسهم، ذلك لأنه إذا كان العالم الإسلامي ما يزال خاضعاً للرأي الأجنبي، مقدراً له، حتى ولو كان من أعدائه، فما أحره أن يقدر هذا الرأي الأجنبي المنصف الذي يدعوه إلى أن يتمسك بالإسلام والذي يدعو الإنسانية كلها أن تتخذه سبيلاً لحل أزمتها الكبرى.

وفي يقيني أن كثيراً من كتابنا الذين أنصفوا الإسلام، لم يتوجهوا إلى هذا العمل إلا بعد أن سبّهم إلى ذلك المنصفون من الغرب أمثال: جوستاف لوبيون - وتوماس كارليل - وأميل درمنجم.

وبعد هذا عمل جديد في ميدان جديد لخدمة الإسلام وإزالة الشبهات عنه - أرجو أن ينفع الله به الإسلام.

(١) التحديات في وجه الاسلام

(١)

واجه الإسلام التحديات الخارجية منذ اليوم الأول لوجوده، واجهها في بيئه مكة، ثم في بيئه المدينة، مثله في مقاومة الوثنية واليهودية له.. ثم اتسع نطاق هذا التحدي، بعد أن فتح الإسلام بلاد الشام، ومصر، وشمال أفريقيا - حيث واجه تحدي الدولة الرومانية المسيحية. ثم امتدت هذه التحديات في صورة الدعوات الهدامة المتعددة التي واجهت الإسلام خلال دولة: الأموية، والعباسية، وما بعدهما. دعوة عبد الله بن سبأ، ومحاولات البرامكة والفرس، والراوندية، والمنقعة، والخزامية، والبابكية، والأقشين، وابن ديسان، والمزدكية، والمانوية، والقرامطة، وحسن الصباح، ثم التار.

وكلها دعوات مؤيدة بقوة الفكر والسلاح انبعثت من قلب العالم الإسلامي نفسه، ولا يبعد أن تكون مؤيدة بقوى خارجية.

غير أن التحديات التي واجهت الإسلام من خارج نطاقه، ومن خلف حدود العالم الإسلامي. قد بدأت بالحروب الصليبية، حينما أحست أوروبا خطر الإسلام الذي غا واتسع سلطانه، ومن ثم جاءت هذه الحركة نتيجة أساسية لهذا المعنى، وإن اتخذت من ظهور السلاغقة - بمظهر القوة واتساع السلطان السياسي، واستيلائهم على بيت المقدس، واكتساحهم أملاك الامبراطور الآسيوية، حتى بحر مرمرة - سبيلاً مباشرأً لإعلان الحرب.

وكان بطرس الناسك هو أول من دعا إلى هذه الحروب مطالبًا بحماية البقاع المقدسة، فاستطاع أن يسوق جموعاً ضخمة في صورة حملات كانت صورة واضحة من الفوضى والاضطراب، ولم تكن في حقيقتها جهاداً دينياً منظماً، وإن أسبغت البابوية نفوذها على هذه الحملات.

بدأت هذه الحملات ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م - حيث استولى (جودفروا دي بويون) وزملاؤه قواد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس، وكثير من مدن الشام.. وثغوره، وأنشأوا المملكة اللاتينية، ثم توالت الحملات على الشام ومصر حتى عام ١٢٧٠ م - وبذلك استمرت حوالي ١٧٠ عاماً. وقد استطاعت هذه الحملات أن تسيطر على عكا وطرطوس وإنطاكية وحلب وتمكنت من إقامة أربع إمارات لاتينية: هي بيت المقدس وطرابلس وإنطاكية والرها.

ثم بدأت حملات رد الفعل، ومواجهة التحدي من الجانب الإسلامي على الفرنجة، بدأها عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي سلطاناً الموصل.. وتبعهما في حمل اللواء «صلاح الدين الأيوبي» الذي حقق انتصارات ضخمة، حيث احتل طبرية ١١٨٧ م - وانتصر في معركة حطين، وأسر لوسيتان ملك أورشليم، ورفيقه الملك راجينا. ثم خان الأخير عهد صلاح الدين الذي أطلقهما، وكان أن قتله صلاح الدين بيده.

وأسلمت أورشليم قيادها إلى صلاح الدين ١١٨٨ م - ودانت له المدن الإفرنجية في سوريا، وفلسطين، وسقطت في يده أغلب القلاع، ولم يبق في حوزة الفرنجة إلا إنطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة.

على أثر ذلك قدمت الحملة الصليبية الثالثة، وعلى رأسها امبراطور ألمانيا وملك فرنسا وإنجلترا، فردرريك بربوسا، وفيليپ أوغسطس،

ورتشارد قلب الأسد، وهاجمت القوة عكا، ووقف صلاح الدين يدافع عنها - ودام الحصار عامين.. كاملين، واضطررت عكا إلى التسليم أخيراً، وأسر الفرنجة زهاء ألفين وسبعمائة من المسلمين، ثم أطلق سراحهم بعد مفاوضات انتهت بأن يكون الساحل للآتين، والداخل للمسلمين - ومات صلاح الدين بعد ذلك بشهور قليلة.

ثم أخذت الحملات الصليبية تتجه إلى مصر مرتين. الأولى بقيادة جان دي برين ملك بيت المقدس، وكان في مائتي ألف رجل، هاجموا مدينة دمياط، ثم نفدو منها زاحفين إلى القاهرة، وقد تمكن قوات الملك الكامل من قطع جسور الترع التي تحيط بقوات الصليبيين فانهزموا، ثم هاجمت مصر حملة أخرى على رأسها لويس التاسع. حيث نزلت مدينة دمياط، وزحفت منها إلى قلب الدلتا - ولكنها لم تثبت - وقد انقطعت عنها الإمدادات، وتفسى فيها الوباء - أن انهزمت فأسر المصريون منهم ما بقي بعد هلاك أغلب الجيش بين جريح وذبح.

وخلف «الظاهر بيبرس» - صلاح الدين في توجيه الضربات إلى الصليبيين، فاحتل الكرك واقتحم قيسارية وإنطاكية - وانتزع حصن الأكراد من أيدي الفرسان. ثم واصل «قلاؤون» خطبة بيبرس، فاستولى على حصن المرقب بجوار طرابلس، ثم هاجم الملك الأشرف عكا. وقد فتحها المسلمون بعد حصار دام شهراً كاملاً. ثم استولى على صور وصيدا. وبيروت وطرطوس. وكان أن ساق لويس التاسع حملة عشر صليبيةأخيرة على تونس، وقد فشلت هذه الحملة، وقتل القديس لويس.

* * *

وبعد، فليس من هدفنا أن نرسم صورة كاملة لهذا التحدي الكبير الذي واجه الإسلام من خارج العالم الإسلامي، ولكننا أردنا أن نرسم ملامح الصورة.. التي نعتقد أنها «نقطة البدء» في حملة التحديات الضخمة

التي وجهها الغرب إلى الإسلام منذ ذلك اليوم، والتي ما زالت مستمرة إلى اليوم، وكيف واجه الإسلام هذه الحملة، وكشف عن أخطائها ومعالطتها وزيفها، واستطاع بقوته الذاتية أن يدفع الكثيرين من مفكري الغرب إلى تأييده على أساس اقتناع كامل بسلامته وصلاحيته للبقاء والحياة والتطور.

وإذا كانت الحملات الصليبية التي بدأت ٤٩١ هـ - قد توقفت ٦٤٤ هـ - ١٢٥١ م. عسكرياً، فإنها في الواقع لم تنته، أو أنها بعد أن استمرت مائة وثلاثة وخمسين عاماً. لم تقف بل تجددت في الأندلس حتى جاء اللورد النبي بعد ذلك بستمائة وسبعة وستين عاماً. ووقف في بيت المقدس عام ١٩١٨ م ليقول كلمته التي لا تنسى: «اليوم انتهت الحروب الصليبية».

ومعنى هذا أن الغرب حين توقف عن الحروب الصليبية في ميدانها العسكري. لم يكن قد توقف فعلاً، وإنما كان قد بدأ مرحلة أخرى من الحرب في مجالات الفكر والسياسة وغيرها استطاع بها أن يحقق عام ١٩١٨ ما ظنه النصر الذي تحالف عنه عام ١٢٥١ م.

وفي خلال هذه الفترة الطويلة الممتدة مضى إلى غايتها العمل الكبير، الذي أعده الغرب لمواجهة الإسلام، ومحاولة القضاء عليه، وفي خلاله برزت هذه التحديات الضخمة في صورة التبشير والاستشراق، والتأليف، والصحافة، والمؤسسات المختلفة. والإرساليات العديدة التي اندفعت إلى هذه المنطقة في ظل النفوذ الأجنبي المسيطر على الدولة العثمانية، وتحت سمع الحكومات المختلفة وتأييد القنصلات لتبدأ عملية الغزو الكبرى التي وجهها الإسلام بقوة، وأدال منها.

* * *

وفي خلال هذه المرحلة أيضاً لم يتوقف الغزو العسكري. فإذا كانت

الحروب الصليبية قد انتهت ١٢٥١ م. فإن حرباً أخرى شنها الغرب على الإسلام في الأندلس. واستمرت أكثر من أربعة قرون تمثلت هذه الحرب في تضامن الدوليات المسيحية في شبه الجزيرة. وأهمها قشتالة - ونفارا - وأربونة والبرتغال حتى استطاعت أن تهاجم الدولة الإسلامية وتستولي على قرطبة عام ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م. وقد وقفت أوروبا كلها وراء هذه الحركة تمدها بالمال والسلاح، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦ هـ - ١٢٣٩ م. وسقطت مرسية عام ٦٤١ هـ - ١٢٤٤ م. وأشبيلية عام ٦٤٤ هـ - ١٢٤٧ م. ذلك أن الغرب المسيحي بعد هزيمة الحروب الصليبية في الشرق كان قد صمم على إجلاء المسلمين والعرب نهائياً عن أوروبا. وكان قيام اتحاد مملكة قشتالة وأرجنون بزواج ملكيهما أزييلاً، وفرديناند الخامس هو «نهاية الشوط» في القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس. ولم يأت عام ٨٩٢ هـ - حتى سقطت في أيديهما غرناطة. فقد زحفا في ٥٠ ألفاً لحصارها وقاتل المسلمين دونها شيئاً فشيئاً.

ثم نصب الصليب الفضي الكبير فوق برج الحمراء، وسلم أبو عبد الله آخر خلفاء المسلمين في الأندلس مفاتيح غرناطة إلى فرديناند، ثم اجتاز بر العدوة.

ومنذ ذلك اليوم بدأت معركة إبادة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في المهوو والشدة، والعنف والماراة. فقد أمنَ فرديناند المسلمين أول الأمر على أموالهم وأزواجهم وشرعيتهم، وحرية عباداتهم، وشعائر دينهم، فلا يرغِّم مسلم على التنصير، ولا يولي عليهم يهودي، أو نصراوي، وأن تعطى الفرصة لمن يريد أن يجوز إلى إفريقيا في سفن تقدم إليهم.

غير أنه لم يلبث أن غدر بهم غدرًا شنيعاً. إذ أجبرهم على التنصير. وكان من أبرز الأحداث البربرية أن جمعوا المصاحف، وذخائر العلم

والفكر الإسلامي في ساحة المدينة فأضمرموا فيها النار. وكان في مكتبة قرطبة وحدها مليون كتاب.

ثم رتبوا أنظمة كهنوتية لمحاربة المسلمين أسموها بأنظمة فرسان الهيكل، مما اضطر الآلوف المؤلفة إلى أن ترتد خوفاً من القتل والتشريد، كما هاجرت جموع أخرى إلى ثغور إفريقيا. أما المسلمين الذين بقوا فقد استحالوا إلى طائفة من «الموريسيكين» أي العرب المتصرين. ولكن هذه الفئة أيضاً لم تلبث أن أبيدت في عهد فيليب الثاني. وفي عام ١٥٥١ صدرت إرادة ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين. إما بالرجوع عن دينهم أو الجلاء عن البلاد، ثم أمر المسلمين بالتخلي عن اللغة والعبادة. وفي عهد فيليب الثالث ١٦٠٩ - أمر المسلمين بالجلاء، فهاجر منهم فريق، وامتنعت طائفة بجبال البشرات ذات المعاقل الثلوجية، ثم انفجرت الثورة واستمرت مشتعلة سنوات. بدأ موجة التعذيب والقتل والخيانة، ودافع المسلمون عن أنفسهم دفاعاً مجيداً. وانتقموا من خصومهم انتقاماً بالغاً، ومضى الدون جون ٩٧٨ هـ - ١٥٧٠ م يحرق القرى بن فيها ويوقد النار على المختبئين بالكهوف والأغوار. وفي ١٠١٩ هـ - ١٦١٠ م كان قد بلغ من قتل من المسلمين، وحرق ونفي ثلاثة ملايين.

وقتل الراهب ميلدا ١٦١٠ م في حركة إجلاء المسلمين عن إسبانيا مائة ألف مهاجر في قافلة واحدة مكونة من ١٤٠ ألف مهاجر، وبني الفرنجة الكنيسة الجامعة في قلب مسجد قرطبة، ووضعوا في المحراب صورة القديس فرديناند - في وسط دائرة من الذهب - وهو على ظهر فرسه، وأمامه ملك العرب يقدم مفاتيح المدينة. وهكذا حللت الأندلس من المسلمين من البيرنيه إلى صخرة طارق. ومن المحيط إلى شواطئ برشلونة.

وبينما كانت هذه المعركة التي تعد بحق المرحلة الثانية للحروب الصليبية مستمرة، كانت قد بدأت المرحلة الثالثة - وهي إخراج المسلمين من أوروبا الشرقية. هذه الدعوة التي علت صيتها في أواخر القرن السادس عشر حين دعا البابا بيوس الخامس إلى حلف يضم ملك إسبانيا وجمهورية البندقية. ثم أعلنت الحرب المقدسة لاسترداد جميع الأقطار المسيحية، والأجزاء الأوروبية من دولة الخلافة العثمانية. وبذلك أخرج المسلمون من أوروبا نهائياً.

* * *

من خلال هذه المعارك الثلاث تبدأ خيوط التحديات الفكرية التي حمل لواءها الغزو الفكري الغربي لمواجهة الإسلام. فقد استطاع الغربيون عن طريق الحملات الصليبية، ومعارك الأندلس وتركيا. ومن خلال هذه المنافذ إحراز قدر كبير من آثار الفكر الإسلامي. حيث بدأت على الأثر حركة ترجمة ضخمة من العربية إلى اللغات الأوروبية. لكل ما ابتدعه المسلمون في ميادين العلم والأدب، والتشريع. ومن هذه الحصيلة الضخمة بدأ عهد الرينيسانس «النهاية» لا شك ولا ريب بشهادة المؤرخين المنصفين.

وقصة الرواد الغربيين لإسبانيا، وتلقيهم العلم في جامعاتها أمر معترف به، فمن مدرسة طليطلة في القرن الحادي عشر أخذ العربية المستشرق سكوت رئيس مكتبة فرديريك الثاني من مدرسة أشبيلية ١٢٠٤ تخرج كبار العلماء الغربيين، وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة والمعاملات والعقود حتى عام ١٥٨٠. وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر^(١). ومن آثار المسلمين في فرنسا مدرسة الطب في مونبالييه ١٢٢٠، ومن هذه المدينة نشرت ترجمة القرآن باللاتينية في المجلة

(١) نجيب العقيقي: كتابه المستشركون ص ٢٨ - بيروت ١٩٣٧ ..

الآسيوية، وانتشرت فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازي إلى جامعات لومباردي وسويسرا ولوفان. وقد بدأت فعلاً نهضة ترجمة مشابهة للنهضة التي قام بها المسلمون أيام المؤمنون، حيث بدأت في طليطلة أكبر مراكز الترجمة والنقل منذ أوائل القرن الحادي عشر (فقد استرجعها الإسبان ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م).

ترجم الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية إلى اللاتينية. فقد أصبح بلاط الفونس السادس مفتاح باب الثقافة الإسلامية لأوروبا، وبه ظهر روبرت أنجليز (Robert Anglieus) أول مترجم للقرآن، ثم ظهرت أول مدرسة لترجمة في طليطلة ٥٣٠ هـ - ١١٣٥ م التي أنشأها الأسقف ريموند الأول، واستمرت حتى عام ١٤٨٢ وجذبت إليها الأساتذة من أنحاء أوروبا أمثال: ميخائيل سكوت، وروبرت أوف جستر. ثم ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الفونس الحكيم أكبر رسل الثقافة الإسلامية، وتنافست أشبيلية ومرسية في ترجمة العلوم والطب، وأنشأ جماعة المبشرين أول مدرسة للدراسات الشرقية في طليطلة عام ١٢٥٠ فدرست الفلسفة والفقه الإسلامي^(١).. ولم يقف الأمر عند ترجمة الآثار اليونانية العربية، بل ترجمت الآثار العربية ذاتها، فإن (روجر بيكون) يقول: إن الفلسفةأخذت عن العرب، وأن كتابات أرسطو لم تفهم، ولم تلق رواجاً في الغرب حتى أوضحتها كتابات ابن رشد وابن سينا. وترجمت تعليقات ابن رشد مع أرسطو ولاقت رواجاً حتى صارت تهدد الكنيسة، وترجمت كتب الكندي وابن عربي والغزالى.

وتأثير الغربيون بآثار هؤلاء الكتاب، فمنهم من تشيع لابن رشد أو للغزالى. وقد تأثر توماس أكوانياس الكاثوليكى بآراء الغزالى. أما ابن رشد

(١) تاريخ الحضارة العربية: ناجي معروف. عبد العزيز الدوري: بغداد ١٩٤٨.

فقد أقام معارك وصراعاً لا حدّ له، امتد حتى القرن السادس عشر وأثرت فلسفته في نشوء العلم التجريبي الحديث.

ويعد الراهب جربرت (سلفستر الثاني) الفرنسي أول من قصد الأندلس طلباً للعلم في مدارس أشبيلية وقرطبة. وقد كان اهتمامه بالشرع الإسلامي والفقه. وقد انتخب حبراً أعظم عام ٩٩٩ - وكان له دور كبير في تعليم الفقه الروماني القديم بالشريعة الإسلامية.

والكلام عن أثر الفكر الإسلامي في الثقافة الأوروبية طويل^(١). وهو لا يقف عند ميدان معين من ميادينه. ففي مجال الفلسفة والدين والفقه. وفي مجال الأدب. وفي مجال الموسيقى، وفي مجال الطب والحساب والكيمياء، والفلك وعلوم البحار له آثار واضحة شهد بها كل المنصفين من الباحثين.

وجملة القول أن هناك ثلات جهات اجتاز الفكر الإسلامي منها إلى أوروبا بمختلف عناصره الأدبية والعلمية والفلسفية: منطقة الشام خلال الحرب الصليبية وما بعدها (١٣٠٠ - ١٩٠٨ م) وصقلية في عهد الأغالبة (٨٣١ - ٩٠١ م) وإسبانيا في عهد الإسلام (٧١١ - ١٤٩٢ م) وقد أقام الإسلام في إسبانيا ٨٧١ عاماً.

ولذا كان هذا الفكر الإسلامي - الذي هو البذرة الأولى للثقافة الغربية، والحضارة الحديثة صحيحة اتهام خطير. فإن الفكر الغربي لم يلبث أن اتخذ منه سلاحاً لمقاومة الإسلام نفسه، ومحاولة القضاء عليه في معركة من التحدي. تعددت ميادينها، واتسع مداها على النحو الذي تكشف عنه الفصول التالية.

(١) اقرأ كتابنا: شخصيتنا العربية، أو كتاب صفحات من أمجادنا، أو كتاب الفكر العربي الإسلامي.

(٢)

بدأت معركة التحدي منذ اليوم الأول الذي استطاع فيه الغرب أن يسيطر على عصارة الفكر الإسلامي ، و يجعلها ركيزته الأولى لبناء النهضة . وقد شملت هذه المعركة العالم الإسلامي كله كمنطقة خصبة واسعة تمر بفترة من فترات الضعف والركود ، ويجدر فيها الغرب خ amatه وأسواقه ، ويتطلع إليها كجزء من خططه في الاستعمار والغزو لكل ما سوى أوروبا .

وقد حلت النهضة الغربية في تضاعيفها عوامل التحدي للإسلام كرد فعل لقوته الذاتية التي استطاعت أن تدلي من الغرب في أكثر من معركة ، وأن تهزمه في عديد من الواقع .

ولذا كانت معركة الغزو الغربي للعالم الإسلامي ، قد حملت عديداً من الخطط الفكرية التي أريد بها تمزيق وحدته ، أو إخضاعه للسيطرة الاستعمارية . تثلّت في دعوات التجزئة والتغريب والقوميات الضيقية ، والفرعونية والفينيقية والبربرية . فإن الخطة الكبرى فيها يبدو كانت في مواجهة الإسلام بالذات . كعامل ضخم يحول بين الاستعمار والنهوض الأجنبي ، وبين تحقيق أهدافه في السيطرة الكاملة على معتقديه . ذلك أن الإسلام في صميم تعاليمه يحمل قوة للمقاومة والدفاع عن النفس لا حد لها . وقد كان تاريخه كله معركة متصلة لدفع الغاصبين والمعتدين .

فضلاً عن أن الإسلام لم يكن في صميم تعاليمه ديناً فحسب ، ولكنه كان ديناً ومجتمعاً وحضارة ، متصلة بشؤون الحياة والحكم والفكر ، وهو بطبيعته قادر على مواجهة تطور الأزمان ، واختلاف البيئات والأقطار ، وله من القدرة الذاتية ما يمكنه من التبلور والتناسق . بحيث لا يتوقف ولا يجمد ولا يتعارض مع طبائع الأمم في حركتها الدافعة المتداة عبر العصور . بل إنه في صميم تعاليمه قد حمى الحضارة وتآلفها ، واستمد من

حضارات الفرس والرومان، واليونان والهنود، كل ما فيها من عناصر القوة وأضافها إلى نفسه، ووسع بها كيانه، وظل مع ذلك محتفظاً بـ «الملائكة الأصلية» وشخصيته الواضحة. كل هذا كان من شأنه أن يدفع التفود الغربي إلى مقاومة الإسلام الذي يقف حجر عثرة ضد توسعه وسلطه، واستمرار هذا التوسيع والسلط إلى الأبد الطويل الذي قدره الاستعمار للسيطرة على العالم الإسلامي.. وحاماته وقواعده وموانيه وأرضه.

فإذا أضيف إلى عامل الإسلام «كقوة مقاومة» عامل التعصب الذي يحمله الغرب منذ هزيمته في الحروب الصليبية، وما تبع ذلك من توسيع جديد للقوى الإسلامية. امتد على طول جبهة واسعة في آسيا الصغرى، ومنها امتد حتى بلغ نهر اللوار، كان موقف التفود الغربي عنيفاً في حمله على الإسلام، فقد نشأ جيل في الغرب يحمل عناصر الحقد على الإسلام والعالم الإسلامي، وارتبط هذا الجيل بدراسات في المدارس والمعاهد، ودراسات تخصص تحمل «التعصب» صورة الفكر، وترى في الإسلام رأياً مظلماً بعيداً عن الحق، وتؤمن بأن كل ما سوى أوروبا عبيد وبرابرة. وأن الجنس الأبيض هو الذي يحمل لواء الحضارة، وله وحده السيطرة والحكم، وأن كل الشعوب غير البيضاء لا حق لها في الحياة.

وكان للكنيسة دورها الضخم في تأريث هذه الحملة الضاربة على الإسلام. مما كان له أبعد الأثر في انعدام النظرة الصحيحة للإسلام وأهله. فلقد بدأت قوى التبشير المؤيدة بالعلم والمال تعمل، وتتخذ مراكزها في قلب العالم الإسلامي. كمقدمة للغزو العسكري والسياسي، وهي تحمل معها فكراً مضطرباً بالغ التعصب في إنكار فضل المسلمين على الحضارة، وإلغاء دورهم إلغاء من المدنية، وتغليف حقائق التاريخ بطبع الحقد. فالقرآن الكريم الذي ترجمه القساوسة قصد به التحريف. وأريد به أن يكون سلاحاً لحرب الإسلام. وسيرة النبي ﷺ زفت، واتخذت

الروايات الضعيفة أساساً لتصوير حياة محمد في صورة بعيدة كل البعد عن الحقيقة، واتهمت أصول الإسلام وقيمه بالضعف والاضطراب، وأضيفت الشكوك والاتهامات إلى كل تاريخه الناصع، وهو جلت شريعته ووصف بالاضطراب والتخبط.

وقام على هذا العمل علماء لهم أسماء لامعة، استخدمو هذه الحملة الضخمة على رأسهم فولتير، ورينان، ولامنس، وزويم.

وقد حللت بعثات التبشير التي انبثت منذ عام ١٨٣٠ في أنحاء العالم الإسلامي. هذه الأفكار لإذاعتها في المسلمين أنفسهم، لتشكيكهم في دينهم ونبيهم وتاريخهم ولغتهم.

* * *

أما العلماء الذين حملوا أمانة الدراسات الإسلامية. فقد كان أغلبهم متصللاً بالدواوير السياسية الغربية، ووزارات المستعمرات التي كانت تتحذى من حالة التعصب والتغريب، وساحتها إلى هدم القيم الأساسية للإسلام في العالم الإسلامي كوسيلة من وسائل دعم نفوذ الاستعمار، وتأكيد مركزه، وهؤلاء المستشرون لم يكونوا في الواقع يتخذون روح العلم في أبحاثهم، فينظرون إلى القضايا نظرة مجردة خالصة من كل هوی نفسي، للوصول إلى الحقيقة أينما تكون الحقيقة، ولو فعلوا لكانوا أقرب إلى الإنصاف. فإن سلامة تعاليم الإسلام ومقاصده وقيمه كافية بأن تقنع الباحث المتره عن الهوى، ولكنهم كانوا في الأغلب يضعون فروضاً معينة. أملاها الغرض الذي يهدون إليه، أو التعصب. ثم يحاولون التماس الدليل إلى هذا الغرض، وهم في سبيل الحصول على هذا الدليل يخالفون أبسط قواعد البحث العلمي النزيه، فيأخذون جزئيات من الآيات والأحاديث، ويحاولون أن يفسروا ما يصلون إليه في تعسف على حد تعبير الدكتور

حسين المراوي^(١). فإذا وجدوا في القرآن الكريم ما يهدم نظريةهم تجاهلوه، والتمسوا الآيات التي تناسب المعنى المراد، ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة، فيخرج القارئ من كلامهم وهو يتّهم الإسلام بالتلقيق.

ونحن هنا لا ننكر فضل الاستشراق والمستشرقين المنصفين، وأثرهم البعيد المدى في بعث التراث العربي، ولكننا نقصد منهم من عملوا في خدمة أغراض الاستعمار. ولقد روى نجيب العقيقي في كتابه (المستشرقون) أنباء المستشرقين الذين كانوا يتطلعون إلى تشجيع الملوك والأمراء، وكيف كان الملوك يريدون منهم أمرين^(٢):

الأول: الوقوف في وجه طغيان العرب على الغرب وقوفاً سياسياً ودينياً.

الثاني: الأخذ بثروة الشرق الأدبية التي كانت أساساً للثقافات الغربية طوال قرون.

نتيجة لهذا اتخاذ هؤلاء المستشرقون أمناء سر للملوك. وانتدبوا سفراء وقناصل وترجمة وموظفين في سلك الجيش والسياسة إلى بلدان الشرق، ومنحوا لقب الشرف الفخمة كبارون، وكنت. ومنحوا كراسى التدريس في أشهر الجامعات، وعضوية المجتمع العلمية الكبرى.

وقد أشار الباحثون الذين عرضوا لدراسات المستشرقين إلى ما تتسم به كتابات هذا الصنف منهم بالتعصب فإذا كتب المستشرق المسيحي عن ديانات الشرق غير المسيحية، فإنه لا يكتب بذلك القلم الذي يكتب به في الأدب والأخلاق والتاريخ، لأنه لم ينس دينه ساعئته. فالتعصب الديني من

(١) كتاب المستشرقون والإسلام: للدكتور المراوي.

(٢) ص ١٩٧ - نفس المصدر.

أبرز عوامل الانحراف في كتابات المستشرقين يضاف إلى ذلك أخطاء الترجمة والنسخ. فقد ترجم كازنوفا كلمة (أمي)، بكلمة شعبي، وترجم كازميرسكي قول الله للملائكة «اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبي» ترجمها (أعبدوا آدم). فضلاً عن ضعف الحاسة الفنية والذوق في مفاهيم البلاغة العربية. فقد جمع (جب) لورد على لوردين، وجمع (وستفلد) قطران على قطران. ولقد كان تطبيق مفاهيم الغرب للمسيحية على الإسلام خطأ من أكبر الأخطاء، فليس الإسلام كالمسيحية في مفاهيمه ومقوماته، ولم يقف الإسلام يوماً إزاء النهضة، ولم يقاوم العلم، ولقد كان الإسلام دائمًا ديناً ودولة. ولذلك فقد كان من الظلم أن يحمل مفكرو الغرب على الإسلام نفس المعاول التي حلوها في محاربة المسيحية إبان عصر النهضة بغية إقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن تبين عجزها.. وجمودها عن مسيرة التطور. وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة، وظهرت أخطاء رجال الدين، في تسلطهم واستبدادهم وجحودهم ووقفتهم في وجه الحرية والنهضة، وغلوهم في التعصب.

ولقد كان الإسلام إزاء النهضات والحضارة متظروراً دائمًا وقدراً على الاستجابة للبيئات المختلفة والعصور المتغيرة. وقد دخل هذه التجربة من قبل. ولم يكن له كهنوت ولا وساطة بين الله والخالق.

وإذا كان ثمة مغمر، فإنه لم يكن في الحق بالنسبة للإسلام كدين، وإنما كان لل المسلمين أنفسهم. فقد كان الإسلام أبان الغزو العربي محجوباً بال المسلمين.

أما الإسلام في جوهره ومقوماته وأصوله. فقد ظل حياً نابضاً بالحياة. هادياً مضيئاً طوال القرون، يعطي الإيجابية والحرية والقوة. ولكن الأمر كان في انصراف المسلمين عن مفاهيم الإسلام، وضعف الحكومات، وسيطرة الحكومات العثمانية أربعينات عام، متخلفة في ميادين الحرب

والسياسة، مما أحل عصراً من الضعف والركود، والتواكل والقرقة، وظهور طبقة من العلماء الجامدين التقليديين الذين أغلقوا باب الاجتهد وأمنوا لصاحب السلطان، مما خلق عثاءً رقيقاً من البدع والخرافات التي نسبت إلى الإسلام بغير حق، والتي حجبت في نظر الغربيين جوهره ونقاءه، وحملت في ظلها طبقة كثيفة من الزيف.

(٣)

اصطنع الغرب في معركة التحدي للإسلام قوى ضخمة. كان أبرزها الكتاب المتعصبون من المستشرقين وإرساليات التبشير، وزوار العالم الإسلامي غير المنصفين الذين كانوا ينقلون صوراً سريعة قائمة على الاستعلاء، والتعصب. وكانت بعض الصحف الغربية أدوات رئيسية في هذه المعركة. وفي مقدمتها (جريدة التيمس) التي يمكن القول بأنها من أشد الصحف الغربية عداوة للإسلام، وتأثيراً لضرام الحملة عليه. ويمكن القول بأن قوة الكلمة كانت تسبق حركة الإرساليات التبشيرية، وهي الأداة القوية لإمدادها بالوسائل التي تتيح لها النجاح في مهمتها.

وقد تثلت هذه الكلمة في تأكيد السيطرة الغربية على العالم الإسلامي، واتسع نطاقها في مختلف ميادين: القومية والسياسة والاجتماع والتعليم، وكان ميدان الدين بالذات، والإسلام على وجه الخصوص أوسع ميادينها، وهو ما عنينا بالكشف عنه في هذه الدراسة على أن يكون للميادين الأخرى مجالها في دراسات مستقلة.

فالاستشراق الذي بدأ أول أمره لخدمة الكنيسة، ولترجمة القرآن، والرد عليه لم يلبث أن وسع نطاقه في خدمة الاستعمار، وعمد إلى مقاومة الامتداد والتوجه الإسلامي. هذا الامتداد الذي عبر إلى أوروبا، وسيطر

على إسبانيا، واجتاحت جنوب فرنسا حتى توقف في معركة بواتيه (بلاط الشهداء)، ونفذ إلى جزيرة صقلية، وأخذ يسيطر على جنوب إيطاليا معلق المسيحية، وكان من نتيجة ذلك أن تألف عام ١٣١١ مؤتمر فيينا الذي ترأسه البابا كليان الخامس، وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة في برلين، وبولون، واكسفورد، وسلمونكه تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج واعظ يستطيعون تنصير المسلمين أو تشكيكهم في عقائدهم.

ومن ثم فإنبعثات التي حملت طابع العلم إلى العالم الإسلامي لم تكن خالصة لوجه العلم وحده، وإن اختفت وراء أسماء الجامعات والمعاهد العلمية. وإنما كانت بعثات سياسية تقدم تقاريرها إلى وزارات المستعمرات، وكيف كانت بعثات علمية في صحراء سينا، وجزيرة العرب قبل الحرب العالمية الأولى كمقدمة للغزو الذي قاده «لورانس» نفس الرجل الذي كان يدرس علم الآثار في هذهبعثات العلمية.

ولم يقف الأمر عند هذه المدارس. بل توسع فيما بعد إلى إنشاء معاهد لتكوين من يعملون في السفارات والقنصليات والإرساليات. وقد صيغت هذه المعاهد دراسات قوامها اللغة والدين والإسلام وفق مناهج مليئة بالشكوك والاتهامات تطبع هؤلاء على الاحتقار والكراءة والمقت لكل ما هو إسلامي عربي.

* * *

أما «التبشير» فهو إحدى الحركات الكبرى للغزو الثقافي. وقد سبق الاستعمار، ومهد له، ثم سار في ركابه، ونفذ خطة واسعة للقضاء على العقائد والقيم والثقافات الأساسية للعالم الإسلامي والأمة العربية.

وأتخذ التبشير سلاح المستشفى والمدرسة أساساً لعمله، مستعملاً جهل الشعوب وفقرها. وقد بدأ التبشير عمله ١٨٣٠ (وهو نفس التاريخ الذي بدأ فيه احتلال فرنسا للجزائر) بعد أن أقره البابوات، ورسموا

خطته، ووضعت الدول الاعتمادات الضخمة له في ميزانياتها. وقد اتجه التبشير إلى لبنان ومصر، واتخذ منها مركزين للنouth على العالم الإسلامي، ولم يلبث أن وسع نطاقه عن طريق المرسلين الأمريكيين واليسوعيين (١٨٥٥ م بيروت - ١٨٢٧ م أسيوط).

ولم يكن من المتصور أن المبشرين في إنشائهم للمعاهد والمستشفيات والأندية، ومؤسسات البر والإحسان في ظل الاعتمادات الضخمة، والنفوذ القوي الذي يحميهم يقصدون الإحسان أو التعليم مجردًا. لذلك كان المبشرون دائمًا هم الطابور الخامس لأئمهم، وعيونها على أهل هذه البلاد. وكان من عملهم الأساسي بث الفتنة والقلالق، وإثارة الاضطرابات التي من شأنها التمكين لدولهم في السيطرة على العالم الإسلامي. وقد استغل المبشرون بدراسات الفكر والتاريخ وعلوم الإسلام، وكانوا أوضح تعصباً، وأصرّ في استهدافهم القضاء على مقومات العالم الإسلامي، وخصائصه، وإثارة الشبهات حول الإسلام، وخلق جو من الاضطراب الفكري الذي إن لم يتحقق نقل المسلمين من دينهم إلى ديانة أخرى، فلا أقل من أن يزعزع عقائدهم الأساسية، وينقلهم إلى صفوف الملحدين.

وكان الهدف من هذا العمل القضاء على المقومات الأساسية التي تدفع إلى مقاومة الاستعمار والوقوف في وجهه بأسلحة الإسلام. ومن ثم تنشأ طبقة من المؤمنين بالفكر الغربي المعججين بالحضارة الغربية، وما تحمله من عقائد ومذاهب، ومن ثم يستطيع هذا الرعيل أن يحكم ويسيطر على مراكز القيادة. وبذلك تزول نهائياً معركة المقاومة، ويستسلم العالم الإسلامي للغرب على أساس من الاعجاب والتجاذب والالتقاء مع القيم الجديدة بعد إقصاء قيمه الأساسية.

ذلك أن هذا الخضوع كان هو أساس بقاء الاستعمار والنفوذ الغربي في العالم الإسلامي بعد أن تنتهي المعركة العسكرية أو السياسية، وبعد أن

تنسحب أيضاً القوى المحتلة، حينئذ يجد النفوذ الأجنبي من الأجيال التي رباهما وكتها في معاهده ومدارسه وجامعاته خير من يحمل لواء الولاء له، والإيمان به.

وبذلك تنتهي حقيقة قيم الإسلام القائمة على حرية الفكر. والتحرر من سلطان العقائد والمذاهب الأخرى، وبقاء عنصر المقاومة للمستغل والمستبد أساساً حقيقياً للفكر الإسلامي.

ومن هنا كان نفوذ التبشير أخطر أثراً في حملة التحدي في ظل ذلك المخطط التي رسمته الإرساليات التبشيرية، وعملت على تنفيذه فعلاً وهو:

- * تشويه الإسلام والثقافة الإسلامية، والتشكيك في الأديان بصفة عامة.
- * إفساد الخصائص القومية في العالم الإسلامي والعربي.
- * خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص مما يؤدي إلى الخضوع للمدنية الغربية.

- * توسيع شقة الخلاف بين الأديان والمذاهب والطوائف. وإثارة التزاع، وتأجيج نيران الخلاف كلما هدأت.

- * إخضاع العالم الإسلامي للاستعمار الغربي.

- * اخضاع الثقافة والفكر الإسلامي للفكر الغربي.

- * إعداد شخصيات قيادية لا تقاوم النفوذ الأجنبي ، بل تؤيده.

- * القضاء على اللغة العربية بتغليب العامية، والكتابة بالحروف اللاتينية.

ويكن القول بأن نفوذ التبشير كما تصوره الرسائل العديدة، والأبحاث المختلفة، قد استطاع أن يصل لما يحقق جانباً كبيراً من رسالته في التشكيك في القيم الإسلامية، والتهوين من شأنها، وإدخال عناصر البلبلة والاضطراب إلى اللغة والدين والتاريخ. وغرس ثقافات متعددة متصارعة خلق أجيال من مضطرب العقائد الذين لا يقيمون وزناً لتراثهم ولأمجادهم، ولا للغتهم، ومن المساحين مع الاستعمار والمتغرين.

وقد استطاع التبشير بقوة الكلمة، وبنفوذ الحكومات التابعة، والبعثات أن يصل إلى شيء كثير مما أراد. وإذا كان التبشير لم يستطع أن يحقق بعض ما كان يتطلع إليه بعد مائة عام، وهو تحويل جموعات ضخمة عن دينها الأساسي، فإنه استطاع أن يحقق هدفًا لا يقل خطراً، وهو إثارة الشبهات، وخلق جو من الإلحاد والتحلل والتنكر للقيم الأساسية.

وقد أشار إلى ذلك «زويم» في تقريره الذي نشر في ١٢ إبريل ١٩٢٦ م يقول: «لقد جربت الدعوة إلى النصرانية في أنحاء كثيرة من الوطن الإسلامي، وأن تجاري تحولني أن أعلن أن الطريقة التي سرنا عليها لا توصلنا إلى الغاية التي ننشدها. فقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً. وأنفقنا من الذهب قناطير مقطورة. وألفنا ما استطعنا أن نؤلف، وخطبنا، ومع ذلك فإننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بني دينه الجديد على أساس الهوى، فالذي حاوله في نقل المسلمين إلى النصرانية هو باللعب أشبه منه بالجد. وعندى أنه قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام في نفوسهم. حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدها أن يبنوا النصرانية في نفوسهم. إن عملية الهدم أسهل من عملية البناء في كل شيء إلا في موضوعنا هذا، لأن هدم الإسلام في نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم».

ولعل هذا هو سر الحملات الضخمة التي شنها الفكر الغربي على الأديان، وهو يقصد بها أيضاً الحملة على الإسلام ذاته. ومن هنا نشأ ما أطلق عليه «حركة التغريب». وهي تحويل المسلمين عن مقومات دينهم على مراحل. وخلق الشبهات المختلفة أمامهم في مختلف ميادين الفكر والمجتمع حتى يخلصوا تخلصاً كاملاً من القيم الأساسية لشخصيتهم الإسلامية، وهذا ما وصفه «خالد شلدرريك» بالحرب الصليبية الجديدة.

ومن هنا حق لنا أن نكشف النقاب عن هذه التحديات لنعرف عمق جذور المهد الذي يرمي إليه النفوذ الأجنبي في العالم العربي، عارضين ميادين هذه التحديات، وكيف اندفعت هذه الأقلام في تعصب أو جهل لخدمة أهداف الاستعمار الأساسية من حمو معالم القيم الأساسية للإسلام، وإحلال قيم أخرى بدلاً منها. وإذا لم يكن ممكناً تحويل المسلمين إلى أديان أخرى، فلا أقل من تشكيكهم في أصول دينهم، وإسباغ جو من ضباب الشبهات من حولهم.

إن كل ما نهدف إليه هو إيقاظ الفكر الإسلامي لمواجهة الخطر الذي يراد به لكشف الحقائق وتصحيح الأوضاع.

مراجع الفصل

- | | |
|-----------------------------|--|
| الإسلام وأسيا | : أوجيه يونج ١٩٢٨ - القاهرة |
| الغارقة على العالم الإسلامي | : أ. ل. شانليه ترجمة محب الدين الخطيب ١٣٥٠ - القاهرة |
| المشرقون | : نجيب العقيقي ١٩٣٧ - بيروت |
| الإسلام والاستعمار | : أنور الجندي ١٩٤٨ - القاهرة |
| تاريخ الحضارة العربية | : ناجي معروف وعبد العزيز الدوري ١٩٤٨ - بغداد |
| المستقبل للإسلام | : محمد توفيق البكري ١٩٠٨ - القاهرة |
| التبشير والاستعمار | : عمر فروخ ١٩٥٧ - بيروت |
| الإسلام والنصرانية | : محمد عبده ١٣٧٥ هـ - مصر |
| الشرق الجديد | : الدكتور هيكل ١٩٦٢ - مصر |

(٢) الهجوم على الاسلام

أعلن الفكر الغربي هجومه على الإسلام منذ اليوم الأول الذي
استطاع فيه أن يسيطر على مقاليد هذا الفكر، ويترجمه، ويجعل منه القاعدة
الأساسية للفكر الغربي الحديث، ولعلم الحضارة الجديدة التي بنت قوائمه
على الأسس العلمية الإسلامية في عالم الفلك والطب والكيمياء والجبر
والحساب والفلسفة.

وكأنما أراد الغرب أن يعلن الفكر الإسلامي، لا فضل له على يقظته
ونهضته، وأنه إنما استرد ثقافة الرومان وفكر اليونان القديم الذي ارتبط به
منذ ألف سنة في ظل الحضارة الرومانية، الذي جاءت الحضارة الغربية
ثمرة له، وكان من رأي علماء الغرب إذ ذاك أن المسلمين لم يكن لهم
فضل. إلا أنهم ترجموا تراث اليونان والرومان، ثم استرده منهم خلفاء
الرومانية من أبناء أوروبا، إذن فليس هناك فضل يذكر، إلا فضل حفظ
المسلمين لهذا التراث، بل إن بعضهم قد ذهب إلى إنكار حتى هذا الفضل
القليل، فاتهم المسلمين بأنهم إنما قصرروا في العمل الذي تصدوا له،
 وأنهم ترجموا علوم الرومان، ولم يتزحروا آداب اليونان، وأن هذه الترجمات
كانت مليئة بالأخطاء والأغلاط. مضطربة أشد الاضطراب، وأن الذين
قاموا بهذه الترجمة لم يكونوا إلا جماعة من النساطرة والمسيحيين.
ومنذ اليوم الأول لترجمة القرآن، ظهرت هذه الترجمات محرفة أبلغ

التحريف، وظهر معها في نفس الصفحات كلمات فيها اتهام لهذا الكتاب - المنزل الوحيد، الذي لم يدخله تحريف - وقد اتصلت هذه الاتهامات بمعاني القرآن وأصول الإسلام وشرائعه، وبالنبي وحياته وأعماله.

ثم لم تلبث الأيام أن كشفت عن أسماء لامعة لها وزنها في مجال الفكر الغربي. وقد أخذت تتصدى للإسلام نفسه مهاجمة إياه، محاولة إلقاء الشبهات على أصوله وأسسه، في أسلوب مليء بالهجوم العنيف، والاتهام الصارخ على نحو بعيد كل البعد عن منهج العلم أو أسلوب العلماء، ولم تكن هذه الحملة بهذه الصورة القاسية إلا خدمة للإسلام نفسه. فإن كثيرين من جذبهم للإسلام إليه، وصحح مفاهيمهم فيه، إنما تأثروا بهذه الحملات وأنكروها، واضطروا إلى أن يعودوا إلى كتب أخرى. ربما تكون أكثر إنصافاً أو بعداً عن التعصب والمغالاة. فلم تلبث هذه الدراسة أن كشفت لهم عن جوهر الإسلام، وضيائه. وفي عصرنا الحديث ظهرت كتابات متعددة تحمل طابع الخصومة العنيفة، التي لا تحاول أن ت تعرض للإسلام كفكرة مجردة. يمكن أن تدرس دراسة موضوعية لا دخل فيها للهوى الخاص، ولا الدافع المختبيء وراءها حين يتصل هؤلاء الكتاب بدوائر الاستعمار. أو وزارات الخارجية أو غيرها.

فكتابات فولتير إمام حرية الفكر في الغرب عام ١٧٤٢ بمسرحيته عن التعصب أو النبي محمد، ودراسات الأب لامنس اليسوعي، ومقالات «هانونو» في الأهرام سنة ١٩٠٠ التي أثارت المعركة مع الشيخ محمد عبده، وحملات لويس برتران في كتابه (آباء الإسلام) وكتاب مصر والمصريين لدوق داركور الذي رد عليه قاسم أمين بالفرنسية بكتابه (المصريون) وحملة الكردينال لافيجري على «الرق في الإسلام» وقد رد عليه أحمد شفيق باشا وحملات كروم في كتابه: مصر الحديثة. ومرجليوث في مقاله المشهور: مستقبل الإسلام. وسكوت ورينان وزوير في كتابه: «الإسلام: ماضيه

وحاصره ومستقبله» وردم لاندو وماسينون. ودكتور واطسون مدير الجامعة الأمريكية (١٩٣٣) وسيرز.

هذه الحملات كانت تمثل في مجموعها صورة من معركة التحدي العنيف للإسلام. وفق خطة مرسومة، على النحو الذي من شأنه أن يزيل الرأي العام العالمي فيحقيقة الفكر الإسلامي ومفاهيمه، وأن يثير الشكوك والشبهات في أهل الدين نفسه، في ظل نظم التعليم والثقافة التي بدأ الاستعمار يبثها في أقطار العالم الإسلامي المستعمرة فقد نشرت هذه الأبحاث في كل مكان. وقصد أن تصل إلى كل مكان ينتشر فيه الإسلام، أو توجد جماعات المثقفين الجامعات والمجامع العلمية، ودوائر المعارف حتى توسم هذه الآراء بالسمة العلمية، وتحمل معنى قداسة الكلمة المكتوبة في مجلدات ضخامة. ومن هنا ظهرت دائرة المعارف الإسلامية بإشراف المستشرق. فنسنك مشحونة بالأخطاء والأغلاط والاتهامات.

* * *

ومن عجب أن تجد فيلسوفاً عرف في تاريخ الفكر الغربي بحرية الرأي.. كفولتير يكتب عام ١٧٤٢ قصة عن النبي الإسلام، ويقدمها إلى البابا بني الرابع. وقد أطلق على مسرحيته «التعصب أو النبي محمد» وشحنتها بحوادث وشخصيات مفعولة قائمة على التخييل أكثر مما تقوم على الواقع التاريخي. ثم لم يتحرز من الأخطاء الكبرى لحقائق يعرفها كل من يعرف تاريخ الإسلام، فيجعل الزبير زعيماً لсадة قريش المناهضين لمحمد. وهو يوجه كتابه على نحو مثير، يفضح دخيلة النفس، ويكشف عن الضعف البشري لكاتب وصف بأنه حر الفكر، فيقول في تقديره المسرحية: إلى رئيس الديانة الحقيقة ضد مؤسس ديانة كاذبة ببربرية. أضع عند موطن قدميك الكتاب ومؤلفه. إن صاحب القداسة سيغفر ولا

شك الجرأة التي يأخذ أسبابها أحد المؤمنين المتواضعين في أن يهدي حبر أخبار الكنيسة الكاثوليكية الحقة هذه المسرحية.

ثم يعرف من بعد أن فولتير الرجل الذي حمل على المسيح والكنيسة والأديان على نحو أزعج الدوائر ذات النفوذ قد أراد أن يتراضى مرة أخرى هذه الدوائر بمحاجة الإسلام ونبيه على هذا النحو المزري بكرامة العلم والعلماء، وأحرار الفكر، وبمثل هذه المذلة والمهانة. فضلاً عن انتفاض كل قواعد البحث العلمي أو الواقع التاريخي. وقد كان لعمله هذا أثره الواضح في نفوس من كانوا قد أغروا في العالم الإسلامي بالحديث عن نزاهة الفكر الحر، فقد فجعوا في كاتب وصف بأنه من مؤججي الثورة يتمسح بأعتاب أصحاب السلطان، ويقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة. وحتى أنصار هذا الكتاب والمعجبون به فقد حاولوا حين كتبوا عنه كفولتير مثلاً أن يتجاوزوا هذه القصة، فلا يعرضوا لها كعمل من أعمال الكاتب له قيمة الفنية أو التاريخية.

أما الأب هنري لامنس اليسوعي : فقد غالب عليه طابع التعصب المذهبى ، ولم يتناول أبحاثه من وجهة النظر العلمية المحضة . بل كان حفياً بأن يتهم الإسلام في كل ما يعرض له ، على النحو الذي يصطنعه الدعاة لا العلماء . وقد بدأ مذهبه هذا واضحاً في دراساته عن الأميين ، حيث كان ينسب إلى المسيحيين واليهود كل خير وفضل في شبه الجزيرة . أما المسلمين عامة والعلويون خاصة . فقد حرص على سلبيهم كل الفضائل ، وهو لم ينس عاطفته في كل ما كتب عن النبي ، ومن ذلك مؤلفه عن حياة محمد الذي رفضت دوائر الفاتيكان نشره ، حيث خيف أن يؤدي ما فيه من طعن ، وتهجم إلى احتجاج العالم الإسلامي ، ومن أرداً كتبه كتابه (فاطمة وبنات محمد) وهو على حد تعبير الدكتور : « زكي حسن » يتهم رواة السير بأنهم مخترعون ، ويضرب كل فريق بالأخر ، فإذا رأى

رواية في مصلحة الشيعة اتهمهم بوضعها. وإذا رأى روایة تعلی شأن السنیة ألقها بكتابهم، فضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب هذه العناصر التي قامت عليها السیرة، فإذا وجد في الإسلام موضعاً لفضل نسبة إلى مصدر غير إسلامي، أو فسره تفسيراً مادياً، فهو يصف عائشة بأنها «محظية»، ويحرض على استغلال بعض الاضطراب في النصوص العربية التاريخية.

ويقول الدكتور زكي حسن: حسب المرء أن يراجع النصوص التي يبني عليها لامنس كثيراً من أحکامه ليرى كيف كان يجحف في تفسير بعضها، وكيف كان يحمل ما لا يتفق ورأيه، وكيف أنه كان يغض الطرف أحياناً عن المناسبات، فيستنبط من الشواذ قواعد، ومن الحالات الفردية أحکاماً عامة^(١).

وقال إن له طريقة غريبة في التهمم على النصوص العربية. فضلاً عن أنه يرهق النصوص، ويحملها أكثر مما تحتمل، ويستنبط منها أكثر مما تفيد، ويغض الطرف عنها إذا كانت ثبتت خطأ رأيه. وقد هاجمه المتصفون من المستشرقين أمثال: بيكر وديومين وماسيه. وقال فييت في نعي لامنس بجلسة ١٠ مايو ١٩٣٧ لأعضاء المجلس العلمي المصري: من الصعب أن تقبل كتاب (فاطمة وبنات محمد) في ثقة ودون تحفظ. فإن التعصب والاتجاه العدائي يسودانه إلى حد كبير. وقد لاحظ المستشرقون هذا التعصب في حينه.

وجملة القول فيه أن يقرأ النصوص ليفسر بعضها على هواه. أو يحمل ما لا يتفق مع رأيه، أو يستنبط من الشواذ قواعد، أو يتخذ من الحالات الفردية أحکاماً عامة.

(١) المقتطف (سبتمبر ١٩٣٧) ملحق خاص (في مصر الإسلامية) ص ١٦٢.

وقد حاول لامنس في أبحاثه المختلفة^(١) عن حاضر الإسلام ومستقبله أن يثير الشبهات، وأن يتهم الإسلام بالاضمحلال والانهيار، وأن يعلن تشفيه لسقوط الخلافة، وهو حريص على أن يعلن أن الأقطار الغربية الحديثة هي عامل هام هدم قوى الإسلام وكيانه، حريص على أن يؤجج الخلاف بين السنة والشيعة، ثم بين الحنفية والشافعية والمالكية. وهكذا ثم هو يحاول أن يقسم المفكرين إلى متطرفين ووسط وسلفيين، ثم هو يحاول أن يفض من قدر وحدة الفكر الإسلامي، ويقلل من إحصاء المسلمين.

ثم هو يعلن أن التعليم القرآني في تأخر مستمر، ومطرد في البلاد الإسلامية، وأن تطور التعليم الرسمي في المعاهد العالية والثانوية يتحرر شيئاً فشيئاً من تأثير الدين «حتى يصبح لا دينياً مغضباً» وأن دعاة التطور العصري قد مدوا أصابعهم حتى داخل الجامع الأزهر، فاغتنموا فرصة حاجته إلى الاصلاح، وتدخلوا في إدارة الدروس التي حورت دون نتيجة تذكر وأشار إلى القلق الذي أحدثته آراء الدكتور طه حسين، وحاول أن يصل من ذلك إلى القول بأن الإسلام يتلقى صدمات متواتلة من شأنها أن تدفعه إلى الانهيار.

ولهنري لامنس أسلوب مليء بالمكر والتعصب^(٢). وللؤم في عرض الاتهامات للإسلام. فهو لا يستطيع أن ينكر أن الإسلام حرم قتل الذرية، ووأد البنات، ولكنه يعرضه على نحو ماكر. حيث يقول إن النبي دفع إلى هذا التحرير «بحنيه إلى الذرية بعد أن صار لطيفاً في طفولته» ويستنكر ما نسبته السيرة للنبي من بنين وبنات. فيقول أن كتاب السيرة فعلوا ذلك رغبة في إعلاء شأن النبي. وهو إذا قرأ أن النبي لم يرغم بناته على ترك

(١) نظرة في حاضر الإسلام المشرق (تشرين أول ١٩٣٠).

(٢) الدكتور زكي محمد حسن: المقتطف (ديسمبر ١٩٣٧).

أزواجهن الذين تأخروا عن إعلان إسلامهم، فسره بأن النبي كان يتشرف بهؤلاء الأصحاب، ويعمل على الانتساب إليهم، ويحرص على ودهم، وهو أن تكلم عن السيدة عائشة لم يجد من مفردات اللغة الفرنسية العتيقة إلا كلمة: (Fararite) ليصف بها زوج النبي، وأقرب ترجمة لها بالعربية (محظية). وهو يحرص على استغلال بعض الاضطراب في النصوص العربية التاريخية، ليثبت أن الصحابة كانوا لا يقبلون عن طيب خاطر أن يصاهروا النبي، ولكنه يذكر في موضع آخر: أن رقية ابنة النبي كانت جميلة. وأن عثمان بن عفان إنما اعتنق الإسلام ليتزوجها. وينسى لامنس أنه يذكر في موضع ثالث. أن النبي ﷺ كان يحرص على مصاورة ذوي الحسب والنسب من المشركين، وذهب لامنس إلى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة استولوا على أَزِمَّة الحكم بعد وفاة النبي ﷺ. وذلك تنفيذاً لخطبة سابقة بينهم.

وقد وصف هنري لامنس بين كتاب أوروبا بالمؤرخ المتحزب على حد تعبير محمد كرد علي. الذي يقول: «لقد أصبح العارفون هناك يأخذون كل قول له بتحرز شديد»^(١).

* * *

وإذا تركنا هنري لامنس، وجدنا أمامنا متعصباً خطيراً مثل «فنستك» قوله مباحثان في دائرة المعارف الإسلامية يحملان هذه الروح من الاتهام والتعصب. أولهما عن إبراهيم، وثانيهما عن الكعبة. وقد ترجم الدكتور حسين المراوي^(٢) ما قاله عن إبراهيم «كان اسبرنجر^(٣) أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم كما في القرآن مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية

(١) م. سنة ١٩٤٦ مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق).

(٢) الهلال - ١٩٣٦.

(٣) أحد المستشرقين المتعصبين.

الأمر.. مؤسسة الكعبة». وجاء (سنوك هرجونية)^(١). بعد ذلك بزمن، فتوسع في بسط هذه الدعوى. فقال إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي هو رسول الله، أنذر قومه كما تنذر الرسل، ولم يذكر لإسماعيل صلة به، ولم يذكر قط أن إبراهيم هو واسع البيت، ولا أنه أول المسلمين. أما السور المدنية. فالأمر فيها على غير ذلك، فإبراهيم يدعى حينياً مسلماً، وهو واسع ملة إبراهيم وقواعد البيت الحرام. وسرّ هذا الاختلاف أن حمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة، فما ليثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء، فلم يكن بد من أن يتلمس غيرهم ناصراً هنالك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره، ليصل حبله بيهودية إبراهيم، تلك اليهودية التي كانت مجدهة للإسلام. ولما أخذت مكة تشغله جل تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضاً المنشيد لبيت هذه المدينة المقدس «ولا شك أن عبارة فنسنك لها طابع يوحى بأنه باحث دقيق المراجعة لمستندات من آيات القرآن أحصاها ورتبها» ولكنه في واقع الأمر بعيد كل البعد عن الحق.

أما مرجليوث المستشرق البريطاني فإنه يقول في كتابه تاريخ العالم: إننا نشك فيما إذا كنا نعرف شيئاً عن والد النبي. لأن لفظة (عبد الله) تطلق على الشخص المجهول، وربما كان لها هذا المعنى عند إطلاقها على والد النبي، وادعى مرجليوث أن النبي كانت تتباhe النوب، وأن المسلم معناه في الأصل «الخائن». وعلل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلم. ورغم أن النبي ﷺ عاشر بعض النصارى، فاستفاد كثيراً من القصص، واقتبس بعض أساليب التعبير. وقد ظهر كتاب مرجليوث عن النبي عام ١٩٠٤ - وله فصل مطول عن مستقبل الإسلام^(٢). رد فيه قول

(١) سنوك هرجونية مستشرق هولندي. له أبحاث محملة بالموى.

(٢) اللال - ص ٩٠ م ١٦.

المؤرخ السياسي برايس الذي قال إنه لم يبق من عمر الإسلام إلا قرنان.

وردد آراء خصوم الإسلام فقال: إن أحد المبشرين في آسيا الصغرى أعلن عام ١٨٧٠ أن الإسلام لا يلبث أن يذوب ذوبان الثلج بين يدي العلم، والتمدن والنصرانية، ونقل عن الدكتور بردين في كتابه عن العرب والإفريkan. إن بعض الأعراب قال: إن الإسلام يذهب بذهاب الدولة العلية. ونقل عن ليز في ختام كتابه عن سياحة في تومبكتو أن الإسلام قد يبقى إذا ترك لنفسه. أما إذا احتك بالتمدن الحديث. فإنه يموت لا محالة.

وقال إنه ليس من غرضه تمجيص هذه الآراء، ولكنه يورد ملاحظاته الخاصة التي لاحظها في أثناء زيارته للبلاد الإسلامية، وعنده أنه لا يخلو قول القائلين بسرعة ذهاب الإسلام من وجاهة يستدعي النظر إذا استطاعوا أن يثبتوا خلوه من عوامل تنازع البقاء التي في النصرانية واليهودية، ثم خلص إلى القول بأن المسلمين في الدولة العثمانية تحت سلطة الأوروبيين، وأن جميع أعمال الحسابات والمال في أيدي أهل الذمة، وأن المسلمين لا عمل لهم إلا تقطيع الحطب، وحمل الماء والعتالة وسوق الحمير، وأن الجيش العثماني يقوده ضباط من الإفرنجية وقال: إن السلطة الإسلامية السياسية قد أخذت في التقهقر منذ مدة طويلة حتى أصبح المسلمين الخاضعون لغير المسلمين عام ١٨٧٠ م نحو ثلثي المسلمين كافة، وأخذت هذه النسبة تزداد بتواتي الأعوام حتى أصبح الآن المسلمون تحت سلطة غير المسلمين. ومنهم نحو النصف تحت سلطة الإنجليز.

أما أرنست رينان فقد حمل على الأديان: وعلى المسيحية بالذات حتى عد من أشد الفلاسفة انتقاداً عليها، ومؤلفاته (حياة يسوع، وتاريخ الرسل). وأصل الإنسانية، والقديس لويس، طافحة بالانتقاد فهو ينكر لاهوت السيد المسيح، ويزعم أنه فيلسوف يميل إلى الأمور الرمزية الغامضة.

وقد هاجم «الساميين» وقال أنه ليس في فطرتهم الفلسفة، ولا البحث عن الجديد ولا المقدرة على السياسة ولا الحرب ولا النظام. وكان هجومه على الإسلام في أول الأمر عنيفاً وعاصفاً. فقد صور النبي محمدأ كرجل مخادع، ودجال. وقرر أن الذي أسس الإسلام، وشيد صرمه هو: «عمر» لأنه يماثل القديس بولس في المسيحية... وقال: إن الفلسفة الإسلامية ما هي إلا الفلسفة اليونانية خطوطه بخطوط عربية، ولم يهضمها العرب. لأن الإسلام لا يسمح بحرية التفكير، وروح النقد. وقال رينان: إن الإسلام بعد كفاح دام عدة قرون ترك قلوب العرب معلقة بين سور مختلفة من التوحيد السامي فهو بعيد كل البعد عن كل ما يصح أن يدعى اعتماداً على النظر العقلي أو العلمي. فالإسلام كان في الواقع مضطهدأ دائمأ للعلم والفلسفة. وقد انتهى به الأمر إلى كظم أنفاسها. ومن أجل هذا لم تبد في حضارة الإسلام حركة فكرية ذات طبيعة غير دينية^(١).

* * *

أما مستر سكوت فقد ذكر في كتابه عن الإسلام الذي أصدره ١٩١٥ أن المسلمين يرون أن أول واجب عليهم هو: نشر الإسلام، والطريقة التي يؤدى بها هذا الواجب هو: محاربة غير المسلمين حرباً غير منقطعة وذلك لتحويلهم عن دينهم، ولا يمكن أن توجد للمسلمين إلا سياسة واحدة. ووجهة واحدة هي الحروب الدائمة مع غير المؤمنين حتى تتبع الهيئة الاجتماعية شريعة محمد.

* * *

أما كيمون الذي نقل رأيه هانوتو في حملته على العالم الإسلامي. فقد دعا إلى نسف الكعبة، ونقل قبر محمد إلى متحف اللوفر.

(١) السياسة اليومية - ٤/٥ ١٩٢٣ محااضرة الشيخ مصطفى عبد الرازق عن رينان في الجامعة المصرية.

وليس هانوتو إلا صورة من عديد من كتاب الغرب السياسيين الذين يحملون في تصاعيف كتاباتهم محاولة إخضاع العالم الإسلامي للنفوذ الأجنبي أمثال: لويس برتران في كتابه (أمام الإسلام) الذي يقول فيه أن المسلمين متاخرون وقدرون. ولا شرف لهم، ومتعصباً تعصباً شديداً. وغير قابلين للتمدن إلا بواسطة الغرب الذي يحمل أمانة تمدين العالم. وفي نفس المجرى تجري كتابات دوق داركور (مصر والمصريون) ومثل هذا وفي نفس الخط ما قاله الدكتور راطسون مدير الجامعة الأمريكية^(١). نلاحظ أن المعتقدات الدينية الإسلامية والمبادئ الخلقية آخذة في الانحلال. وأن تلك المعتقدات والمبادئ غير ملائمة للحالة المتأخرة، أيها وجدت. فالمعتقدات القديمة آخذة في التفكك. لأن الجيل الناشئ الذي تتصل به نراه مهتماً كل الاهتمام، لا بالإسلام، بل بالمسائل المادية وبالإلحاد.

وأن «الإسلام» آخذ في الانحلال باعتباره قوة لضبط الحياة والأخلاق، ولكنه حيثما لا يزال يقاوم فأمر غير وافٍ، وهو من الناحية الكلامية متناقض مع العلم أشد التناقض من الناحية الخلقية ولم يبحث قط ظروف الحياة المدنية.

وقال إننا في سياستنا الدينية نهتم بالمحتويات، لا بالأسماء. فنحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتن مسلماً يقبل مبادئ المسيحية، ووحي المسيح ودعوة الناس لاتباع الله وطريقه في الحياة. فإن هذه المبادئ تنمو بنفسها في حياة ذلك الفتى، فلا بد من يوم يأتي إليه فيه من يسميه باسم آخر يميز طابع حياته عن الطابع العادي للعالم الإسلامي. إن الطالب الذي يتركنا يمكنه أن يعتبر نفسه مسلماً غير أنه في هذه الحالة يكون شخصاً آخر غير الذي جاءنا.

(١) السياسة الأسبوعية: ١٠ يوليه ١٩٣٣.

وقال إن خطيب جبل الزيتون أعلن أن الغرض هو قتل الإسلام لاستبعاد المسلمين، كما أعلن أن السياسة الاستعمارية لما قبضت من نصف قرن على برامج الدين في المدارس الابتدائية. أخرجت منها القرآن الكريم، ثم تاريخ الإسلام. وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا مسيحية ولا يهودية، ناشئة مضطربة مادية الأغراض، لا تؤمن بعقيدة، ولا تعرف حقاً، فلا للدين كرامة، ولا للوطن حرمة، وقال مدير الجامعة الأمريكية أنهم يراقبون سير القرآن في المدارس الإسلامية، ويجدون فيه الخطر الداهم، فالقرآن، وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير المسيحية.

* * *

وهكذا امتدت هذه الحملة من نطاق البحث العلمي إلى الصحافة إلى المؤلفات المختلفة، ويز قادتها الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون من المسيحيين واليهود جميعاً، ولم تقف عند هذا الحد، بل تعدته إلى دوائر المعارف المختلفة وجميعها تحمل هذه المعاني، وأبرزها دائرة المعارف الإسلامية. وقد عرضنا بصورة من مباحثها فيها كتب فنسنوك في مادة «إبراهيم».

وقد حلت مواد هذه الموسوعة «نزعة من التعصب» على حد تعبير - (محمد كرد علي) في خطابه إلى صديقه «هوتسما»^(١) الهولندي رئيس تحريرها. وأن هذه المواد ممثلة في كتابات: لامنس (البلجيكي) . . . وكراتشوفسكي (الروسي) وهوar (الفرنسي).

ومنهجهم في ذلك^(٢) هو تحرير آيات القرآن الكريم، وحذف ما لا

(١) مذكرات محمد كرد علي جـ ٣ صفحة ٨٤٢.

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي م ٢ .

يرِّقهم، وخلط الآيات القرآنية بأبيات من الشعر، وجعل الأحاديث النبوية من كلام بعضهم، فهم مثلاً يقتطعون جملة واحدة من نص طويل، أو يوردون الخرافات المنقوله من كتب الوضاعين والقصاصين، ويدعون أنها منقوله من كتب الثقافات.

كما تعمد كتاب دائرة المعارف تجاهل كثير من الأعلام. وقد أحصى كرد علي من هؤلاء كثرين منهم: عبد الحميد الكاتب، وأحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، وعبد القاهر الجرجاني، وأبو عبد القاسم بن سلام. وأبو هلال العسكري، وابن الخطاط الكفييف. وابن خاتمة الأندلسي، وابن عبيدة، وابن الصيرفي، والداهاري. وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف، وعمارة بن حمزة، وابن طولون الصالحي. ووصفها الباحثون^(١) بأنها ناقصة فيها عبارات نابية عن الحق مغمومة بالتعصب.

* * *

وإذا كنا نتجاوز عن كتابات أمثال دوق داركور مثلاً الذي يقول في كتابه: Egypt's role in the development of Islamic civilization (I) إن السر في تأخر الفكر في مصر يرجع إلى الإسلام. فالدين هو السبب الأساسي لهذا التأخر الذي لحظه في كل بلد إسلامي. ذلك لأن الإسلام لا يحض على البحث في العلوم غير الدينية. وبذلك احتقر المسلمون علوم الغرب، واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين. وأن كل ما عداه باطل... إذ كنا نتجاوز عن هذا. لأن كاتبه رجل سياسي متصل ببنفسه دوائر الاستعمار. أو نتجاوز عن أقوال كروم باعتباره مثلاً لدولته، وليس مفكراً.

أو نتجاوز عن قول القس صمويل زويير في كتابه عن (الإسلام: ماضيه وحاضرها ومستقبله) لأنه «مبشر» وداعية لدينه في قوله: مثلاً لقد

(١) صدر عام ١٨٩٣.

تساءل اللورد كرومرو مرة، هل يبقى الإسلام إسلاماً إذا دخل عليه الإصلاح. فأنا أقول بصفة قطعية. إنه لا يبقى كذلك. لأن الاصلاحات تجهز عليه، فالأركان الأساسية الموجدة في الدين الإسلامي كالحج. وتعدد الزوجات. والطلاق لا تستطيع الثبات في وجه تيار المدنية الغربية الجارف.

مثل هذا أو غيره قد يتحمل، وإن كان يمثل جزءاً من حملة التحدي الضخمة المتعددة الأطراف المنبثة في الآفاق، لتشويه الإسلام وهدم مفاهيمه، وتزوير معالله في نظر الغربيين أولاً وال المسلمين بعد ذلك. ولكن كيف يقبل مثل هذا التزوير من العلماء. فالمسيو «سينوبوس» أكبر مؤرخي فرنسا. وقد أمضى أكثر من ستين عاماً يتعلم التاريخ ويعلمه، ومع ذلك فما استطاع أن يتحرر من لوثة التعصب. فهو يقول: في كتابه «تاريخ الحضارة» أن صاحب الرسالة كان رجلاً جباناً سوداويًا تنتابه عوارض من الحمى وتعروه نوبات عصبية.

أو «دوزي» مثلاً الذي يقول: إن معظم آيات القرآن الكريم كتبت بلغة عربية تكاد تكون آية في الركاكة.

أو قول صاحب كتاب فلسفة الحضارة، نقاً عن (جيرون) في كتابه عظمة المملكة الرومانية وانحطاطها من أن الفاتحين من العرب في ديار الغرب كانوا من أبناء النصارى اللاتي تزوجن من المسلمين فأخذوا منهن أطهر ما في الدم المسيحي، ولشن دانوا بالإسلام وهم عرب بالستهم وأسمائهم، وأصول آبائهم، فإنه لم يكن في دمهم من الدم العربي غير واحد من ستة عشر فقط. أو أن المسلمين عند ما وصلوا إلى شمال أفريقيا ألفوا شرب الخمر.

أو قول يونج إن الجيش الإسلامي الذي غزا فرنسا عام ٧٣١ كان خمسماة ألف على الأقل مع أن جيش الأندلس كان ١٢ ألفاً. ومن ذلك

ما أصدره رينان من أحكام جائرة على المسلمين في كتابه (بعثة فينيقية) عندما زار الشام ١٨٦٠ ليجري بعض حفريات في جزيرة أرواد، فرأى من سكانها بعض غلظة. فقال إن المسلمين كلهم منحطون، وجعل معاملة فردية في حادث معين مبرراً لإصدار أحكامه^(١).

وعلى هذا النحو سار كتاب الغرب وفلسفته ومستشرقوه وباحثوه وهو اتجاه مضلل منحرف، كان يستهدف تدمير قيم الإسلام، وتحطيم مقوماته. وإن كان كتاب الإسلام لم يتوقفوا لحظة عن متابعة هذه الحملة، والرد عليها، أولاً بأول. في يقظة واضحة، وكان أقدارهم على ذلك رشيد رضا في المنار. ومحب الدين الخطيب في الفتح. وفريد وجدي، وعلى يوسف، ومصطفى الغلاييفي، وعبد القادر المغربي، والدكتور هيكل، وعشرات من أبرز الكتاب. فضلاً عما كان للصحف المصرية من اهتمام واسع، أتاح لها أن توسع لها المجال، كما فعل المؤيد، والبلاغ، وكوكب الشرق، والسياسة اليومية.

غير أن هذا التحدي على الصورة التي وقع بها، وأتيحت له فرص الإذاعة والنشر - وما صورناه ليس إلا جزءاً ضئيلاً منه - كما يمثل هدفاً ضخماً واضح المعالم في حرب الإسلام، ودعوته ونبيه وتشريعه.

كتابات خصوم الإسلام

مرجليوث: مستقبل الإسلام (الحلال م ١٦) نوفمبر ١٩٠٤ - محمد وظهور الإسلام ١٩١١.

هانوتون: الإسلام والمسلمون ١٩٠٠ (رد عليه الشيخ محمد عبده).
زويم: الإسلام ماضيه، حاضره، ومستقبله.

(١) محمد كرد علي - أغلاط الإفرنج، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

- لويس برتران: إمام الإسلام (كوكب الشرق ١٧ مارس ١٩٢٦).
- دوق داركور: المصريون (رد عليه قاسم أمين) ١٨٩٣.
- كردينال لافيجري: الرق في الإسلام (رد عليه أحمد شفيق باشا).
- كرومر: مصر الحديثة (رد عليه محمد فريد وجدي ومصطفى الرديني سنة ١٩٠٨).
- الأب لامنس اليسوعي: نظرة في حاضر الإسلام (المشرق) (تشرين أول ١٩٣٠).
- فولتير: مسرحية التعصب أو النبي محمد - ١٧٤٢ م.
- دكتور واطسون (مدير الجامعة الأمريكية): الإسلام في العصر الحديث (السياسة الأسبوعية ١٠ يوليو ١٩٢٣).

(٣) من الهجوم إلى الدفاع

كان الفكر الإسلامي بلا ريب، وبإجماع الباحثين من المصادر الأساسية للثقافة الغربية المعاصرة، وللتفكير الإنساني العالمي الحديث، كما كانت علوم الإسلام من أسس هذه الحضارة. وقد جحد الفكر الغربي هذه الحقيقة، وحمل على الإسلام حمله الظالم دون تقدير لأي إنصاف أو رعاية لحق غير منكور. وأذاع على لسان أعلامه وكتابه أن الفكر الإسلامي مضطرب وناقص. وأن الإسلام نفسه مليء بالقصور والعجز على النحو الذي كشفت عنه كتابات فولتير، ولامنس، وفنستوك وغيرهم من أقطاب الفكر الغربي الحديث.

وتواترت هذه الاتهامات، وتتابعت علىألسنة السياسيين، ودعاة الكنيسة، ورجال التبشير، والمؤرخين والصحفيين.

وحاولت أن تأخذ طابع العلم والبحث القائم على الأصول والمراجع والوثائق، وهدفها أساساً تأكيد المشاعر الأساسية في النفس الغربية بكراهية الإسلام، والخذد عليه. واحتقار أهله، وحتى تكون حجاباً كثيفاً أمام المثقفين، فلا يصلوا إلى حقيقة الإسلام وجواهره إلا من خلال هذه الأبحاث.

غير أن الإسلام بقوته الذاتية، وقدرته الكامنة في أصوله وأسسها

وقيمه. قد استطاعت أن تشق طريقها بقوة، وأن تحفر مجرى جديداً في الفكر الغربي. لم يلبث هذا المجرى أن توسع فأصبح تياراً قوياً.

١ - لقد استطاع الإسلام عن طريق كتابات الغربيين أنفسهم التي تحمل الخصومة والتعصب أن يكشف عن نفسه، وأن يصل إلى قلوب الباحثين... المنصفين المتعلعين إلى الحقيقة، والذين لم يتورطوا في هوى خاص أو صلات سياسية مع دوائر الاستعمار. ومن ثم اقتحم هذه النفوس والقلوب في بساطة ويسر وإشراق وتمكن من السيطرة عليها حتى دفع أهلها إلى أن يكتبوا كلمة الحق، وأن يتحولوا عن معتقداتهم القديمة، وأن يؤمنوا به إيماناً كاملاً، وأن يثقوا به ثقة فكر وثقافة، ومنهم من أنصفه بخير ما أنصفه به أهله، ومنهم من آمن به إيماناً. واعتنقه سرّاً أو علانية وقد آمن هؤلاء وأولئك بأنه السبيل الوحيد إلى خير الإنسانية، والنظام الأمثل للحياة البشرية. والسناد الحقيقي للحضارة الحية، وأنه هو الذي يستطيع أن يحميها من الدمار، والهزيمة والسقوط.

وبذلك استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يحقق «غزوة جديدة» للفكر الغربي. هي أشد قوة وبأساً من غزوهه القديمة التي أنكرها جحود الغرب، وتمكن من أن يحفر مجرى قوياً لتيار ضخم يرى في الإسلام منفذاً من اضطراب البشرية، وأمناً لقلق الإنسانية.

وليس معنى هذا أن الفكر الغربي منصف، أو أنه قد تخلى عن عقائده الأساسية في الإلحاد بالوثنية اليونانية، والثقافة الرومانية التي صاغ على أساسها «المسيحية الأوروبية» التي تختلف اختلافاً كاملاً، وأساسياً عن المسيحية الحقيقية التي نعرفها في الشرق. هذه المسيحية التي قادت المعارك الصليبية، وحملت لواء سحق كل ما سوى الغرب من قوى، والتي بعدها بعضاً كبيراً عن الأسس التي جاء بها المسيح سلاماً على الأرض ومحبة للناس. ليس معنى هذا أن الفكر الغربي قد تخلى عن تعصبه العميق

وحلاته العنيفة، وطعناته المستمرة للإسلام، وقيمه وتاريخه ولغته وفكرة.

ولكن معنى هذا التيار هو: أن للإسلام قوة ذاتية تفرض سلطانها على العقول المجردة. وأن المقارنة المنصفة بينه وبين العقائد تكشف عن جوهره البسيط السمح النقي.

ولقد حملت كتابات المتصفين صورة الاعتذار عن عنت الخطأ الذي ساقه كتابات المتعصبين، حتى أن كارل ليل وهو في مقدمة من تصدوا لكشف الحقيقة يقول: لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداعاً مزوراً، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفية المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة إثنى عشر قرناً نحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصري، والإحصاء كذبة وخدعة.

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً. ولو أن الكذب والغش يروجان «عند خلق الله» هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأصلولة. كان الأولى بها ألا تخلق. فواأسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم، وما أضعف أهله. وأحقهم بالرثاء والمرحمة - وبعد فعل من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً البتة. من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد. وهو دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان. ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألام. وهلرأيتم قط معاشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجباً. والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب، فهو إذا لم يكن عليه بخصائص الجير والجص

والتراب، وما شاكل ذلك. فما ذلك الذي يبنيه بيت، وإنما هو تل من الأنفاس، وكثيب من أخلاط المواد، نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائمه إثنى عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنسُس، ولكنه جديراً أن تنهار أركانه فينهم. فكانه لم يكن، وإنما لا علم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة، وإنما أبى أن تحيط طلبه، وتعطيه بغيته، كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار زخرفوه حتى خيلوه حقاً.. هو زور وباطل. وإن زينوه حتى أوهموه صدقاً، ومحنة. والله ومصاب أن ينخدع الناس شعورياً وأماماً بهذه الأضاليل، وتسود الكذبة، وتقود بهاتيك الأباطيل، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يختال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأئمة، ويحيق مصايبها بالغير لا به، وأي مصاب وأبيكم؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنساوية وأشباهها من الفتنة والمحن تصبح بملء أفواهها «هذه الأوراق كاذبة»^(١).

٢ - أما «جوستاف لوبيون» فإنه يكشف عن عجز النفس الغربية في الاعتراف بالفضل لأصحاب الفضل وينعي ذلك عليهم في عبارة صريحة. «عزيز على أبناء قومنا أن يقرروا بأن الرواية المسيحية لم تخرج من ظلمات الهمجية إلا بفضل الكفار، وليس بهم قبول هذا الأمر المفض ظاهراً».

ويقول إن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات. وقد تراكمت أوهامنا الموروثة في الإسلام والمسلمين بتعاقب القرون، فصارت جزءاً من مزاجنا، وتشبه هذه الأوهام التأصلة التي أصبحت طبيعة ثانية فينا حقد اليهود الخفي العميق على النصارى. فإذا أضفنا إلى أوهامنا الفاسدة الموروثة على المسلمين الزعم

(١) كتاب الأبطال تأليف توماس كارليل: ترجمة محمد السباعي - ١٩١١.

الباطل الآتي، الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية التقليدية الغيضة: وهو أن اليونان واللاتين هم وحدهم منبع العلوم والأداب في الزمن الماضي أدركنا السر في جحودنا لفضل العرب العظيم في تمدن أوروبا.

ويتراءى البعض الفضلاء أن من العار أن تكون أوروبا مدينة في خروجها من دور التوحش للعرب الكافرين، ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهبي وجه الحقائق.

ويقول «والسهولة التي تنشر بها شريعة القرآن في العالم باهرة. والمسلم حيث يمر يترك خلقه ودينه. والإسلام ينتشر أينما حل، ولم تستأصل شأفة الإسلام. بعد أن رسم. ولقد أصاب مسيو دوفال حيث قال: من فضل الإسلام وإحسانه: زوال الأصنام والأنصاب عن الدنيا، وحرثrim القرابين البشرية، وأكل لحوم الإنسان. وحفظ حقوق المرأة، وتقييد مبدأ تعدد الزوجات، وضبطه، وتوطيد أواصر الأسرة، وجعل الرقيق عضواً فيها، وفتح أبواب كثيرة لتحريره، وتهذيب الطبائع العامة، ورفع مستواها بالصلة والزكاة، وتنقيف المشاعر بالعدل والإنصاف، وإقامة المجتمع على أساس قوية قوية.. ومقاومة المنكرات بالعدل الإلهي»^(١).

٣ - ويصف خالد شلدریک المستشرق البريطاني المسلم كيف أن كتب الخصومة للإسلام. هي التي هدته إلى الإسلام، وكشفت أمامه الطريق إلى الحق فيقول: لم أتلق هذا الدين في أول الأمر من كتبه، ولكني تلقيته من كتابات الطاعنين عليه. لقد حملني البحث والتأمل إلى درس الديانات الأخرى. فدرست البوذية والبرهمية وسائر الأديان. وفي دور الكتب العامة بإنجلترا بحوث عن كل دين ما عدا الإسلام. فإن الكتب

(١) حضارة العرب، تأليف جوستاف لوبيون، وترجمة عادل زعير - ١٩٤٥.

التي ألغت عنه ملوعة بالتحامل والمطاعن والعرض الظالم، وزعموا أن الإسلام ليس ديناً مستقلاً، ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين. وقد تساءلت في نفسي: إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا الحد، فلماذا هم يبذلون كل هذه الجهود... للتحامل عليه ومقاومته، وتوجيهه المطاعن إليه. وقد وَقَرْ في نفسي أنه لو لا الإسلام دين يخشاه هؤلاء الناس، ويحسبون حساباً كبيراً لما فيه من القوة والحياة، لما يبذلون كل هذه الجهود لمقاومته، والطعن فيه، وتشويه سمعته. لذلك عزمت على قراءة هذه الكتب التي كتبت عنه واحداً واحداً. والإسلام لا يخفى انتقاده منتقديه، فمنتقدو الإسلام إنما يظهرون وجهة نظر خصوصه. ومن هذا مصلحة له، وقوة دعوه. والحق يبدو منها حاول المبطلون إخفاءه.

٤ - أما «أميل درمنجم» فإنه يمثل قوة المد في هذه الحركة، حيث يعلن في جرأة أخطاء المستشرقين وتحيزهم ويقول: «إنه لا يوجد أحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية. أما من الجهة الأوروبية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيقي علمي لعظمة منشئ الإسلام».

وقال إنه من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر ارتكبت أغلاط كثيرة ارتكبها أمثال باسكال، وريوندول، وبوستل، ورولان، ورينان، وفولتير، متسكيو.

وقال إن أكثر العداوة بين المسيحيين وال المسلمين إنما جاءت من قبل المسيحيين. وقد أيد هذا (لـ. جوفارا) في كتابه مائة مشروع لتقسيم تركيا^(١).

(١) حاضر العالم الإسلامي، تلخيص شكب أرسلان لكتاب حياة محمد لإميل درمنجم.

٥ - وقد عاد فولتير فغير رأيه في قاموسه الفلسفي فقال: لقد نسبنا إلى الإسلام كثيراً من السخافات وهو في الحقيقة خلو منها. ولكن كهنتنا كتبوا كتاباً كثيرة في ذم الأتراك. واتفق أن كان الأتراك مسلمين. فأصيب على حساب غيره^(١).

٦ - واعترف هنري شامبون مدير (ريفويارلمنت) الفرنسي بالآثار التي عادت على أوروبا نتيجة لتوقف المد الإسلامي في أوروبا بعد معركة بواتيه عام ٧٣٢ م - لو لا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجي على تقدم المسلمين في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيّبت بفظائعها. ولا كابدت المذايّع الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي، ولو لا ذلك الانتصار البربرى على المسلمين لنجت إسبانيا من وصمة محاكم التفتيش، ولو لا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون، ونحن مدينون لل المسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة. مع اننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري في مدة ثمانية قرون، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية، وإنه لكذب وافتراء ما ندعى من أن الزمان قد اختلف، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى.

٧ - ومثل هذا ما ردده كلود فاريير حين اعترف بأنه قد أناخت على الإنسانية بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى تخطى من جرائتها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في المموجية قبل أن تظهر النهضة هذه الكارثة. هي ذلك النصر الهائل الذي أحرزته في بدايته جماعات المركاس المتوحشين يقودها شارل مارتل على فرق العرب والبربر، في مثل هذا اليوم المشؤوم تقهقرت الحضارة ثمانيّة سنة، وحسب

(١) المؤيد - ١٩٠٨ مارس .

المرء أن يذكر ما كان يمكن أن تصل إليه فرنسا. لو لا أن الإسلام النشيط الحكيم الحاذق الرصين المتسامح - إذ الإسلام هو كل هذا - استطاع أن يتزرع وطننا فرنسا من فظائع لا نجد لها إسماً^(١).

ـ ولعل هذا الاتجاه يبدو أشد وضوحاً حين تعرض لقصة ليون روش السياسي الفرنسي الذي أقام في بلاد الإسلام ثلاثين عاماً. وتعلم اللغة العربية وفنونها، وقرأ العلوم الإسلامية، وعاشر المسلمين في الجزائر وتونس. والأستانة ومصر والمحاجز. ولندن ليون روش نفسه يروي تجربته، كما سجلها في كتابه الصادر ١٩٠٤ بعنوان «ثلاثون عاماً في الإسلام»^(٢).

يقول: اعتنقت دين الإسلام زمناً طويلاً لأدخل عند الأمير عبد القادر الجزائري. دسيسة من قبل فرنسا. وقد نجحت الحيلة، ووثق بي الأمير وثيقاً تماماً. وانخدعني سكريتيراً له، فوجدت هذا الدين الذي يعييه الكثيرون أفضل دين عرفته، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي، أدبي، ولم أذكر شيئاً من قوانينا الوضعية إلا وجدته فيه «مشروعًا». بل إنني عدت إلى الشريعة التي يسميها (جول سيمون): الشريعة الطبيعية، فوجدتها كأنها أخذت أحذاً من الشريعة الإسلامية، ثم بحثت في تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة، وشهامة، ووداعة وجمالاً، وكرمًا. ثم وجدت هذه النفوس على مثال ما يحمل به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة. والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب. ولقد وجدت في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرأً: (الأولى) في قول القرآن «إنما المؤمنون إخوة» فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية.

(الثانية) فرض الزكاة على كل ذي مال وتحويل الفقراء حق أخذها

(١) ترجمة محمد لطفي جمعة - البلاغ الأسبوعي (٤ سبتمبر ١٩٢٩).

(٢) ترجمة (المنار) هذا الفصل ونشرته م ٧ ص ٥٢٠.

غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً. إنه دين المحامد والفضائل. ولو أنه وجد رجالاً يعلمونه الناس حق العلم. ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون أرقى العالمين وأسبقهم إلى كل الميادين.

٩ - ويكشف «حقيقة الإسلام» رجل اتصل بأهله قنصلاً لبلاده، في تقرير رسمي طبع ونشر عام ١٨٧٨ هو السير ريتشارد وود الذي عمل في دمشق والجزائر يقول في تقريره^(١).

إن من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة بال المسلمين فيها لهم وما عليهم، وينبئ عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة. لأنه لا يحذر انتشار المعارف والتحلي بالعلوم، وهذه الأوهام باطلة.

إن كثيراً من مؤلفي الإفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسمون لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة، ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التي يقولون إنها لا تلائم المعارف، واكتساب الفنون. وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن، ويكفي برهاناً على بطلانه تاريخ صدر الإسلام. وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون، ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين. أمثال: أرسطو وأفليidis، وأبقراط. وبطليموس. وأكبر بواعث الفهم هو انتشار الظن في أوروبا بأن الإسلام دين القوة والسيف. وهذا الظن مخالف للواقع.

والذي يبحث بحثاً دقيقاً عن أسباب الفتنة التي سفكت فيها الدماء في الشرق. يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها، هو أصبح السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد. ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة، وواقعة الصقالبة. والبلغاريين. فقد تبين أن الاعتداء إنما يبتدىء من جانب النصارى. (وكان ريتشارد وود قنصلاً

(١) ترجمة السيد محب الدين الخطيب وطبعته المطبعة السلفية (القاهرة).

لدولته في دمشق عام ١٨٦٠ عند حدوث فتنة الدروز والمارونة).

١٠ - فإذا انتقلنا إلى باحث آخر كالدكتور بول دي ركلا نجد صورة جديدة من صور الدفاع عن الإسلام والاعتراف به على نحو منصف مستثير.

إن لنا أن نعرف ويعرف العالم^(١) أجمع جوهر هذا الدين. لأن معلوماتنا عنه ليست قليلة فحسب. بل هي سيئة جدًا. وأرى من جهة ثانية أنني أكون أسدت إلى قومي الفرنسيين خدمة إذا أوقفتهم علىحقيقة دين جاء بمبادئه فيها كل الفوائد لأعماهم إذا انقادوا للحق واتبعوا أوامره الجليلة.. دين يجب ألا نكتفي بتسميته دينًا. بل ونقف لنعطيه اسمه الحقيقي ، ولنسمييه فلسفة دينية. فنكون قد أعطيناه مركزه بين الأديان.

ولست بمعالي إذا صرحت عليناً. وقلت إن الإسلام مفتوح بابه على مصراعيه، وهو واسع الأرجاء لتلقي الرقي الحديث الذي أنتجه الأجيال الطويلة. وليس كما يزعم البعض بمحدود الأطراف، وضيق المدخل. لأن تعاليمه الرفيعة وضعت لكرور الدهور، وستبقى خالدة، وضاءة الأنوار. تكشف كل مدينة تمحض عنها العصور.

ويكفيه فخرًا أنه لا يقر مطلقاً القاعدة الشاملة (لإسلام خارج الكنيسة). التي يتبعها كثير من الناس. وقد أظهرت لنا الأيام وخيم عاقبتها.

وهو الدين الوحيد الذي حل بعدل مشكلة حقوق البنين. وواجباتهم باعترافه بالمولود ضارباً عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونواتيسها الذي أوجده الدين الكاثوليكي بحق الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين. إذ فرق الدين الكاثوليكي بينهم، فأعطى الأول كل

(١) مجلة العرفان (صيدا) ص ١٦٦ م ٢٢ - ١٩٣١ - (١٣).

الحقوق، وحرم الآخر من كل الحقوق. فعمل كهذا منافي لسدن الطبيعة، وجرية كبرى نترفها في حق الأولاد غير الشرعيين.

وإن الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفحور. وبكيفه فخرًا إنه قدس الأنساب وعظمها ليرغب الرجل بالزواج. ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً.

وأن الإسلام قد حل بعقلية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشرعي الغرب بتعقيداتها. فالإسلام هو الدين الديمقراطي الوحيد سواء أكان بتعاليمه، أم بشرائعه، أو بعاداته، فهو لا يعترف مطلقاً بالزعامة الدينية، وما الرتب والألقاب سوى نعوت شرقية تعطى لبعض الأشخاص الذين لهم مركز بين في الهيئة الاجتماعية، ولا تورث للأعاقاب. فالإسلام: يستحق ولا ريب أن تدرس تعاليمه من قبل عظاء رجالنا الموكول إليهم أمر نشر نفوذنا. ومع الأسف قد أساءوا العمل باحتقاره. لأنهم يجهلون جوهره الثمين، وهم مسودون إلى اتباع خطى أسلافهم، فهم مقلدون ليس إلا..

١١ - ويكشف (إياتان دينيه) عن تعصب قومه، في كتابه: محمد نبي الإسلام. فيقول: لقد مضى عليهم ثلاثة قرون، وهم يهاجمون هذا الإسلام بدعوى أنهم يدعونه أساساً ليرقموا على أنقاضها حفائق. وهذا هم. بعد طول العناء لم يعملا شيئاً. وإذا قارنا النظريات الحديثة التي تفنن فيها المستشرقون من فرنسيين وإنجليز وألمان وبلجيكيين وهولنديين. وعارضنا بعضها ببعض افتضح حينئذ ما انطوت عليه أقوالهم من اختلاط وتلبيس، لأن نظرياتهم مبنية على الباطل، ولذلك تولى بعضها تحطيم البعض الآخر. فالذي يقوله (دنهارت دوزي) في كتابه (مسلمو الأندلس -

١ - ١٨) من أن حمداً شد عن قومه العرب بأن له خيالاً. وأن العرب مجردون من الخيال. فيكتبه (هنري لامنس) في كتابه (مهد الإسلام). ص ٤ - ٥) لأنه ينسب فوز الإسلام إلى المطابقة بين محمد وبيته.

ويذهب (دوزي) إلى أن نبي الإسلام كان سوداويًا صموتاً يميل إلى التزهه الطويلة. بينما لامنس يكذب ذلك. ويقول: إن هذا الزعم لا يتفق مع نفور محمد من الوحدة وكراهيته للنسك.

والذي يقوله نولدكه في الوحي الحمدي يكذبه دي خويه في مباحث شرقية (ج ١ ص ١ - ٥) ثم يهدم (سبرنجر) هذين الرعيمين في كتابه: حياة محمد وعمله (١ - ١٥٧) ويناقضهم (سنوك هرجرونجه) فيذهب في مجلة تاريخ الأديان (٣٠: ٥٧) إلى غير ذلك.

ويقول جريميه في كتابه محمد (ص ١٥) أن النظام الإسلامي نظام اشتراكي. أكثر منه ديني، ويرد سنوك هرجرونجه عليه بأن اشتراكية الإسلام نشأت من شطف جزيرة العرب، ثم يأتي اليهودي مرجليوث فيزعم أن بداية الإسلام كانت جمعية سرية كالماسونية تأسست في دار الأرقم. وأن «السلام عليكم» شعارها^(١).

وإتيان دينيه مصور فرنسي عاش في شمال إفريقيا. واقتتنع بحقيقة الإسلام. وقرأ كل ما كتبه المستشرقون عن الإسلام، ورأى كيف تضاربوا. ومن رأيه أن الأب لامنس في علم المشرقيات كبطرس الناسك في الحروب الصليبية جهز بهمة لا تعرف الكلل حملة صليبية دعية في العلم طمعاً في أن يصرع الإسلام صرعة لا مقام منها.

وأن نفراً من النصارى في أوروبا دانوا بالإسلام في الأعوام الأخيرة،

(١) ص ٢٦٢ م ١٨ المثار.

ويكثر عددهم على مر الأيام. وأن الكنت هنري دي كاستري. قال في كتابه : الإسلام (ص ٢١١) أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا مرتدون فيه^(١).

١٢ - ويرد درمنجم على لامنس وشيخو في كتابه (حياة محمد) فيقول : إن كتب الأب لامنس قد شوهت محسنها بما بدا في تضاعيفها من كراهية الإسلام ورسوله ، فاستعمل في التاريخ طرفةً بالغ فيها بالنقد . ومثل لامنس ، شيخو . فإنه لم يأل جهداً في إثبات دعواه أن العرب قبل الإسلام وبعده لا شأن لهم في المدينة . وإذا كان هناك من حضارة فإنه يثبتها لنصارى العرب .

١٣ - ويرد فلكس فالى المستشرق المجري^(٢) اتهام الإسلام بالجمود . فيقول : إن دعوى كون الإسلام جاماً لا يتحرك دعوى لا دليل عليها . والحق أن الإسلام كان في كل عصوره مثالاً للحركة الفكرية في التاريخ . وأن التشريع في الإسلام ليكشف عن خبايا التشريع الروماني . وقد أقام الدليل على مرونة الإسلام جولد زيهير في كتابه دروس في الإسلام .

إن الإسلام الذي ليس لانتشاره مثل في تاريخ الإنسانية ليس مبنياً على الاعترافات الدينية .

ومن رأي فليكس ، فإلى أن هذه البعثات التي تذهب إلى الشرق ، كانت تصدر حكمها قبل أن تصل إلى بلاد إسلامية . وهذا كانت آراؤها خطأ . لأنهم لم يعرفوا الإسلام إلا من المسيحيين الوافدين من الشام . وكل هم مؤلاء أن يستفيدوا من الآراء الجائرة من الأوروبيين أو الأمريكيين ضد المسلمين .

* * *

(١) آراء غربية في مسائل شرقية (عمر فانحوري) .

(٢) ٩ يناير ١٩٢٣ جريدة الأخبار .

وبعد: فإن هذه النصوص الواضحة الصريحة التي أوردناها للكوكبة من المفكرين والعلماء والباحثين تكشف عن حقيقة ما ذهبنا إليه من أن جوهر الإسلام التقى، وقوته الذاتية - بالرغم من الضباب التي رسمت صورته من خلاله. وهذه الاتهامات المريضة الذاهبة في أطواء الحقد والتعصب - قد استطاع هذا الجوهر أن يكشف عن نفسه، وأن يدل على مفاهيمه الأساسية.

ولا شك أن هذه الكلمات تعطي الحقائق الآتية:

- * إن كتاب الغرب كانوا متخصصين أساساً في النظر إلى الإسلام، ولم يكن لديهم استعداد للإنصاف.
- * إن فضل المسلمين على الحضارة الغربية أمر لا شك فيه. وأن اليونان واللاتين ليسوا هم وحدهم منبع العلوم والأداب.
- * اهتمام الغربيين بمقاومة الإسلام مقاومة فعالة. على حد قول خالد شلدريلك: من أن الإسلام لو كان لا أهمية له. فلماذا هذه الجهد في التعامل عليه ومقاومته، وتوجيه المطاعن إليه.
- * الاعتراف بأن موقعة شارل مارتل التي أوقفت تقدم المسلمين في أوروبا هي التي أخرت سير المدنية ثمانية قرون.
- * كرامة المسلمين في فتوحهم واتصالهم بالشعوب، وبربرية الغرب في هذا المضمار.
- * تقدير ما في أصول الإسلام من حلول لمشاكل الإنسانية في الأخوة والاشتراكية والزكاة.
- * بطلان الادعاء بأن القرآن الكريم مقيدٌ لطريق الارتقاء والادعاء بأن الإسلام انتشر بالسيف.
- * ليس الإسلام ديناً فقط. ولكنه دين وحضارة ومجتمع.. وأنه دين المستقبل. وستبقى تعاليمه خالدة وضوء الأنوار.

- * حلّ الإسلام بعقلية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشرعي الغرب.
- * اضطراب المستشرقين في آرائهم وبعدهم عن روح البحث العلمي وتعارض آرائهم مما يوحى بأنها مبنية على الباطل.
- * الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا مرتدون فيه.
- * لم يكن الإسلام جاماً. وإنما كان مثلاً للحركة الدائمة.
- * البعثات التي كانت تبحث عن الإسلام لم تكن تتصل بصادره الأساسية. بل تعتمد على بعض خصومه وعملاء الاستعمار.

(٤) ضوء جديد من الاسلام

(١)

أصول الإسلام

لطالما ردَّ كتاب الغرب الآراء حول تعصب الإسلام وأضطرابه وامتلائه بالأساطير والخرافات. ولم يكن هذا هو الحق، لأن أصحابه لم يصلوا إليه عن طريق دراسة منصفة. وإنما على سبيل الاتهام والتعصب.

١ - ومن عجب أن رينان الذي هاجم الإسلام في كثير من مؤلفاته يعود في كتابه (تعليقاني على تاريخ الأديان) فيواجه هذه المسائل بروح علمية. يقول رينان^(١):

إن بعض الأديان قد أسيتها أيدي النساء، ولكن الإسلام الذي قام على سواعد رجال أولى عزم كمحمد، يعرف فيه كل منصف أنه قدسي الأهداف. بل هو دين الحزم والجد. دين البساطة والمساواة والعدالة، والحرية.

لم ينصف الغربيون الإسلام باتهامهم إياه بقساوة الجهاد والفتوحات. مع أن هذا الجهاد كان ضرورياً لنشر العدالة التي تزدان بها التعاليم الإسلامية المشرفة.

ونضرب مثلاً على ذلك بإيراد السؤال الآتي لعلمائنا المؤرخين

(١) نقاً عن كتاب الديانات والحضارات (طه المدور - بيروت ١٩٥٦).

كالكونت كرادون الذي اتهم الإسلام بالتعصب وحدة الجهاد، وحجب المرأة فيقول: ترى كيف، ولماذا قلب نصارى سوريا ظهر المجن لأباطرة الرومان المسيحيين، والتجأوا إلى حمى أبي عبيدة بن الجراح المسلم، وعاونوه في الجهاد لطرد الرومانيين من الديار السورية. ذلك بأنهم تذوقوا العدالة التي جاء بها الإسلام وفضلوها بالطبع على الجور الذي كانوا يلاقونه ويعانونه من أبناء دينهم الرومانيين.

وفي الرد على فلسفة كانت أقول إنه ليس في الإسلام أساطير ولا خرافات. فالمجهود العلمي والمنطقى بارزان في معظم التقاليد الإسلامية. فإذا درست مذاهب الإسلام الأربعية (الشافعية، والحنفية، والمالكية، والحنبلية) لا تجد غير دساتير خلقية متينة، ومشاعر روحية سامية، وقواعد تعبدية منسجمة، ترمي بالنتيجة إلى تحرير الحق من كل باطل.

وما البروتستانتية التي نشر الاصلاحيون (لوثر وأنصاره) المجددون لواءها في أواخر القرون الوسطى بأوروبا إلا صورة لتقاليد البساطة الإسلامية. سواء في طقوس العبادة، أو في استئصال الزخرفة المقتبسة من أساطير الإغريق، ولا يحق لأوروبا أن تلتجأ إلى طبع الأديان غير المسيحية بطابع حضارتها. وأن توسعها طعناً وتزييفاً. إذ أن لكل دين وجهة دينوية بجانب وجهته الدينية.

٢ - ويرى القس إسحاق بتلر رئيس الكنيسة الإنجليزية^(١). «أن الإسلام ينشر المدنية التي تعلم الإنسان ما لا يعلم، والتي تقول بالاحتشام في الملبس، وتأمر بالنظافة والاستقامة. فمنافع الإسلام لا ريب فيها. وفوائده من أعظم أركان المدنية ومبانيها.

(١) المثار - م ٣ - ١٩٠٢.

(حقوق المرأة)

٣ - ويدافع واصف بطرس غالى^(١): عن مقاصد الإسلام في رسالته (البطولة عند العرب) ويرد على كل ما يثار في هذا الصدد من اتهامات. يقولون إن الإسلام قد حط من قدر المرأة. وجهلوا أن محمد ﷺ، بذل أقصى الجهد في تحريرها، وضمان مصالحها، وتحسين مركزها المادي والأدبي، وما على المتشككين إلا أن يرجعوا إلى تعاليم النبي ليعرفوا كيف رفع المرأة إلى المكان اللائق بها. وكيف كانت تعاليمه وفقاً لحاجة الناس والتطبيق الدقيق لأحكام القرآن ونصوصه تكفل للمرأة المسلمة الحديثة التمتع بالحقوق المدنية التي يمكن في دائرة العقول التي نصبو إليها.

٤ - ويصف ولز الإسلام^(٢) بأنه «ملوء بروح الرفق والسماحة والأخوة، وأنه عقيدة سهلة يسيره الفهم، وأنه مهماً عليه السلام قد أوصل مبادئ الإسلام الجذابة إلى سويء قلوب البشرية دون أي فرية مبهمة، ودون أن يقيم للهيكل أي أهمية، ولقد أدخل الإسلام في أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيا فكرة سياسية عرفها البشر، ومدّ إلى البشرية يد المعونة».

(الزكاة)

٥ - وي تعرض ماسينون في كتاب «وجهة الإسلام» للزكاة باعتبارها نظاماً اقتصادياً دقيقاً فيقول: للإسلام الفضل في أنه يمثل لنا فكرة عادلة عمّا يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ربع الأرض للخزانة العامة. إنه يشن العارة على المبادلة المطلقة، ورأسمالية المصارف، وقروضن الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء ذات الأهمية الجوهرية، ويقف

(١) في كتابه: (البطولة عند العرب) منقولة من جريدة الأخبار ٢٠ مارس ١٩٢٣.

(٢) كتاب معالم تاريخ الإنسانية لولز.

وسطاً بين الرأسمالية والبورجوازية والشيوعية والبولشفية.

٦ - ويصور (كارليل^(١)) طبيعة الإسلام: وكيف يرمي «بطريقته الخاصة إلى إنكار الذات وقمع النفس». ويقول: هذه هي أسمى حكمة كشفتها السماء لعلمنا الأرضي، وإن لأجد في محمد وفي قرآن الصدق والإخلاص والتحرر الكامل من الزيف والضلالة قبل كل شيء. وقد ظل دينه طيلة هذه القرون الإنثني عشر مرشدًا لخمس الجنس البشري، وظل قبل كل شيء موضع إيمان قلبي عميق، لقد كان العرب شعباً ضيق الأفق، فبعث إليهم بنبي بطل. فلم ينقض قرن حتى كان العرب قد وصلوا إلى غرناطة من ناحية وإلى دلهي من ناحية أخرى.

٧ - أما (هـ. جـ). ولز في كتابه مختصر تاريخ العالم، فيرسم صورة أخرى على هذا النحو. هؤلاء البدو انبعثوا فجأة، وبلغوا في قرن قصير غاية الرفاهية. فلقد نشروا حكمهم ولغتهم ما بين إسبانيا وببلاد الصين. ولقد أمدوا العالم بثقافة جديدة، ونشروا دينًا لا يزال حتى اليوم قوة من أهم القوى الحيوية في هذه الدنيا. إن في ذلك الدين الذي نشره محمد في العرب كثير من أسباب القوى والوحى. ومن أبرز خصائصه الوحدانية المطلقة التي لا تعرف هوادة، وعقيدته السهلة المتحمسة في الله وحكمه، وخلوه من التعقيد المذهبي، والتحرر المطلق من الرهبة والبعد، وثم عنصر هام من عناصر القوة في الإسلام، وذلك تأكيده الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن ألوانهم وأجناسهم وأوضاعهم.

٨ - أما (جب) في (وجهة الإسلام^(٢)) فيقول: لا يزال الإسلام في العالم العربي يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة، وهو على

(١) - (ك) الأبطال، وعبادة الأبطال: ترجمة (محمد بدر الدين خليل).

(٢) ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة - طبعة ١٩٣٣ القاهرة.

معارضته لفوضى القومية الأوروبية، وللنظام العسكري لروسيا الشيوعية لم يقع بعد فريسة للهجمات الاقتصادية الملحقة التي تمتاز بها أوروبا وأسيا).

٩- أما (تريلتون) في كتابه: (الإسلام عقيدته^(١) وعبادته) فيعرض جانب آخر هو «الوحدة». التي تجمع بين المسلمين في طابع واحد.

يقول: إذا صحت العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض معظم الظواهر التاريخية الكبرى. وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها. فإن هذا التفسير يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة المسلمين وغليتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم، واتساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد. إلا وهو «الإسلام».

رأوا أن الإسلام قوة هائلة، فيه حيوية دافقة. وديناميكية حية وهو مفتوح على العمران، وسبيل الحضارة، وهو الطريق إلى جمع الكلمة ونشر السلام، وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب.

١٠- وعارض واصف بطرس غالى^(٢) «دعوى القدرية التي وجهت للإسلام» فقال: يزعمون الإسلام لا يشجع علىبذل الجهد. لأن هناك كلمة تقول (إن كل شيء مكتوب) والحقيقة في ذلك أن التسليم للقضاء والقدر في الديانة الإسلامية ليس معناه الجمود، ولا حبس الجهد فهو لا ينكر العمل ولا يقف في سبيل التطور.

(١) ملخص للكتاب في مجلة الثقافة م ١٩٥١.

(٢) كتابه «البطولة عند العرب» وبالفرنسية.

(شعور العزة)

١١ - ويلخص (ولفرد كاتبول سميث)^(١) عظمة الإسلام في شعور

العزّة الذي يملأ نفوس معتنقيه فيقول:

ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزّة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع. وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلماً باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين. وأن الغربي لا يفهم الإسلام حق فهمه، إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً. وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره.

١٢ - وقال وليم كاسن إن الإسلام هو الدين المختار، فكثير من

الرسل الذين عرفوا منذ القدم جاء ذكرهم في القرآن، تحوطهم الجلالة والتقدسيّ، بل لعيسي بن مرريم بين هؤلاء الرسل، مكانة خاصة، فقد جاء ذكره في السورة الرابعة. رسول الله يحمل كلمته، ويستمد الروح من عنده.. ﴿إِنَّمَا الْمُسِيَّحُ عِيسَى بْنُ مَرِيْمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَيْهِ مَرِيْمٌ وَرُوحُهُ مِنْهُ﴾.

١٣ - ويرى المستشرق (وامبرى) أن روح نظام المسلمين هو الدين،

والذي أحياهم هو الدين، والذي يكفل سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس غير.

١٤ - ويرى إدوار مونته: أن روح الإسلام صعب على الغريب عنها

أن يقف على سرها.

١٥ - ويرى (انشتين) أن عظمة الإسلام تتركز في عوامل ثلاث: أنه

أحدث الأديان، وأنه لم يخاصم العلم، وأنه يستطيع أن يعالج أزمات العالم الحاضر.

(١) كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» المترجم في سلسلة كتب سياسية.

الإسلام والسيف

كان الاتهام الذي وجهه كتاب الغرب إلى الإسلام أنه انتشر بالسيف، وأنه ما كان من المستطاع أن يتسع في هذا الزمن القصير، ويقيم هذه الامبراطورية الضخمة لولا السيف.

وقد واجه الكتاب الغربيون هذا الاتهام وفندوه.

١ - يقول ويفالنج لنجرميش^(١): لم يحدث في التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة، واعتقد الغرب أن توسيع الإسلام ما كان يمكن أن يتم، لو لم يعمد المسلمون إلى السيف، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأي.

فالقرآن الكريم صريح في تأييده لحرية العقيدة. والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلف الأديان. ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية.

ولا شك أن حروباً قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود. وفي بعض الأحيان كان سبب ذلك أن أهل الديانات الأخرى أصروا على القتال. وفي القرآن الكريم آيات تصور العنف الذي استخدم في هذه الحروب، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة. وكانوا أحراضاً في عباداتهم.

٢ - ويقول السير ريتشارد وود في تقريره: إن من أكبر بواعث سوء التفاهم بين أوروبا والإسلام، هو انتشار الظن في أوروبا بأن الإسلام دين القوة، والسيف. ولكن هذا الظن مخالف للواقع لما جاء في القرآن الكريم ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا...﴾ الآية.

٣ - أما ريفونويت في كتابه «اعتذار إلى محمد والإسلام»^(٢) فيقول إنه

(١) مجلة المختار - فبراير ١٩٥٦.

(٢) م ١٣ ج ٧٠٥ المدار.

من الحماقة أن نظن أن الإسلام قام بحد السيف وحده، لأن هذا الدين الذي يهدي للتي هي أقوم بحرم سفك الدماء. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٤ - ويتحدث غاندي عن تسامح الإسلام، وينكر أكذوبة السيف يقول: لم يكن الإسلام في إبان مجده عديم التسامح. فقد أحرز اعجاب العالم كله. ولما كان الغرب غارقاً في الظلمات أشرق نجم في سماء المشرق، وأضاء عالماً متألماً، ومنحه التعزية. ليس الإسلام ديناً باطلأ، فليدرسه الهندوس باحترام، ويحبوه كما أحبه أنا. وقد غدوت مقتنتعاً كل الاقتناع أنه ليس السيف هو الذي جعل للإسلام مكانة في معرك الحياة. بل إن بساطة النبي التامة، وإنكاره الكلي لذاته واحترامه الدقيق لعهوده وإخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه وشجاعته وبسالته وثقته الكاملة بالله. ورسالته هذه - لا السيف - هي التي جرفت كل شيء أمام المسلمين الأولين.

٥ - ويتحدث واصف بطرس غالى في كتابه: (البطولة عند العرب) عن تسامح الإسلام: فيقول: إن هناك الأمثلة العديدة التي تدل على روح التسامح عند المسلمين سواء في علاقاتهم مع غير المؤمن، أو مع إخوانهم في الدين. فلا فرق بينهم كانوا أو شيعين، إباھيين كانوا أو ملحدين. فإذا نسجل هنا شهادة رينان الذي لا يستطيع أحد أن يتهمه بالعطف على الإسلام قال: إن حب العلم والكمال. قد حقق في القرن العاشر في تلك البقعة الممتازة من العالم (الأندلس) تساحماً ليس في وسع العصور المدنية أن يوجد ما هو أعظم منه، فإن المسيحيين واليهود والمسلمين كانوا يتعلمون لغة واحدة، ويتفاعون بأغانٍ شعرية واحدة، ويدرسون معاً دروساً واحدة في الأدب والعلوم. ولقد سقطت جميع الحواجز التي تفصل الناس بعضهم عن بعض، فكانوا جميعاً متضامنين في العمل على خير المدينة المشترك. وأصبح جامعاً قرطبة حيث كان طلبة العلم يعدون بالألف مرکزاً حياً للدرس الفلسفية والعلمية.

معاملة أهل الكتاب

اتهم الكتاب الغربيون الإسلام بأنه أساء معاملة أهل الكتاب..
والحقيقة أنه ليس غير الإسلام من أنصف أهل الكتاب وأحسن
معاملتهم..

١ - دافع عن هذه النظرية السير ريتشارد وود قنصل إنجلترا في خطابه السري الأزرق ١٨٧٨. يقول: من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة المسلمين فيما لهم، وما عليهم، ومعلوم أن أهل الذمة لهم ما لل المسلمين، وعليهم ما عليهم إذا ثبت أن غاياتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين، وأنهم مثلهم في إيثار مصالح الوطن والخير العام.

وقد نص القرافي وابن حزم على أن لهم حق الحماية إذا دخل الحربيون البلاد. يقول القرافي ما معناه: «إن من واجب المسلمين للذميين الرفق بضعائهم، وسدّ خلة فقرائهم، وإطعام جائعهم، وإلباس عارفهم ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذى الجار منهم مع القدرة على الدفع، وإخلاص النصح لهم في جميع أمورهم».

ولا يخفى على المتأمل في هذه الفتوى أنها تتوج أمرتين:
الأول: أن الإسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظمات الدينية. وإنما كان يجيز للإمام أن يستعين برؤسائهم، ويعمل بمشورتهم، ويقبل مفاوضتهم في نوازل المسلمين.

الثاني: أن الإسلام لا يمنع من استخدام النصارى واليهود أكثر مما يقتضي الحال، و تستلزمه الضرورة الوقية.

وصاحب الشريعة الإسلامية قد ميز بين أهل الكتاب وهم النصارى، واليهود، وبين المشركين من العرب، وقد وقع بين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وبين طريق بيت المقدس اتفاق يتضمن حرية النصارى، ومنحهم امتيازات وفيّ بها.

٢ - وقد تناول الكثيرون موقف المسلمين في العصر الحديث من الأقليات على نحو يكشف عن حقيقة موقف الإسلام، ومصدر الفتنة الحقيقية في مختلف المؤامرات التي وقعت. فالكاتبون غوردون كاتنجه^(١). يقول عن الأقليات المسيحية واليهودية أنها كانت تعامل على الدوام خير معاملة في البلدان الإسلامية. إلى أن تأتي دولة أوروبية، وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث في مسألة الأرمن والأتراف. إن زعماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائمًا يعملون على تلافي هذا التناقض. وإصلاح ذات البين. فإذا كان التعصب قد أخذ مجراه في زمن من الأزمات. فقد كان المسلمون على مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين. ومن الواجب أن تتحذذ مبادئ نجران كالمثل الأعلى للزعيم المسلم: «إن دم الذمي كدم المسلم».

٣ - ويشير السير ريتشارد وود قنصل إنجلترا في دمشق إبان وقوع المجازر بين الموارنة، والدروز، في تقريره الذي رفعه إلى دولته ١٨٧٨ فيقول:

والذي يبحث بحثاً دقيقاً في أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في الشرق، يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو أصبع السياسة

(١) الأهرام - ٢٨ أكتوبر ١٩٢٩.

الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد. ومن هذا القبيل واقعة «الدروز والمارنة» وواقعة الصقالبة والبلغاريين. فقد تبين أن الاعتداء إنما يبتدئ من جانب النصارى».

(لا إكراه)

٤ - ومن ناحية أخرى يشير المؤرخ الإنجليزي أرنولد تويني إلى انتفاء صفة الإكراه في الدعوة الإسلامية فيقول^(١): «من الميسور أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غالباً في تحسيم أثر الإكراه في الدعوة، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف، وإنما كان تخييراً بين الإسلام والجزية، وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها».

٥ - وقد شهد الدكتور تريتون في كتابه «الإسلام معتقداته وطقوسه» بأن الإسلام ينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق، وفي العصور الوسطى كان اليهود سعداء بالعيش بين المسلمين أكثر مما كانوا بين المسيحيين.

الإسلام دين ومجتمع

كان كتاب أوروبا يقيسون أمور المسيحية على الإسلام، ويحاولون تطبيق ما وقع بالنسبة للمسيحية مع الفكر الغربي، والحضارة الغربية على الإسلام غير ناظرين، تحت ضغط الضباب الكثيف المثار في وجه الإسلام. من أن الإسلام دين ومجتمع.

غير أن بعض كتاب الغرب المنصفين تنبهوا فعلاً إلى هذه الحقيقة.

(١) نقاً عن العقاد في كتابه ما يقال عن الإسلام ص ٢٧.

من أن الإسلام ليس ديناً فقط، ولكنه دين ومجتمع وحضارة.

١ - يقول سير موريسون «إن الحق الذي لا يماري فيه أحد. إن الإسلام أكثر من معتقد دين، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز، هو حضارة كاملة النسيج، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها. وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الإسلام والنصرانية على نضال ونزاع. فما وهن جانب من جوانب الإسلام فقط. بل ما انفك على الدوام يشد بعضه بعضاً متماسكاً متعاضداً».

٢ - أما جورج سارتون (جامعة هارفارد) في كتابه الشرق الأوسط في مؤلفات الأميركيين، فيقرر أن الإسلام من أصح النظم الدينية والاجتماعية. وأجملها. ويقول: «وهو عندنا أصح تلك النظم على الإطلاق».

(٢)

التشريع الإسلامي

ما أظن أن جانباً من جوانب الإسلام لقي من عنت الاتهام، كما لقي التشريع الإسلامي. ذلك أن الغرب كان يحرص على أن يثير حول الشريعة الإسلامية ضباباً كثيفاً. وقد حاول (دافيد سانتيلانا)^(١) أن يقول إن المشرع الإسلامي وجد التشريع الروماني سائداً في الشام ومصر وإفريقية إلى مراكش. فنسخ منه ما نسخ، أو قول هنري ماسه في كتابه: الإسلام المطبوع في باريس ١٩٣٠ حيث ادعى أن الفقه الإسلامي لم ينشأ عند العرب بمحض تفكيرهم الخاص من غير تأثير خارجي فيهم، أو قول جولد زين المستشرق النمساوي في كتابه (عقيدة الإنسان وقانونه). المترجم إلى الفرنسية ١٩٢٠ من أن هناك تشابهاً وتماثلاً بين الحقوق - الإسلامية والحقوق الرومانية.

وقد انبرى من أعلام الفكر الغربي المنصفين من كذب هذه الاتهامات، واعترف بأن التشريع الإسلامي مستقل استقلالاً كاملاً، ولا شبه عليه في الارتباط - بالقانون الروماني.

١ - ويعرف العلامة «شيريل» عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا - (الكاثوليكي المذهب) بفضل الشريعة الإسلامية، ففي كلمة أمام مؤتمر

(١) مقدمته على مشروع القانون المدني والتجاري التونسي ١٨٩٠ تونس.

الحقوقين عام ١٩٢٧ قال بالنص: «إن البشرية لتفخر بانتساب رجل محمد إليها. إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام».

٢ - وفي مؤتمر عام ١٩٥١ (شعبة الحقوق الشرقية في المجمع الدولي للقانون الروماني) المعقود في كلية الحقوق في باريس. وضع المؤتمرون قراراً جاء فيه.

«أثبتت الأبحاث بجلاء أن الفقه الإسلامي يقوم على مبادئ ذات قيمة أكيدة لا مرية في نفعها. وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذا الجهاز التشريعي الضخم ينطوي على ثروة من الآراء الفقهية وعلى - مجموعة من الأصول الفنية البدعة التي تتيح لهذا الفقه أن يستجيب ببرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة».

٣ - وأصدر مؤتمر القانون الدولي المقارن. في لاهاي (أغسطس ١٩٣٧) قراراً هو: «أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور، ومسايرة المدنية الحديثة، وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن».

٤ - وقال المستشرق المجري: إن فقهكم واسع جداً إلى درجة أنني أفضي العجب كلما فكرت في أنكم لم تستبطوا منه الأنظمة والأنظمة الموافقة لبلادكم وزمانكم.

٥ - وقال كتشنر القائد البريطاني للقوات البريطانية في الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى: إن^(١) الدولة العثمانية لا تصلح بالقوانين التي تقتبسها منا عشر الأوروبيين - حيث لم تصلح لنا هذه

(١) المنار م ١٧ ص ٧٧.

القوانين ألا بعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير منها، ونبذل بحسب اختلاف الأحوال، وأن عندكم شريعة عادلة موافقة لعقائدهم ولأحوالكم الاجتماعية. فالواجب على الدولة أن تعمل بها، وتترك قوانين أوروبا فتقيم العدل، وتحفظ الأمن، وعندى أنها لا تصلح بغير هذا.

٦ - وقال فيلسوف ألمانيا جوته: أية شريعة لم تتمكن من أن تعلو فوق شرع محمد. وأن التشريع في الغرب ناقص على الرغم من تقدمه، ناقص بالنسبة للتعاليم الإسلامية، وإننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد^(١).

٧ - وقال ليفي أولان: (حقوق باريس: إن الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدر حي للقانون العصري ومناط للحق).

٨ - وقال العلامة «سانيتلانا» في كتابه: الفقه الإسلامي المطبوع في تونس ١٨٩٩ - إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني. إن لم نقل إن فيه ما يكفي الإنسانية كلها.

٩ - ويقول العلامة كيهлер (العالم القانوني الألماني) بعد أنقرأ بحثاً للدكتور محمود فتحي عن مذهب الاعتساف في استعمال الحق عند فقهاء الإسلام :

إن الألمان كانوا يتبعون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف في القانون المدني الألماني الذي وضع سنة ١٧٨٧ م - أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي، وأفاض في شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامي، وأبان أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا طويلاً ابتداء من القرن الثامن الميلادي، فإنه يجدر بالعالم القانوني الألماني أن يترك مجده العمل بهذا

(١) العرفان ص ١٢٥ م ٣٧ (١٩٥٠).

المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون. وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية.

١٠ - أما هوكنج الأمريكي، أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد في كتابه روح السياسة العالمية^(١). فقد صور مشاعره تجاه الثقافة الإسلامية.. إزاء الشريعة الإسلامية فقال:

إن سبيل تقدم المالك الإسلامية ليس في اتحاد الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية، وعن القانون والنظم السارية، وإنما يجب أن يجد الماء في الدين مصدراً للنمو والتقدم.

وأحياناً يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة، وإصدار أحكام مستقلة تتفق مع ما تتطلبه الحياة العصرية. والجواب هو: أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، بل إنه من حيث قابليته للتتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة، وعندى أن الصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشريعة الإسلامية. وإنما في انعدام الميل إلى استخدامها، وإنني أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ الالازمة لنهضتها.

١١ - ويقول كارليل في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال): إن في الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل على صدق النظر، وصواب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء. والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة ستة محبوبة. بل يجعلها فرضاً حتى على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام. ثم يقررها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءاً من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين.

(١) الكتاب طبع في أمريكا عام ١٩٣٢

١٢ - ويقول الدكتور انسيلاتو الإيطالي في كتابه : (الإسلام وسياسة الحلفاء) المطبوع ١٩١٩ : إن الكرم العلمي والصدق الفكري صفتان من صفات الإسلام شأنهما أن يجعلها الأمة العاملة بهذا الدين أهلاً لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا.

ولما كان أمين الريhani في السفينة الشراعية على ساحل جزيرة العرب قاصداً ساحل الإحساء أثقل الهواء جفنه فنام قليلاً، ثم أيقظه صوت الملائكة. وهم إذ ذاك يستغلون في قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون ﴿لَا إله إلا الله﴾. فقال الريhani في كتاب : ملوك العرب وربك أيها القارئ ما سمعت في أنغام الليل في الماء أطرب من صوت المؤذن في الخليج، وهو يؤذن الفجر، ليس في صلوات الأمم كلها أدعى إلى الورع والخشوع، وليس هناك أجل وقعاً في النفس من صلاة الملاح في ظل الشراع.

١٣ - وقالت مسز ساروجيني نايدو الشاعرة الهندية : لقد دعا الإسلام قبل اليوم بثلاثة عشر قرناً إلى المساواة والأخوة. وقد أسس الإسلام أول جمهورية كان القانون الإلهي رائدها. والفقير والغني فيها سواء. ولا شك مطلقاً أنه سيأتي يوم يبتلع فيه الإسلام جميع الأديان.

١٤ - وقال شيلي شميل : إن في القرآن أحوالاً اجتماعية عامة، حتى في أمر النساء، فإنه كلفهن بأن يكن مقصورات عن الريب والفواحش، وأوجب على الرجل أن يتزوج واحدة عند عدم إمكان العدل. وقد فتح القرآن الكريم، أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة، ولترقية الروح والجسد، بعد أن أوصد غيره من الأديان. تلك الأبواب، فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلّي عن العالم الغافى.

١٥ - ويقول^(١) الفيلسوف فاندنبرغ الألماني : لقد وضع للرقى في

(١) الرسالة م ١٩٤٦ ص ١٣٣٣

الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما انطوى عليه الإسلام من الشعور الإنساني البليل، ففيها نجد من حامد الإسلام ما ينافي كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تتشي في طليعة الحضارة.

١٦ - ويقول (هولتزندرون وريفي) الألماني: أنه يوجد في الفقه الإسلامي جميع القواعد الجوهرية التي تتعلق بشرعية الحرب، ولم تقتصر على الفتح والغنية، بل تجاوزتها إلى فرض الضرائب، وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها مما لا يختلف في الاسم عنها يستعمل في يوم الناس هذا.

(٣)

تاريخ الإسلام

كانت حملات كتاب الغرب على تاريخ الإسلام موصومة بالاتهام، مليئة بالتعصب، حريصة على أن تشوّه هذه الصور النقيّة الواضحة من القوة - والبطولة، والعدالة التي يتسم بها تاريخ الإسلام كله.

١ - ولكن نيشه مثلاً يتنبه إلى هذا المعنى حين يقول: لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبرية القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام، فقد ديسّت بالأقدام. تلك المدينة العظيمة، مدينة الأندلس المغربية لماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، من غرائز شريفة، من غرائز رجال تلك المدينة التي لم تنكر الحياة. بل أجبتها بالإيجاب، وفتحت لها صدرها.

٢ - ويصور ماكود فارير (أستاذ اللغات الشرقية) بالكوليج دي فرنس توقف الحضارة الإسلامية يقول: في عام ٧٣٢ حدثت فاجعة ر بما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان أن غمرت العالم الغربي مدة سبعة أو ثمانية قرون - هذه هي معركة بواتيه برابرة المحاربين من الإفرنج بقيادة: شارل مارتل.

ويكفي أن نطوف في حدائق الأندلس في أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة، لنرى ماذا عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العثماني الفلسفي المتسامح.

٣ - أما هنري بيرين فيتحدث في كتابه (محمد وشيلان) عن أثر الإسلام في التاريخ الأوروبي، وعنده أن الإسلام كان هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوروبي حتى يمكن أن يقال إن العصر الوسيط، والنهضة الحديثة، هما ثمرتان من ثمرات ظهور الإسلام. ونقطة التحول في التاريخ الأوروبي هي التي سقطت عندها الإمبراطورية الرومانية، فيما هي القوة التي أدت إلى ذلك؟ .

أجمع أغلب المؤرخين على أن الشعوب الجرمانية، التي كانت تعيش على تخوم الإمبراطورية الشمالية. هي التي اجتاحت حدود الرومان، وقضت على دولتهم، ويرى هنري بيرين أن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن، وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة. فيما كان يخطر لها، بل وما كانت ترغب أبداً في أن تناوئ روما. وتقضي عليها.

أما المسلمين فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من اليونان في جميع أسباب الحياة، ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث مؤنthem، ومصدر تشريعهم، فلم يحجموا عن منازلة الرومان، ليقضوا على سلطتهم وسيادتهم .

ويرى بيرين: أن المسلمين كانوا أحق بسيادة العالم، وكانوا يرون أنفسهم جديرين بأن يقدموا للإنسانية دنيا جديدة ترشدهم إلى مدنية أخرى. وقد ظلت الدولة الرومانية قائمة، وظللت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجerman حدودها، وانتقل مركزها من روما إلى بيزنطة، فلم تكد تهب ريح الإسلام، وتسير كنائبه إلى أرض الرومان حتى تلاشى كل ما كان لها من الآثار. وقامت في العالم دولة جديدة، وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب .

(٤)

حضارة الإسلام

أنكر الغرب حضارة الإسلام وفضلها على حضارة أوروبا الحديثة، ولكن عشرات من أعلام الفكر الغربي قاوموا هذا الاتجاه وزيفوه. منذ كتاب جوستاف لوبيون كتابه حضارة العرب ١٨٨٤ حتى اليوم بكتابات أرنولد تويني في آخر مؤلفاته سنة ١٩٥٤ «الحضارة في فترة اختبار» حيث يقول: عندما كادت حضارة الغرب (يقصد الحضارة الرومانية) تنحدر إلى الهاوية في القرن السابع المسيحي، وظهرت الحضارة الإسلامية الفتية، حتى أصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخط الجديد، وأشد ما خشيته من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المادة ولا ينفع في دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية.

ويؤكد تويني أن الإسلام لم يدخل في معركة مع رسالة عيسى، ولكن مع الكنيسة المسيحية التي استولت على عقول الروم، واستسلمت إلى ما دعت إليه الوثنية الإغريقية من الشرك وعبادة الأصنام.

ويقول إن الإسلام قد استنكر هذا الشرك، واسترد عبادة الإله الواحد، الذي دعا إبراهيم إلى عبادته من قبل، وهكذا حمل الإسلام شعبة التوحيد بين المسيحيين المشركين من جهة، والهندوس المشركين من جهة أخرى. وعنه «أن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم، وأن في بقاء الإسلام أملاً للعالم كله».

ويقول إن الإسلام قد قضى على النزعة العنصرية، والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي، والمساواة المطلقة بين المسلمين.

ويدعو توبيني العالم إلى الأخذ بهذا المبدأ الإسلامي، كما يدعو الغرب إلى نبذ معاداة المسلمين. وبذلك تنجو المدنية الحالية مما يدب إليها اليوم من عناصر العداء.

٢ - ويصور لوثرب ستودارد في كتابه: «حاضر العالم الإسلامي» عظمة الحضارة الإسلامية فيقول: إن العرب «ممثل الإسلام» ما كانوا أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستسلام والتدمير. بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة عظيمة الأخلاق، تواقة إلى ارتشاف العلوم. تلك النعم التي انتهت إليها من الحضارات السالفة.

٣ - وأشار واصف بطرس غالى إلى اتهام الإسلام بأنه عدو المدنية فقال: زعموا أخيراً وتلك هي التهمة العظمى أن الإسلام عدو المدنية، وجوابنا على هذا الزعم يمكننا أن نسوقه للتدليل على بطلانه هو تاريخ قرون عديدة، وفي الواقع لا يستطيع أحد أن ينكر أنه كانت للعرب مدينة زاهرة.

٤ - ويقول رينان: ^(١) إن محمدأ العظيم أقى بديانة انبعثت عنها مدينة عالية لا يصح بجانبها اتهام أتباعها المتأخرین بالجمود، ففترات الازدهار، والانحطاط مررت على رأس جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعرجة، وما يدرينا بأن يعود العقل الإسلامي الولود، والكثير المواهب إلى إبداع مدينة أرقى من زميلتها المندثرة. بل وما يدرينا ما عساه أن يصبح بعد قليل مصير المدنية الأوروبية الحالية التي هي وليدة التمدن الإسلامي القديم.

(١) ص ٢٨٥ من كتابه تعليقاني على تاريخ الأديان (نقلأ عن طه المدور في كتابه *الديانات والحضارات*).

٥ - ويقر المستشرق لوسين بوفا^(١) أن الإسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق وفي الواقع أن التقدم الذي نشاهده في المالك الإسلامية منذ قرن دليل على أن الإسلام يسير مع المدنية جنباً إلى جنب. والإسلام سيظل موجوداً دائماً. والانحطاط الذي وقع فيه المسلمين له أسباب متعددة، ليس الذنب في أكثرها على المسلمين، بل على الحكم المطلق، وجهل الحكومات مما أدى انتشار الجهل، واضطرار دول الإسلام إلى خوض حروب كثيرة، وسوء خطة الغربيين في معاملة المسلمين.

٦ - ويصور كمال ولف شحوماكو (أستاذ - بـ جاوه) في كتابه بحوث عن الثقافة الإسلامية أثر الإسلام في الحضارة فيقول:

إن المنصفين من رجال التاريخ لا يسعهم أمام الحقائق الواضحة إلا أن يعترفوا بأن الإسلام هو العامل القوي في نفح روح البحث والتنقيب وحب العلم في البلاد المجاورة لأوروبا. وفي إسبانيا. وأن هذه البلاد تأثيراً عظيماً في كيان الثقافة الغربية السريعة النمو في القرون الوسطى، فحيثما كانت تعاليم النصارى بأوروبا توقد نيران الحروب، وتشن الغارات على كل بحث علمي، وكل تفكير حرّ، وكادت تفني البقية الباقيه من الثقافة اليونانية الرومانية. في أسر الأوهام الكنسية، في ذلك الوقت كانت المدنية الإسلامية في أوج رقيها المنقطع النظير، وكان لها نفوذ قوي، وتأثير لا يقاوم في عقول أهل العلم بأوروبا. الذين بدأوا يدركون حياة علمية أرقى مما أدركه غيرهم من الأوروبيين، فانبعثوا يقاومون كل ما يصدhem عن العلم من معتقدات. في تلك القرون الوسطى، حينما كانت أوروبا منسلكة في دياجير الظلمات نفذ إلى أوروبا شعاع من أشعة الحضارة المشرقة من بلاد الإسلام. إن تعاليم القرآن الكريم وأحاديث النبي نفخت في الأمة الإسلامية روحًا قوياً أوجدت تقدماً باهراً ورقياً عظيماً. هذه الروح

(١) مجلة الزهراء (محب الدين الخطيب) م - ١ ص ٤٩٦.

سرعان ما تسربت إلى أوروبا، ولا سيما عن طريق إسبانيا، فهياً عوامل نهضتها في أواخر القرون الوسطى، وسيت وجد مقاومة تجاه الاضطهادات الروحية الآتية من قبل الكنيسة، وهي المقاومة التي استمرت إلى القرن الثامن عشر.

إن «الإسلام» في تاريخ الغرب معنىًّا عظيماً، وأهمية كبيرة لم يستطع أحد بعد إدراك كنه ذلك وغايته. وقد حاول البعض إنكارها تعصباً. كما فعلوا بتعاليم الإسلام وما فيها من العقائد الطاهرة وتربية الأخلاق العالية. وما عليه أكثر الشعوب الإسلامية اليوم من التأخر والانحطاط ليس من الدين في شيء. وقد أصبح المسلمون ضعفاء مع أن لهم ديناً ساماً يبعث على التقدم والرقي. الروحاني، وسارت الأمم الغربية قوية راقية. مع أن دينهم يضطهد العقول، ويقهر حرية الأفكار.

والفضل للإسلام في إيجاد روح البحث والانتقاد بأرض أوروبا. حتى استطاعت إضعاف التعصب للمعتقدات الوهمية المانئة لتقدّم العلم ورقي الفكر.

موقف الإسلام من العلم

كان أبرز مظاهر التعامل على الإسلام، ما ذهب إليه قادة الحضارة الغربية من اتهام الإسلام بأنه لم يكن له فضل على العلم، وأن دوره كان قاصراً على نقل علوم اليونان والرومان، دون أن يضيف إليها شيئاً. وكان قول أغلبهم أن حضارة أوروبا الحديثة في عهد النهضة اتصلت بحضارة أوروبا القديمة (الحضارة الرومانية) وبينهما فترة ظلام أطلق عليها اسم العصور الوسطى مقدارها ألف سنة.

وكان هذا هو غاية الجهود في النظر إلى دور الإسلام من العلم والمدنية.

١ - وقد اعترف المنصفون في هذا المجال بفضل الإسلام. ومنهم هورتن الألماني^(١) الذي أعلن في صراحة أن المسلمين في القرون الوسطى، وإلى سنة ١٥٠٠ تقريباً أساتذة أوروبا.

وقال: لم ينشأ ظن الأوروبيين بأن الدين الإسلامي لا يتمشى مع المدنية إلا نتيجة مبهمة لهذا الدين، ولعدم تعمقهم فيه. بل لتعلقهم بالقصور التي لا يفهمون منها إلا ما يكتبون.

وفي «الإسلام» وحده نجد اتحاد الدين والعلم. فهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما. فنجد فيه الدين ماثلاً متمكناً في دائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف، ووجهة الفقيه متعانقتين فيها واحدة لا اثنان. ولقد كان إيمان «ابن رشد» الفيلسوف بالله عظيماً، وكان معتصماً بالقرآن حتى بكل كلمة في القرآن، ومع ذلك لم يمنع دينه. والقرآن الذي يعتصر به من مطابقة الفلسفة اليونانية. والأخذ من آثار أرسطو والبناء عليها.

ولا تجد في الإسلام سداً يمنع نفوذ الثقافة الغربية عنه. بل ترى أن له استعداداً غير محدود لقبول الثقافة. ولا شك أن استعداد الإسلام لقبول أي ثقافة غير إسلامية لا حدود له.

٢ - أما جوستاف لوبيون: فقد اعترف بفضل المسلمين في أكثر من موضع في مؤلفاته. وأهمها: «حضارة العرب» هل من الواجب أن نذكر أن العرب. والعرب وحدتهم هم الذين هدوانا إلى العالم اليوناني واللاتيني القديم، وأن الجامعات الأوروبية، ومنها جامعة باريز عاشت مدة ستمائة سنة من ترجمات لكتبهم وجرت على أساليبهم في البحث، وكانت المدنية الإسلامية من أدهش ما عرف التاريخ.

إن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب، وأن

(١) من كتاب استعداد الإسلام لقبول الثقافة الروحية - نقله المنار - ج - ٢ م ٣٠ .

جامعات أوروبا عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب. وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق، وأن الشعوب التي دانت الأرض لسلطانها قد عفت الأيام آثارهم، ولم يبق سوى ذكريات ألسنتهم وأديانهم، ولكن أهم عناصر مدينة العرب. وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية.

ولا شك أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

٣ - ويقول لويجي رينالدي العلامة الإيطالي: أن أمة هذه مدنيتها. وتلك آثارها ومخايرها جدير بنا أن نحفظ لها تلك اليد التي قدمتها إلينا وأسلفتها، وأنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي.

أما المؤرخ الفرنسي لاريل (La ralle) في كتابه مدنية الإسلام بإسبانيا. فقد اعترف بـ مزايا المسلمين في الصناعة والزراعة والبناء، وخصائص الهندسة العربية. وقرر أن المسلمين هم أول من استعمل المدافع - النارية في أوروبا، وأنهم فاقوا الغربيين في جميع الفنون^(١).

٥ - ويقر المستشرق سبنسر فاميري فضل المسلمين على العلم: لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ إسماً عربياً، ولا يستطيع عالم طبيعي أن يخلل ورقة من الشجر، أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درساً عربياً، ولا يقدر أي قاضٍ أن بيته اليوم في اختلاف دون أن يستدعي مبدأ أملته العرب، ولا يسع أي طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم، إلا أن يهمس بآراء طبيب عربي، ولا يستطيع أي رحالة أن يدلّف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون

(١) نقلًا عن خلاصة تاريخ الأندلس للأمير شكيب أرسلان، ص ٣٦٥.

أن يعمد إلى اللغة العربية. فإن انتشارها قد بلغ من الذيع والسرعة بحيث يؤكد البعض مبالغة بأن خمس شعوب الكرة الأرضية يتكلمون العربية، وأن يؤكد أن أي لغة أخرى لا يتكلم بها شعوب بلغ اختلاف أجناسها وتبانها مبلغ المتكلمين باللغة العربية.

إذا ذكرنا أن العرب طوال قرون ثمانية في الأندلس مستودع أعظم العلوم في ذلك الحين، فإنه بوسعنا أن نعتقد أن مادة غير محدودة من التاريخ والعلوم والاجتماع والحقوق قد وصلتنا من تلك الأرض المقدسة.

٦ - ويدافع جيبون في كتابه (سقوط المدينة الرومانية) عن موقف عمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص من تهمة التآمر على إحراق مكتبة الإسكندرية، وأثبت أن الذي أحرقها. إنما هم الرومان براكيتهم الخربية في حصارها لجيوش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر، وكان قد ألصق هذه التهمة المسلمين الرحالة عبد اللطيف البغدادي.

٧ - ويقول ديفونويت في كتابه (اعتذار إلى محمد والإسلام)، يجب أن نعترف بأن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التي أنشئت أوروبا منذ القرن العاشر مقتبسة من القرآن. بل إن أوروبا مدينة للإسلام بأكثر من ذلك. لأن الدين الذي أمر بالدستور والديمقراطية، وهي عن الاستبداد في قوله تعالى: «أمرهم شوري بينهم» و«شاورهم في الأمر» قد فتح أمام الإنسانية الحقوق المدنية.

وللتذكر أوروبا أنها مدينة للمسلمين بحفظ آداب الغرب القديمة حينما كانت هي في ظلام دامس فحفظوا آثار فلاسفة اليونان، وأثار علوم الطب والهندسة. وبالجملة فالمسلمون هم أساتذة أوروبا^(١).

٨ - وقد دافع «واصف بطرس غالى» في كتابه بالفرنسية (البطولة عند

(١) المدار: ص ١٣٥ م ١٣ ج ٩ : ٣٢ .

العرب) عن موقف الإسلام من العلم، ورد على الحملة التي شنها رينان في محاضرة له في باريس (٢٩ مارس ١٨٨٣) حل فيها حملة شعواء على المدنية الإسلامية، فزعم أنها ليست في الواقع إلا المدنية اليونانية. أخرجت من الظلام لا على يد العربي. وإنما على يدي السوريين والكلدانين والفرس. والاسبانيين بعد أن أصبحوا مسلمين بالغزو واللغة.

وقال إن الإسلام قد حث على العلم في عديد من أحاديث نبيه:

* طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

* أفضل الناس المؤمن العالم.

* من سلك طريقاً يطلب به علمًا. سلك الله به طريقاً إلى الجنة.

* يوزن مداد العلماء يوم القيمة بدماء الشهداء.

٩ - وقال تريتون في كتابه: الإسلام: معتقداته وطقوسه: إن الإسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لا شائبة فيه. فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

(٥)

الإسلام والاستعمار

كان هدف الاستعمار من الحملة على الإسلام، إفساح المجال للنفوذ الأجنبي، وتنبیت أركانه، فالإسلام عقبة ضخمة في سبيل مقاومة الاستعمار بقيمه، وتعاليمه، ومفاهيمه الداعية إلى التوحيد والجهاد والحرية والوحدة. ولقد كان الغربيون يظنون أن حملاتهم على الإسلام ستقضى عليه، وتحول أهله عنه إلى مفاهيم الغرب وقيمته، فيسقط على النحو الذي كانوا يتوقعونه.

ولكن الإسلام لم يسقط. وقد أكد قدرته على المقاومة غير واحد من كتاب الغرب المنصفين.

١ - يقول الدكتور «كريسينان سنوك هيرجرونجيه»^(١) وقد صاحب الإسلام ربع قرن في جاوه، والملابي. الإسلام لا يقاوم النصرانية، لأن الإسلام في المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث، ولكن لن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم من مئات الأجيال. وقد طبعوا بطبعه، وصاروا جزءاً منه، وهم يمثلونه في سائر بقاع الأرض.

فالمسلمون سيستمرون في دينهم مهما اخذوا من الثقافة والمدنية الغربية. وفي الجامعات الكبرى تجد الكثيرين من المسلمين، ولكن مجرى

(١) البلاغ الأسبوعي - ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩.

عقوهم لا يزال إسلامياً. كنت أعرف الطالب المسلم من غير المسلم في جامعي مجرد الاطلاع على مبحثه الذي كتبه، ففي المسلمين ميل قوي إلى التمسك بدين آبائهم، وتطبيقه على الحاجات الحديثة.

٢ - أما القس إسحاق طيلر رئيس الكنيسة الإنجليزية^(١). فيرى أنه لن يترك المسلمون دينهم. يقول: لا يدخل في العقل أن يتربى رسومات مرسلي النصارى الضيقة الذين يجتهدون في أن يردوهم عن دينهم. وتهمة أخرى. هي: أن الإسلام غير متقدم. الواقع أن الكنيسة أبطأ من الإسلام. والتقدم بين أتباعها أقل جداً مما هو بين المسلمين.

٣ - أما مستر (جب) وله الباع الواسع في دراسة أحوال المسلمين المعاصرة فيتساءل: هل من الممكن أن يحتفظ المسلمون بوحدهم الدقيقة أمام هجمات العلوم الأوروبية، وتجاه الفوارق السياسية. ثم يجب على ذلك بأن الإسلام ليس عدواً للمدنية الغربية، ويقول: «لا شك أن البلاد العربية المجاورة لمصر والجزيرة العربية وفلسطين. وسوريا والعراق ستلعب دوراً يكون له الشأن الأول في نصر الإسلام، فلهذه البلاد ثقافة راقية تتقدم يوماً بعد يوم بفضل اللغة العربية الفصحى، ويقول: ولن يجري في البلاد العربية ما جرى في بلاد الترك. فالعرب متمسكون بلغتهم وأدبهم، ويتغنون بمجدهم، ولم تقم في بلادهم أي حركة وطنية، إلا وكانت الروح الإسلامية أساسها وستبقى الروح الإسلامية تسود بلادهم وتتقدم».

٤ - ويرى الأستاذ تريبيون (أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن) في كتابه: (الإسلام معتقداته وطقوسه) أن الدين عند المسلمين حقيقة واقعة،

(١) كتبها في صحيفة سنت جنس غازيت الإنجلizية ١٨ إبريل ١٩٨٨ بعد زيارة مصر والعالم الإسلامي ، ونقلتها مجلة المجالات العربية (١٩٠٢ أكتوبر).

وجزء متمم لحياتهم اليومية، وهو ليس رداء يرتديه الأخبار والعلماء، ومن ثم فهو يجعل المسلمين إذا وقعت الواقعة، وأدhem ليل الخطوب ثابتي الإيمان لا تزعزعهم العواصف والأنواء.

٥ - ويعرض الأستاذ موته (كلية جنيف) حاضر الإسلام ومستقبله في حاضراته^(١). فيقول: إن الإسلام ينتشر في إفريقيا بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم. لأن كل مسلم في البلاد الوثنية داعية دين بحد ذاته. ويقول: إن الإسلام ينتشر بنفسه بواسطة القوافل التي ترحل في البلاد الوثنية أو الفيشية، ودعاة الإسلام لما عرفوا به من الغيرة يعمدون إلى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب، التي يشون دعوتهم بين أهلها.

وهكذا نرى الدعاة المسلمين. قد أنشأوا قرى يسكنها المهادون إلى دينهم من المحدثين في الإسلام، ولطالما انتفعوا من القحط الذي كان يلقى بجرانه على أصقاعهم.

والمدرسة هي إحدى العوامل الفعالة في نشر الدين أيضاً. فالمسلمون على الجملة عندما ينزلون ويتوطنون في بقعة جديدة يصررون أول عنايتهم إلى إنشاء مسجد، و يجعلون بجانبه مدرسة، وينظرون إلى المسلم في بلاد زنوج الوثنين في إفريقيا. بأنه أرقى من غيره، وترى المرأة عند قبائل الجاجدة النازلة بين النيل الأزرق وأعلى البلاد الممتدة من شمال سطح بلاد الحبشة أرقى بعقلها من الرجل. لذلك يختار دعاة الإسلام تعليمهن، والاعتماد عليهم في بث الدعوة على نحو ما فعل السنوسية بالزنجيات. وهذه الطريقة في الدعوة قد اشتهرت هناك، والإسلام من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية نراه في إفريقيا قوة أسمى من غيره. والإسلام باقٍ

(١) مجلة المقتبس م ٦ ص ٣٧١.

في مكانه إذا كتبت له الغلبة في الشعوب الإفريقية، وبه خاصية تلائم الشعوب الإفريقية، ولا سيما السود منهم. وقد تبع الزنوج الإسلام لحفظ حياتهم لما في الإسلام من الإدارة والتنظيم.

٦- ويرى «شانليه» أستاذ العلوم الاجتماعية في إحدى جامعات فرنسا. «أن المسلمين يتبعون على الرغم من اختلاف لغاتهم وأجناسهم في العبادات الدينية، والنمايس الاجتماعية، وسائر المظاهر الأساسية للمدنية الإسلامية.. يلتقطون في صور واحدة. الصلاة والاتجاه إلى الكعبة، ومجتمعهم يعطي صورة هيئة اجتماعية تنزل بمنزلة الأسرة الواحدة. الحفظة على تقاليدها الموروثة.

واللسان العربي الذي نزل به القرآن لهم رابطة وعروة وثني، وتجري فرقاء القرآن به في بلاد الصين، وجزائر الفلبين ومراكش، والكتابة به بين سائر المسلمين، وتجد الكلمات العربية شائعة في لغات الأوردو الهندية، ولغة السواحلية، وغيرها من لغات ببر إفريقيا فضلاً عن الفارسية.

على أن الإسلام بالرغم من وحدة تعاليمه، وتشابه عقائده القائمة على التوحيد لا ينفي التغيير والتبدل في المسائل الفرعية، والشؤون الثانوية مجارة حكم الوسط ومقتضيات الزمن، وأساس الدين الإسلامي : التوحيد وعماده وحدة التعاليم.

٧- ويصور (جورج رو) موقف الإسلام من التبشير فيقول: إن الوصف المميز للإسلام أنه دين عالمي معمول به أكثر من أي دين غيره، فمن بين سكان الكورة الأرضية نجد المسلمين أكثر الأمم اعتداداً بتعاليم دينهم، فلا تصادف مسلماً يرتد عن دينه. وقد نجح بعض المرسلين في حمل المسلمين على حبهم، ولكنهم خابوا في حمل مسلم واحد على تغيير دينه.

وكتب الكردينال (لافيجري) أن تنصير المسلمين مشروع لن يؤدي إلا إلى الخيبة. وأن الإسلام من بين جميع الأديان العالمية يجارى المسيحية في تقدمها، فلا يغيب عنها الكسب العظيم الذي تناه الكاثوليكية باستمرار في الهند والصين بفضل المسلمين الدينين. ومع ذلك فإن الإسلام يكسب هناك بقدر ما يكسب ديننا. ولكن القاعدة تنعكس في إفريقيا. فالإسلام ينفرد بالكسب وحده هنالك.

فعدد المسلمين يزداد في جزيرة مدغشقر يوماً بعد يوم، وأعظم نجاح يصييه الإسلام هو في إفريقيا السوداء. فالسودان الذي كان موطنًا للوثنية، أصبح اليوم معقلًا من معاقل ديانة محمد، وببلاد السنغال وغينيا حتى الكونغو يدخل أهلها في الإسلام أفواجاً أفواجاً.

٨ - وهذا رأي «جوستاف لوبيون» الذي أعلن منذ أكثر من ثمانين عاماً بأن الإسلام يتشر كل يوم في إفريقيا من دون أن تبذل همة في سبيل نشره، ويتحقق المبشرون من الأوروبيين في سبيل دعوتهم إلى دينهم اخفاقاً شنيعاً.

٩ - وفي تقرير لسيو لويس ماسنيون من كتابه «الإسلام والغرب»^(١): أن الإسلام محتفظ بقوته في أقصى الشرق، ويرجو أن يزداد قوه في مستقبل الأيام. أما في الغرب (يقصد المغرب). فالإسلام واقف موقف الدفاع الطبيعي، وتعاون مع بعضه تعاوناً حقيقياً في سبيل المطالبة بالاستقلال.

ومن الإرهاصات أن الجنود المسلمين المجندين في الجيش الفرنسي وغيره من جيوش الدول الأوروبية في إفريقيا الغربية الفرنسية والنيجر - والهند والقواز محافظون على دينهم. وأن الأتراك المؤمنين قد أخذوا ينفرون نفوراً متزايداً من الكتابة اللاتينية التي أوجبها عليهم كمال أتاتورك. كما أن إيران أحجمت عن استعمال الحروف اللاتينية في كتابتها. وقد بلغ

(١) مجلة لسان الدين (المغرب) مارس ١٩٤٨.

التضامن الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، هذه المرتبة من النشاط في أقصى المشرق وأوسطه. والحالة في أوروبا على خلاف هذا. فإن أوروبا لم توفق إلى الآن إلى المطابقة بين أساليبها الثقافية والدينية العصرية، وكفى به انحطاطاً.

وهذا ما جعلني أعطي أهمية كبرى لفلسفة السيد محمد إقبال: الذي زرت ضريحه بمسجد لاهور في الهند.

إن المسلمين الذين توجد منهم جماعة كبيرة في اسطنبول وطنجة، وببور سعيد وعدن وكراتشي وسنغافورة وانطاكيه واقعون تحت مراقبة وهم في مأمن من هجوم الأجانب عليهم. إلا من الناحية الاقتصادية. غير أن الفوڈ الأجنبي في العواصم العلمية يوجب على الإسلام التفكير طويلاً في أمره. فإن كلا من مدتي تونس والقدس ليس فيما أكثريه إسلامية، وأصبحت مدينة القاهرة شبه عاصمة للعرب وللمسلمين.

١٠ - ويقول طيلر^(١) عن التبشير في إفريقيا. إن القبيلة الإفريقية إذا اعتنقت الإسلام لا ترجع أبداً إلى الوثنية، ولا تعتنق الديانة المسيحية، ولعمري أن الإسلام قد خدم المدينة خدمة لم تقدر عليها النصرانية.

١١ - وقد أعلن^(٢) (غاندي) بأن الأوروبيين يخشون الإسلام، لأن الذين يعتنقونه يحتمل أن يطالبوا البيض بالمساواة، ومن حق هؤلاء أن يخافوا لو كانت الأخوة خطيئة. فإذا كان البيض يخالفون من المساواة بالعناصر الأخرى. فإن المخاوف من الإسلام تقوم على أساس صحيح أن رأيت الزروسي الذي يعتقد المسيحية لا يصعد بطبيعة الحال إلى مستوى المسيحيين على حين أنه إذا اعتنق الإسلام يشرب من نفس قذح المسلمين، ويأكل من قصعتهم.

(١) جريدة التيمس - ٧ أكتوبر ١٨٨٧.

(٢) المنار، ج ٢ - م ٣٢ عن مجلة ذي لايت (lahor).

(٦)

مستقبل الإسلام

عنى كثير من الباحثين بالنظر إلى مستقبل الإسلام، هل يبقى، هل يسقط، هل يستطيع أن يواجه التطور والمدينة، وذهبوا في ذلك مذهب المتشائمين، حين قال بعضهم أن الإسلام سيسقط عندما يواجه المدينة الحديثة، ولكن «سنوك هيروجرونجيه^(١)» الهولندي الذي عاش في الملايو وأندونيسيا أكثر من ربع قرن يدرس الإسلام، فلسفته وشريعته، وتاريخه، وعلاقته بالمؤسسات السياسية والاجتماعية، وقضى عاماً كاملاً في المدينة المنورة، متخفياً لا يرى هذا الرأي.

* * *

«لا أعتقد أبداً» أن الدين الإسلامي سيسقط يوماً ما أمام النصرانية. لأن المسلم محاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الأجنبي، فهو يعرف المسيحية التي ليست عنده شيئاً جديداً غير مألف. فقد عرف أصلها وطريقة نشوئها، وهو يعتبر ديناً تطور بالتدرج، ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الإسلام، لأنه توجد بواعث خارجية تمنعه، فالإسلام قوي ولم يضعف. وزد على ذلك أن الإسلام يربح أكثر من النصرانية، فالذي يصير مسلماً لا يطلب منه شيء كثير. إذ لا يوجد تقديس ولا طقس ديني، ولا تعليم طويل، كل ما يطلب منه أن يعترف بالله، أنه كل القوة.

(١) البلاغ الأسبوعي - ٢٠ نوفمبر ١٩٣٩ وم ١٧ ج ٣ (المنار) ص ٢١٢.

ومن ثم يتدرج إلى تعلم الفرائض. وعندما يصير مسلماً يتغير مركزه الاجتماعي . ولكن إذا تنصر فإنه يبقى دون غيره . وأن القول بأن الإسلام يحتاج إلى النصرانية للترقي هو أسوأ قول أو رأي ، فال المسلمين قد احتاطوا أعظم احتياط لهذا الأمر (التبشير) حيث قضيت سبع عشرة - سنة ملتصقاً بهم تمام الالتصاق بالمؤسسات الإسلامية، ولا يستطيع المبشر المسيحي أن يربح تابعاً واحداً لدينه حيث الإسلام معتقد قديم ثابت وليس ديناً حديثاً، وسيجدون صعوبة كبيرة في تنصير المسلمين . وبالجملة فإن نشوء الإسلام في القرن الحجري لا يكون شيئاً باعثاً على الدهشة . بل سيكون مطابقاً للحركة العمومية التي تقرب بين الأمم والأديان دون زوال الاحترام للتقاليد الموروثة عن السلف .

٢ - أما «جورج برنارد شو» فقد واجه هذه المسألة على نحو آخر في بحث له بعنوان (الإسلام بعد مائة عام). يقول: إن المستقبل العاجل عندما يريد الرجال المفكرون أن يلنجوا إلى دين يحمي الفضيلة، ويقي المجتمع، ويكون سبباً للحياة السعيدة في البشر، فسيجدون الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن لهم التقدم والنجاح . وأول البراهين على ذلك . أن الإسلام لا يمنع أي تقدم سواء كان في النهضة الفلسفية أو الكيماوية . فالإسلام هو الدين الذي نجد فيه حسناً للأديان كلها، ولا نجد في الأديان حسناً .

والإسلام دين حرية لا دين استعباد . وقد قرر أخوه الإسلام منذ ألفين وثلاثمائة وخمسين سنة، وهو المبدأ الذي لم يعرف عند الروم والسابقين، ولا عند الأوروبيين والأمريكيين الحاضرين .

وإذا سألت العربي أو الهندي أو الفارسي أو الأفغاني، من أنت: يجيبك «أنا مسلم». أما الغربي إذا سأله من أنت قال: إنجليزي أو طلياني أو فرنساوي .

فالإسلام يوحد بين أهل العقيدة المشتركة دون أن يجعل أي فرق بينهم بسبب أوطانهم وألوانهم وجنسياتهم. لقد نصب الإسلام شاباً أسود البشرة أميراً على جيوش المسلمين، وفيها كبراؤهم، فالحكومة الديقراطية لم تعرف إلا في الإسلام، وتقسيم الميراث الذي فيه أكبر فائدة لل المجتمع فرضه الإسلام منذ ١٣٥٠ عاماً. ولكن الغرب بقي بجهله إلى هذه الساعة. والإسلام حرم الربا، وجعل من المستحيل انحصر الثروة عند أقلية من الناس.

هذه الحقائق تخبرنا على الاعتقاد بأن الدنيا بأكملها. وإنجلترا على الأخص ستقبل الإسلام. وأن هي لم تقبله باسمه الصريح فستقبله باسم مستعار.

٣ - وقد تحدث رينيه ميليه عن انتشار الإسلام في محاضرة ألقاها في مؤتمر إفريقيا الشمالية المنعقد في باريس ١٩٠٨ فقال:

إني لا أريد أن أذكر انتشار الإسلام، لأن الدين الوحديد الذي يتشر ويزداد أهله بسرعة في آسيا وإفريقيا في حين أن الأديان الأخرى بقيت واقفة عند حد محدود لا تتجاوزه البتة. وقد أصبحت المسألة لا زناع فيها، ولكن ماذا تقولون: إذا ثبت لكم أن الإسلام شرع يطبق العلوم الحديثة، ويستفيد منها.

الإسلام دين اعتاض عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحال والعقد في كل الأمور، ولم يقرر شيئاً من وساطة القسيسين بين الإله والشعب، ولم يُسنّ نظام الصوامع، وقضى على عادة العزوبة. التي كانت متبعه ومستفيضة، وعلى عادة النسك والخروج من الدنيا، فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً. ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حاله الطبيعية، ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية. بل قال بكل وضوح «لا إله إلا الله». وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذي

قسم الدول الأوروبية، والذي جعل أهل مصر وأسيا الصغرى في حالة استياء من سلط الدولة البيزنطية، وكيف لا تمثل هذه الشعوب الساخطة إلى أهل الإسلام، وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفتهم في الدين.

إن الفتوحات الإسلامية كانت على البغال. إلا أن العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد، ثم إنهم فوق ذلك كانوا مشبعين بروح التسامح. وهذا سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا، وأفريقيا ونصف إسبانيا.

أقى المسلمين بعقائد سهلة ملائمة للفطرة، وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار، ففرقوا العلوم والفنون والأداب باجهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم.

وقد جاء المسلمين في نفس الوقت بمبدأً جديداً في البحث يتفرع عن الدين نفسه، وهو مبدأ التأمل والبحث. وكان اهتمامهم بكتاب أرسطو أكثر منه تخيلات أفلاطون، وبرعوا في علوم الطبيعة، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء، ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء المجيدون.

وقد أعطى الإسلام أشهر ثمرة لما سرت إليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب^(١).

٤ - ويقول جورج سارتون في كتابه: الشرق الأوسط في مؤلفات الأميركيين «إن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية وإلى زعامة العالم: السياسية والعلمية، كما كانوا من قبل. إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام والعلوم التي حرث الإسلام على الأخذ بها. وأن تلك الهزائم السياسية التي مني بها الإسلام لم تزعزع ثقة

(١) ص ٨١٨ م ١١ : النار.

المسلمين بأنفسهم. بل هي على العكس زادت من إيمانهم.
وأن شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم في مراحلتين:
طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة على الأقل. قبل أيام
اليونان. ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريباً. وليس ثم ما يمنع
ذلك الشعوب أن تقود العالم ثانية في المستقبل.

٥ - ويقول اللورد هدلي أنه لو ندبـت لجنة من الإنجليز الأكفاء
لفحص الدين الصالح. لأن يتدبرـن به العالم كله لأجمعوا على اختيار الإسلام.

(٧)

القرآن

واجه «القرآن» حملة شديدة من الفكر المسيحي منذ مطلع النهضة الأوروبية. فقد أقبل القسّيس والعلماء على ترجمته ترجمة معرفة ومجازأة. ونشر الترجمات مع الرد عليها. وعن علماء الاستشراق بتأليف دراسات ضافية في تفسيره وتاريخه، وترجمة ما كتب من التفاسير كالبيضاوي. والزمخشري والسيوطى، كما اهتموا بعلم القراءات.

وفي تقرير نشر خلال الحرب العالمية الماضية^(١) أن ترجمات القرآن بلغت ٩٥ ترجمة إلى مختلف لغات العالم: الإنجليزية (١٠) ترجمات بدأت (١٦٤٩) الفرنسية (٧) ترجمات بدأت سنة (١٦٤٧) الألمانية (١٣) ترجمة بدأت (١٦١٦). اليونانية، اللاتينية، البولونية، الإيطالية، البرتغالية، الإسبانية، الصربية، الهولندية، الألبانية، العبرية، الهندوكية، الدانماركية،الأرمنية، البلغارية، البنغالية، الرومانية، المجرية، اليابانية، البوهيمية، الصينية، السويدية، الأفغانية، البنجابية، السواحلية، السنديّة، الجاوية، الموجданية.

والرأي^(٢) بأن أول ترجمة للقرآن قام بها روبرت الراتيني بمساعدة

(١) الملال، م ٤٨ ص ٣٤٣.

(٢) المقططف (يونيو ١٩١٥) صمويل زوغر.

هرمان الدعاطي. وقعت ١١٤٣. وبقيت محفوظة نيفاً وأربعين سنة حتى طبعها تيودور بيلياندر في بازل عام ١٥٤٣.

المعروف أن الغربيين قد أولوهם اهتمامهم لترجمة القرآن من أجل مهاجته وتغريبه، ومحاولة خلق الاتهامات العنيفة له، وكانت أولى وأبرز اتهاماتهم أن القرآن الكريم من عند محمد، وأنه متناقض، وأن الخلفاء زادوا في المصحف، ونقضوا بالحذف والتبديل.

وكان الرأي دائماً عند غير المنصفين أن القرآن الكريم هو العقبة الكبيرة في سبيل ارتقاء أمم الإسلام، والمسؤول عن تقهقرها على حد تعبير لورد كروم في كتابه: مصر الحديثة الذي نشره عام ١٩٠٨.

* * *

٢ - ومن عجب أن أرنست رينان قد أنصف القرآن الكريم في كتابه (تعليقاني^(١) على تاريخ الأديان) فقال: إن القرآن الكريم هو أساس الإسلام. وقد احتفظ بكينونته القديمة دون أن يتعريه أقل تبديل أو تحرير. وعندما تستمع إلى آياته وما فيها من فصاحة وسحر تأخذك رجفة الوله والوجد، وبعد أن تتوجل في دراسة روح التشريع المنطوية عليه بعض تلك الآيات الإلهية لا يسعك إلا أن تعظم هذا الكتاب العلوي وتقده.

٣ - أما إدوارد جيبون فيقول: إن دين محمد خالٍ من الشكوك والظنون. والقرآن الكريم أكبر دليل على وحدانية الله، بعد أن نهى عن عبادة الأصنام والكواكب. وهذا الدين أكبر وأجل من أن تدرك أسراره العویصة عقولنا الحالية.

ويقول: إن القرآن الكريم مسلم به من حدود الأقيانوس الإطلانطيكي إلى نهر الكانج بأنه الدستور الأساسي، ليس لأصول الدين

(١) نقلًا عن كتاب البيانات والحضارات لطه مدور بيروت ١٩٥٦.

فقط. بل للأحكام الجنائية والمدنية والشرعية التي عليها مدار حياة نظام النوع الإنساني وترتيب شؤونه.

٤ - وعندما ترجم (ادوار مونته) القرآن، وهو مدرس الألسن الشرقية بجامعة جنيف عام ١٩٢٩ م كان عليه أن يصور مفهوم القرآن في نظره. وعنه أن القرآن^(١) في الحقيقة ذو قيمة خارقة للعادة، فهو بين الكتب العربية الدينية أعظم شأنًا، وهو يشتمل على الحياة الروحية لقسم من النوع الإنساني يقدر بمائتين وخمسين مليوناً على الأقل^(٢) والعقيدة القرآنية ذات علاقة وثيقة بالعقيدة اليهودية، والعقيدة المسيحية، والأثار النصرانية المتعلقة بالمسيح هي موضوع صفحات عديدة من القرآن، على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا الالتحاد في أصل الإسلام والنصرانية أن الإسلام القرآني فاقد الاستقلال، وأنه ليس ذا صفة خاصة أصلية. فالامر بالعكس. والإسلام دين لا يمكن خلطه مع دين آخر من الأديان السامية، فهو دين سامي تحت صورة عربية خاصة، تتجلى فيه روح اللغة العربية.

والقارئ يجد في القرآن الكريم صفحات غاية في الإبداع، سواء من جهة الفكر، أو من جهة القالب الديني الذي وضع فيه الفكر، وكذلك نجد فيه لآلئ فريدة في علم الروح معروضة في آيات هي أعلى ما يمكن من الأسلوب الشعري، وهو فيه أسلوب قائم بذاته. وفي القرآن الكريم منازع دينية ذات سعة مدهشة. لا سيما بالنسبة إلى العصر الذي عاش فيه ذلك المصلح العربي.

وما جعل للقرآن هذه الأهمية أنه الكتاب الديني للأمم الإسلامية التي ت مثل في شرقى أوروبا. وفي العالم الآسيوي، وفي ماليزيا وفي إفريقيا دوراً ليس مهماً وحسب. بل دوراً ذا صلة شديدة بالأمم الغربية المسيحية.

(١) ترجمة الأمير شكيب أرسلان بتصرف (المتارم ٣٠ ج ٥).

(٢) كان هذا الرقم مبالغًا في تصغيره. والمسلمون الآن على الأقل ٤٥٠ مليوناً.

وأخيراً نقول: أن الذي جعل للقرآن هذه الأهمية الخاصة هو المستقبل المدخر للشعوب الإسلامية. إذ لا ينكر أن مستقبلاً فخماً يتضرر هذه الشعوب.

٥ - أما العلامة «فيني» الذي كتب مقدمة هذه الترجمة. فإن مفاهيمه ربما كانت أكثر عمقاً ووضوحاً. حيث يقول: إن القرآن ليس بكتاب ديني فقط. بل كتاب علم وأداب. ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية، حتى أنه يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية، والأحكام السياسية التي إن لم توجد في القرآن توجد في السنة. والتي لا تكون واضحة بالقرآن ولا بالسنة. توجد في الفقه الواسع الذي هو علم الحقوق^(١).

٦ - أما «خالد شلدرليك» فإنه يرى أن القرآن ليس كتاب دين فحسب. بل هو أعظم هادئ إلى سعادة الفرد والمجتمع. وقد وفر ذلك في نفسي منذ اطلعت عليه بالرغم من أن قرأته مشوهاً ومحرفاً من ترجماته المعلومة، وليس كالإسلام دين أخلص العبادة لله، وقرر عقيدة التوحيد الخالصة.

ولا شك أن معرفة كثير من المسيحيين بأن الإنجيل الذي في أيديهم أحدث عهداً من المسيح، ووقفهم على الواقع بين كتبهم الدينية له تأثير عميق في إعراضهم عن بعض ما فيه من نصوص، بينما المسلمون لا يرتابون قط بأن القرآن الذي بين أيديهم هو: الكتاب المنزل على نبيهم ﷺ لا ريب فيه: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٧ - هل القرآن حائل دون النهضة؟ .

يجيب السير ريتشارد وود في تقريره^(٢) السري بقوله: إن القرآن

(١) المنار م ٣ ج ٢ .

(٢) سبقت الإشارة أكتوبر طبع ١٨٧٨ ، ونشر محب الدين الخطيب ١٩١٢

الكريم يتضمن أحكام الدين. وفي نفس الوقت يشمل الأمور المدنية، والأصول السياسية.

وأن كثيراً من مؤلفي الإفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسع لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص «القرآن» التي يقولون أنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون. وهذا وهم باطل نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن، ويكتفي برهاناً على بطلانه تاريخ صدر الإسلام، وعنایة علماء العرب بالمعارف والفنون، ودوروسهم كتب الحكماء الأقدمين. مثل أرسطو وأقليدس، وأبقراط وبطليموس وغيرهم.

٨ - أما «ولفجانج لانجرميش» وهو مستشرق ألماني^(١). فإنه يرى أن القرآن الكريم أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو أيسرها حفظاً، وأشدتها أثراً في الحياة اليومية لمن يؤمن به، فليس طويلاً كالعهد القديم. وهو مكتوب بأسلوب رفيع. أقرب إلى الشعر منه إلى النثر. ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه، وتترداد إيماناً وسميراً، وأوزانه ومقاطعه كثيراً ما قورنت بدقائق الطبول، وأصداء الطبيعة.

والمسحي والمسيحي الذي يقرأ القرآن لا يجد نفسه غريباً عما جاء في آياته المنزلة. ولا يعترف القرآن بأن عيسى هو ابن الله، أو أنه قتل مصلوباً، ولو اعترف المسلمون بأن عيسى هو ابن الله لتناقض ذلك مع وحدانية الله. هذه الوحدانية التي هي أحد أركان الإسلام.

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملي فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس. وهو في ذلك يقول: ﴿إِذَا تدأيتم بِدِينِ إِلَيْهِ أَجُلٌ مُسَمّى فَاكْتُبُوهُ﴾ . وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد، وبين التعاليم العملية، جعل القرآن كتاباً فريداً، ووحدة متماسكة.

(١) مقال (اخترت الدفاع عن الإسلام) مجلة المختار مجلد ١٩٥٦ ص - ٥٧.

٩ - ويصف ألبرت هويده الصحفي السويسري الذي أسلم سنة ١٩٦٠ - ولقب بأحمد عبد الله رمضان تجربته مع القرآن فيقول: حينها تعمقت في قراءة القرآن دهشت لعصريّة القرآن في علاقته بالعلم، ففي الإسلام من المستحيل وجود مثل حادث غاليلو والتعاليم الإسلامية. لم تعارض البحوث العلمية الحديثة، ولم تقف في وجه مقتضيات العالم الحديث.

١٠ - أما الدكتور شibli شمبل مترجم نظرية دارون إلى اللغة العربية. فقد تصدى لموقف القرآن من العمران^(١) ردًا على اللورد كرومرو في مهاجمته للقرآن فقال: لقد أخطأ مسْتَر كرومرو، والخطأ تسرُّب إلى حكمه حين قال: إن شريعة القرآن لا تتوافق العمران في كل عصر. والقضايا التي استند إليها، واعتبرها من جوهر الدين، كان يمكنه أن يعتبرها من الدين الإسلامي كسوها من سائر الأديان (يقصد تعدد الزوجات وغيره من الاتهامات).

وهل يعقل أن القرآن الطامح إلى أبعد المرامي الاجتماعية يكون قد أراد بمثل هذه القضايا أن يجعلها غلاً في عنق العمران.

إن مسألة تعدد الزوجات بالاعتراض الوجيه على القرآن، لأنه نهى عنها نهياً صريحاً يفرض العدل فيها. لذلك لا تعد حجة على القرآن.

ونحن نرى أن الإسلام نفسه لا يكون عقبة حقيقة في سبيل العمران. والمنصف لا يسعده أن يلقي على القرآن تبعة تهffer الأمم الإسلامية، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تجاري الأمم المتقدمة في ارتقاها. فالقرآن لا يحول دونها. وإن في القرآن أصولاً اجتماعية عامة، وفيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان، حتى أمر

(١) المؤيد - ٢٢ مارس ١٩٨٠.

النساء. وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة، ولترقية الروح والجسد بعد أن أوصى به غيره من الأديان. تلك الأبواب فقصراً وظيفة البشرية على الزهد والتخلّي عن هذا العالم الفاني.

* * *

وبعد فقد استطاعت ترجمات القرآن المتواترة المتعددة - على ما بها من تحريف، وعلى ما صحبتها من حملة ذات هوى - أن تصل إلى بعض القلوب والعقول المشرقة، فتحصل على مفاهيم صحيحة للقرآن، على النحو الذي كشفت عنه هذه النصوص، التي تدل في مجموعها، مع الاعتراف بمكانة أصحابها في عالم الفكر والبحث - على أن القرآن منزل من عند الله، وأنه فتح لل المسلمين وللعالم مجال النهضة، ولم يكن حائلاً في وقت ما دون التطور والحضارة. وأنه استطاع أن يحتفظ بنصوصه كاملة، لم يدخل عليها تحريف. وقد كان حتى بالنسبة لمن تراه مترجمًا آسراً ببلاغته ومعانيه معاً. واضحًا في دلالته ونصوصه المحددة. وقد اعترف أغلب هؤلاء الباحثين بأن القرآن هو الدستور الأساسي ليس للدين فقط. ولكن للحضارة والمجتمع.

ولا شك أن كثيرين من ترجوهم تأثروا به كما حدث ذلك لإدوارد مونته الذي قرأ التوراة والإنجيل، وعرف اليهودية والمسيحية، واستطاع أن يعلن في صراحة بأن الإسلام القرآني له طابعه الاستقلالي، وذاته الخاصة، وأنه لا يمكن خلطه مع دين آخر.

وقد أبدى أغلب الباحثين اهتمامهم بإيداع القرآن من جانبي الفكر وال قالب الذي وضع فيه الفكر، وكشف خالد شلدرريك عن الفارق بين ارتياح غير المسلمين في كتبهم، واطمئنان المسلمين إلى أن كتابهم لا يأتيه الباطل. وذابت في خلال هذه الدراسات اتهامات أمثال كرومر من حيلولة

الإسلام دون الرقي. فقد أكد الباحثون أن نصوص القرآن لا تعارض النهضة. بل على العكس من ذلك فهي تدفعها وتقيها.

وكشف الباحثون الطابع العلمي الذي يتسم به القرآن في معاملات الناس، ووضع الحلول لمشاكل المجتمع، وعصيرية القرآن في علاقته بالعلم، حيث لم يكن ممكناً أن يقتل جاليلو لو كان مسلماً.

وكيف كانت صورة الإسلام في القرآن مرنة، وهو صالح لكل زمان ومكان، وكيف يفتح القرآن أبواب العمل للدين والدنيا في وقت واحد. ولترقية الروح والجسد معاً. وإنه تحرر من كثير مما اضطربت به الأديان الأخرى من غموض النصوص أو الشكوك أو الزهد، والتخلّي عن الحياة.

ترجمة القرآن

ترجم القرآن إلى مختلف لغات العالم. بلغ عدد الترجمات ٩٥ ترجمة.

١ - عشر ترجمات إلى اللغة الإنجليزية بدأت ١٦٤٩ (اشلندروس)، وتتوالت بترجمة جورج سيسيل ١٧٤٣ طبع ٢٦ مرة. آخرها ١٩١٣. وترجمتها رودول ١٨٦١ وبالمرا باكسفورد ١٨٨٠. وترجمه عنه الحكيم خان ١٩٠٥ ومرزه أبو الفضل ١٩١٣، ومحمد علي حمي لاهور ١٩١٦، وغلام ساروار (اكسفورد ١٩٣٠) وبكتال ١٩٣٠ ويوسف علي لاهور ١٩٣٥.

٢ - سبع ترجمات إلى اللغة الفرنسية بدأت ١٦٤٧ (دي رويد) نقلها عنه دوس إلى الإنجليزية ١٦٤٩، والمولندية (غلاسياكى) ١٦٥٨ وإلى الألمانية (لانكي) ١٦٨٨، وإلى الروسية ديتريوس كانتير ١٧١٦، وإلى الروسية فرنكين ١٧٩٠.

ثم ترجمة سفري ١٨٧٣ وتشميرسكي ١٨٤٥ وفاطمة زائدة ١٨٦١ وإدوارد مونيه ١٩٢٣ وماردوس ١٩٢٦ ولاميش ١٩٣١.

- ٣ - ثلاثة عشر ترجمة إلى الألمانية أشويكر ١٦٦٦ . ووافق ناشر ومكريلين وبوليسين وهننج وغريكوك وروكرت وغرم وغلد شميد ولنكي وأرنلد وكلا مروت .
- ٤ - إلى اليونانية (نبناكي) ١٨٨٠ .
- ٥ - إلى اللاتينية (بلياندر) ١٥٤٣ وماردي ١٦٩٨ .
- ٦ - اللغة البولونية ١٨٥٨ (بونسيكفو) .
- ٧ - اللغة الإيطالية ١٥٤٧ في ثمان ترجمات: اريفاين وكلزة وبنزيري وفيولانتي وبرانسي وفراقاسي ، ومزوجر ومونلي .
- ٨ - اللغة البرتغالية ١٨٨٢ .
- ٩ - اللغة الإسبانية ١٨٤٤ دي رولس ، وأورتز ومرجيون دو وكاتو .
- ١٠ - اللغة العبرية ١٨٩٥ (ميكتوبيرامتش) .
- ١١ - اللغة الهولندية خمس ترجمات بدأت ١٦٤١ (شويكر) وغلاسماتركيرر وتولنس .
- ١٢ - اللغة الألبانية: لسلم اسمه - أ. م. ق .
- ١٣ - اللغة العبرية: ١٨٥٧ روكندوف درفلين ورفلين .
- ١٤ - اللغة الهندوكية: ١٩١٨ : ترجمة أحمد شاه .
- ١٥ - اللغة الدانماركية: ١٩١٩ : بدرسن وبول .
- ١٦ - اللغةالأرمنية: ١٩٠٩ أمير خاينائز ولوتنز وكوريتيان .
- ١٧ - اللغة البلغارية: توموف وسكولف ١٩٣٣ .
- ١٨ - اللغة البنغالية: ١٣٤٩ هـ (رفيع الدين) وابن محمد عبد الحق . ونعيم الدين ، وغولد ساك .
- ١٩ - اللغة الرومانية: ١٩١٢ أيسوبسكل .
- ٢٠ - اللغة المجرية: زدمایر وكديون ١٨٥٤ وغرسون .
- ٢١ - اللغة اليابانية: سكاموتوكو .
- ٢٢ - اللغة البوهيمية: ١٩٢٥ فلي ، وينكل .

- ٢٣ - اللغة الصينية: ٤ ترجمات أولها ١٩٣٥ باومن تشن تشنج ولوين جود هوا جوجز.
- ٢٤ - اللغة السويدية: ١٨٤٣ كروسنستولب وتورنبرج وزترستين.
- ٢٥ - اللغة الأفغانية: ١٣١٩ هـ.
- ٢٦ - اللغة البنجابية: ١٢٩٧ هـ (حافظ محمد بارك الله) وهديه الله كالري، وشمس الدين البخاري وفيروز الدين.
- ٢٧ - اللغة السواحلية: ديل ١٩٢٣.
- ٢٨ - اللغة السنديّة: عزيز المعلوي ١٢٩٣ هـ. ومحمد صديق عبد الرحمن.
- ٢٩ - اللغة الفواجدانية: ٤ ترجمات أولها ١٨٧٩.
- ٣٠ - اللغة الجاوية: ١٩٠٣ (ينادباء).

(٨)

محمد ﷺ

طلت شخصية النبي محمد ﷺ هدفًا لحملات عنيفة غير منصفة، كجزء من المخطط المرسوم لهاجمة الإسلام وبهاجمة نبيه، وقد وقف كثير من الكتاب الغربيين أنفسهم على هذه المهمة، محاولين البحث عن شبكات أو روایات ضعيفة لاتخاذها مصدراً لإثارة الشبهات والاتهامات. من ذلك قصة الغرانيق، والشبهات التي أثيرت حول عائشة وتأبير النحل.

وقد جرت هذه الاتهامات فيما يتصل بالوحى والاقتباس من تعاليم الأديان الأخرى.

ومن هؤلاء مرجوليوت والقس كانول سل والأب لامنس الذي أفرد كتاباً خاصاً عنوانه «هل كان محمد صادقاً» استغل فيه ما أمكن استغلاله من الشبهات المختلفة التي وردت في كتب الشعوبية، ومن كتابه «فاطمة» وقد كانت كتاباته عن طريقة العكس المعروفة، وهي قلب الحقائق كاملة في مجال الاتهام، وتزداد اتهامات قديمة حرص على صناعتها رهبان القرون الوسطى.

* * *

وقد استطاعت سيرة «محمد ﷺ» أن تنفذ إلى نفوس الكثير من الباحثين المنصفين، الذين اعترفوا بعظمة الرسول. وقدرواها، وعارضوا ما وجه إلى الرسول من اتهامات.

١ - يقول كارليل: لسنا نعد محمدًا هذا قط رجلاً كاذبًا متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائق والصغار، وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح، وما كلمته إلا صوت صادر من العالم المجهول. كلا ما محمد بالكاذب، ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع.

ويزعم المتعصبون أن محمدًا لم يكن يريد بقيامه الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وايم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمةً وحجى وأربة قد نهى عن المطبع الدنيوي، ونواياه ليست في طلب السلطة والجاه، وكيف وتلك نفس صافية كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين، فيبينا ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة. إذ ترى محمدًا لم يرض أن يتلعن بمؤلف الأكاذيب، ويتوسح بمتبع الأباطيل، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور.

٢ - أما جيون في كتابه اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٨٨) فإنه ينصف محمدًا في هذه النقطة بالذات، نقطة الملك والسيادة بإنشاء مملكة، يقول:

إن سمو إحساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك، وكان رسول الله ﷺ يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الأسرة من عمل. فقد أوقد النار، وكتس المنزل، وحلب الشاة، وخصف بيديه نعليه، وررق ثوبه. لقد كان قانعاً يأكل كما يأكل العربي والجندي، وكان في مناسبات قليلة، يوم لرفاقه في سعة، ولكن الأسابيع الكثيرة كانت تقضي، ولا يوقد في بيته نار لطعام، وكان يحرم الخمر، كما يقضى بذلك الدين، وكثيراً ما كان يخفف

وطأة الجوع بكسرة من خبز الشعير.

٣ - ويصور «وليم موير» أسلوب محمد وبيانه فيقول: امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه. وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد.

٤ - وعن دوزي في بعض فصوله من كتاب ملوك الطوائف بالرد على ما رددته خصوم الإسلام فقال: ص ٤٠٥ - لو صح ما قاله القساوسة من أن محمداً نبي منافق كذاب، فكيف نعلل انتصاره؟ وما بال فتوحات أتباعه ترى، وتتلنوا إحداها الأخرى؟ وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد، وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول؟ لقد كانوا يعتقدون أول أمرهم أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة. فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة، وانتظروا هذه المعجزة التي تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين، ولكن انتظارهم هذه المعجزة قد طال، وذهب أدراج الرياح، وأعجب من ذلك أن معجزة أعظم قد حدثت، وكانت معجزة أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم، وأي معجزة أعظم وأروع من أن نرى شعباً كان إلى زمن قليل في غاية من الخمول، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة، وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها.

٥ - أما المؤرخ سيديو فقد حاول الرد على اتهام النبي بالقسوة أو الجبن مما جاء في كتابات خصوم الإسلام فقال: من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد القسوة والجبن. فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يتأل جهداً في إلغاء عادة التأر الموروثة الكريهة التي كانت خطوة، لدى العرب، كخطوة المبارزات بأوروبا فيما مضى، وكان أولئك الكتاب لم يقرعوا آيات القرآن التي قضى محمد فيها على عادة الوأد الفظيعة، وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على ألد أعدائه

بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبّا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، ولا إلى ما أبداه من أسف على بعض الأحكام المبتسرة، وكأنهم لم يعلموا أنَّ مُحَمَّداً لم يسعه استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، قضاء لشهوة القسوة الدينية - وأنه لم يأل جهداً - في الغالب - في تقويم من يجور من أصحابه، وكلَّ يعلم أنه رفض بعد غزوة بدر - رأي عمر بن الخطاب - في قتل الأسرى، وأنه عندما حل وقت مجازاة بني قريطة ترك الحكم في مصيرهم لخليفهم القديم سعد بن معاذ. وأنه صفع عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض قط ما طلب إليه من اللطف والسامح، وليس بمجهول أنَّ خالد ابن الوليد - الذي كان من أشجع قواده - لم يستطع أن يرعوي - بعد إسلامه - من روح القسوة والصولة التي كانت تلازمته في زمن الجاهلية، فلاحت له الفرصة بأن يثار لقريبه القتيل فأثخن في بني خزيمة، فأجمع المسلمون على استفهام عمله - فلما نبأهُ مُحَمَّد بما صنع خالد، أسرع في ذمه جهاراً، فرفع يديه إلى السماء قائلاً: اللهم أبدأ إليك بما صنع خالد..

٦ - ودافع المستشرق الإنجليزي «بودلي» عن الزعم القائل بأنَّ مُحَمَّداً سرق ما في الإنجيل من تعاليم فقال: «الزعم بأنه قد سرق الإنجيل زعم باطل، فيما رأه أبداً، والقول باطلاقه على ترجمة الإنجيل الناقصة التي قام بها ورقة بن نوفل لا يضع أمامه إنجيلاً ليراه، وحتى هذه الترجمة لم يرها. فإن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديمين والجديدين ظهرت بعد وفاة محمد بقرون...».

٧ - ولقد وجد «برنارد شو» في شخصية النبي ما دعاه لأن يصفه بمنقذ الإنسانية. فقال: لقد عمد رجال الإكليلوس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان، وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم، والواقع أنهم كانوا يصرفون في كراهية محمد عليه

السلام، وكراهة دينه، ويعدونه خصماً للمسيح. أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد عليه السلام منقذ الإنسانية، وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته، وأحل في العالم السلام والسعادة. وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما.

٨ - وقد أعجب تولستوي بشخصية محمد، وعبر عن ذلك حين قال: لا ريب أن النبي محمدأ عليه السلام من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكتفي فخرأ أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تخضع للسکينة والسلام. وتفضل عيشة الرهد ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوثق قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام.

٩ - وقد أعلن «إميل درمنجم» في كتابه حياة محمد «أنه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد عليه السلام، ولكن يوجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية، وكم يكون مؤثراً ومفيداً التلacci مع رجل من الرجال الذين يقتدي بهم جانب عظيم من الإنسانية. أما من الجهة الأوروبية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيقي علمي لعظمة منشئ^(١) الإسلام».

ويضيف جون سيمون إلى ذلك قوله: «إن محمدأ قد رفع أعلام التمدن». أما الدكتور مار دوس المستشرق الفرنسي، فيرى أن أكثر الكتاب ارتياجاً وشكلاً قد خضعوا لسلطان تأثير محمد. أما «جوتة» فعنده أن أهل أوروبا لم يصلوا بعد إلى ما وصل إليه محمد. يقول: إننا - أي أهل أوروبا - بجميع مناهجنا لم نصل إلى أبعد ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد».

(١) من الخطأ اعتبار النبي محمد رسولاً منشئ الإسلام.

١٠ - أن الصورة التي يرسمها «فارس الخوري» للنبي فهو أن محمدًا أعظم عظماء العالم: «لم يجد الدهر بعد بثله. والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأكملها. ويقول: «إن محمدًا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية، ولم يسع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الشريعة التي دعا الناس إليها باسم الله، وبأنها متفقة مع العلم، مطابقة لأرقى النظم، أن محمدًا الذي يختلفون به أعظم عظماء الأرض، سابقهم ولاحقهم. فقد استطاع توحيد العرب بعد شتاهم، وأنشأ منهم أمة واحدة فتحت العالم المعروف يومئذ. وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم، وواجباتهم، وأصول تعاملهم على أساس من أرقى دساتير العالم وأكملها».

١١ - أما الدكتورة لورا فينشيا فاليري الكاتبة الإيطالية، فتدفع عن النبي ﷺ بحماس وإيمان وصدق فتقول: قام أعداء الإسلام الألداء الذين أعمتهم الحقد والتتعصب، واتهموا رسول الله ﷺ، ذلك الرجل النبيل الذي كان ينظر إليه قبل الرسالة نظرة إكبار وإجلال من جميع مواطنيه لما تحلى به من الأمانة والسجايا الكريمة، وكانت هذه التهمة التي رموه بها مما لا يقبله عقل، ولا يمكن أن يسلم به عاقل فضلاً عن أنها لا تقوم على أي أساس، وهي تهمة الغش والخداع، وليت شعرى كيف أن هؤلاء الناس لم يسألوا أنفسهم إذا كان النبي في الحقيقة كاذبًا. فكيف اجترأ على أن يوجه في القرآن إلى.. الكاذبين. والمخادعين أشد عبارات الذم وأقساها. وكيف توعدهم بالنار وسوء العذاب. وإذا كان كاذبًا في دعوته كما يفتررون. فكيف صمد للمقاومة أكثر من عشر سنين، وهو في مكة احتمل في أثنائهما الشيء الكثير من صنوف الاضطهاد والألام. وهو ذلك الرجل الوديع الهدىء الطياع. وكيف تهيأ له أن ينحاز إليه طوعية واختياراً. بل وبنتهى التحمس جماعات كبيرة من رجالات قريش وبنلائهم، وأن ينضموا تحت

لوائه مع غيرهم من السوقه والعبد.

أما تهمة القسوة التي يوجهونها إليه. فمن السهل دفعها. لأن محمدًا الذي كان على رأس حكومة ويتولى الدفاع عن حياة الشعب وحربيه كان يحاكم الخارجين على القانون بصرامة وشدة اقتضتها ظروف البيئة التي كان يعيش فيها.

ولقد كان محمد - كرسول يدعو إلى الله - رجلاً رحيمًا، لين الجانب حتى لأعدائه الشخصيين، وبذلك اجتمعت فيه فضilitان كلتاها أكبر الفضائل التي يتصورها العقل البشري. وهما الرحمة والعدالة.

وبحسبه أن الحرب التي هي أقصى ضرورات الحياة الإنسانية قد صارت بفضله أقل وحشية وقسوة. إذ أنه كان يطلب إلى جنوده ألا يقتلوا شيئاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا يهدموا بيوتاً لم تتخذ كمعامل حربية. وقد أراد أعداء الإسلام أن يظهروا النبي في صورة رجل شهوانى إباحي، بأن اتخذوا من زيجاته المتعددة حجة لاتهامه بضعف خلقي لا يتفق. ومركزه النبوة. ولكن فاتهم أمر هام لم يحسبوا له حساباً. وهو أن النبي أيام فتوته، وعنفوان شبابه لم يتزوج إلا من امرأة واحدة، ولم يتزوج من غيرها حتى ماتت. مع أنه كان يعيش بين قوم سادت فيهم كثرة الطلاق والزواج. وكان يندر أن يقتصر الرجل منهم على زوجة واحدة، ولما فقدت وكانت سنتُه حين ذاك خمسين سنة تزوج من أخرى. كما عقد زيجاته المختلفة التي كانت في أغلب الأحيان لدواعٍ اجتماعية أو سياسية، لأنه كان يريد بهذه الطريقة أن يكتسب إلى صفة رجالاً أو نساءً تقنيات. ويرتبط بروابط المصاهرة بأسر قوية، وكان كل ذلك بقصد نشر الإسلام^(١).

١٢ - ويدافع الكونت هنري دي كاستري عن اتهام النبي بتآليف

(١) ك - محسن الإسلام: طبع يافا ١٩٣٤ ترجمة طه فوزي.

القرآن ويقول: «وَكَيْفَ يَعْقُلُ أَنَّ النَّبِيَّ أَلْفَ هَذَا الْكِتَابَ بِالْلُّغَةِ
الْفَصْحَىٰ . مَعَ أَنَّهَا فِي الْأَزْمَانِ الْوَسْطَىٰ كَالْلُّغَةِ الْلَّاتِينِيَّةِ مَا كَانَ يَعْقُلُهَا إِلَّا
الْقَوْمُ الصَّالِحُونَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا أَنَّاسًاٰ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ أَمِينًا قَامُوا فِي أُمَّةِ
الْعَرَبِ وَادْعَوْا النَّبُوَّةَ، مِنْهُمْ مُسِيلَمَةُ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ قَرِينُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ: أَقْ بَسُورَ سُخْرَةِ مَنْهَا الْعَرَبِ، لَوْلَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ بَهَاءٍ
مَعْنَىٰ، وَجَاهَ مَبَانِيهِ لِكَفِيَّ بِذَلِكَ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَىِ الْأَقْطَارِ، وَيَأْخُذَ بِمَجَامِعِ
الْقُلُوبِ .

أَقْ مُحَمَّدٌ بِالْقُرْآنِ دَلِيلًا عَلَىِ صَدْقَ رِسَالَتِهِ، وَهُوَ لَا يَرْبَدُ إِلَىِ يَوْمِنَا
هَذَا سَرًّا مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي تَعْذِرُ فَكَ طَلَاسِمُهَا، وَلَنْ يَسْبِرَ غُورُ هَذَا السِّرِّ
الْمَكْتُونُ إِلَّا مَنْ يَصْدِقُ بِأَنَّهُ مَنْزَلٌ مِنَ اللَّهِ . اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اعْتَدْنَا عَلَىِ قَوْلِ
مَجْدِي الدِّينِ الْمُسِيحِيِّ مَا كَنَا نَرْتَاحُ إِلَيْهِ أَيَّامَ شَبَيْتَنَا (وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَىِ أَنَّ
الْقُرْآنَ تَأْلِيفُ فَاتِحِ أَرَادَ تَأْيِيدَ سُلْطَتِهِ، فَجَمْعُ مِنْ كُتُبِ الْيَهُودِ وَالْمُسِيْحِيِّينَ
قَانُونًا أَوْدَعَهُ بَعْضُ قَوَاعِدِ الْأَدَبِ وَالدِّينِ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ قَصْصَ الْوَقَائِعِ
الْعَظِيمَةِ لِتَأْيِيدِ رِسَالَتِهِ) .

وَعَلَىِ كُلِّ حَالٍ أَيْ سَوَاءٍ تَوَصَّلُنَا إِلَىِ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْقُرْآنِ . أَمْ لَا؟
فَلَا يَنْكِرُ أَحَدٌ أَنَّ مَظَاهِرَ مُحَمَّدٍ كَانَ مَظَاهِرُ نَبِيَّةٍ بِالْفَعْلِ بِقَطْعِ النَّظرِ عَنِ صَدْقِ
تَلْكَ النَّبِيَّةِ، وَعَدْمِ صِدقَهَا . لَأَنَّ النَّبِيَّةَ مِنْ حَيْثُ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِيَامِ رَجُلٍ
يُعْلَىٰ عَلَىِ النَّاسِ أَمْرُ رَبِّهِ، وَيَعْتَقِدُ حَقًّا أَنَّ مَا يَقُولُهُ آتٍ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ .

وَمُحَمَّدٌ كَمَا قَالَ (إِيَّالِد) عَنِ أَنْبِيَاءِ بَنِيِّ إِسْرَائِيلَ أَعْتَقَدَ أَنَّ رُوحًا مِنْ
اللهِ اسْتَوَلَتْ عَلَىِ لَبَّهِ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِأَنَّ لَهُ فَكْرًا خَاصًّا . بَلْ إِنَّهُ أُوتِيَّ مِنْ عَنْدِ
رَبِّهِ . وَاخْتَفَتْ فِي نَظَرِهِ أَنَانِيَّتِهِ، وَلَمْ يَعْدْ يَسْمَعَ غَيْرَ صَوْتِ ذَاتِ فُوقِ ذَاتِهِ،
وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينَ أَخْذَتْ شَفَتَاهُ تَنْطِقُ بِالْفَاظِ . بَعْضُهَا أَشَدُ قُوَّةً وَأَبْعَدُ مَرْمَىً
مِنْ بَعْضِ الْأَفْكَارِ تَنْدَقُ مِنْ فَمِهِ عَلَىِ الدَّوَامِ، وَكَانَتْ تَلْكَ الْاِنْفِعَالَاتِ
تَظَهُرُ عَلَىِ وَجْهِهِ . فَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ بِهِ جَنَّةٌ، وَهُوَ رَأْيٌ باطِلٌ، لَأَنَّهُ بَدَأَ

رسالته بعد الأربعين، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أي اعتلال في الجسم، أو اضطراب في القوة المادية.

ويقول: إذن فليس محمد من المبدعين، ولا من المتعلمين كتابهم، وليس هونبي سلاب كما يقول: (سايوس) نعم: قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض الموضع. إلا أن سببه ميسور المعرفة، ذلك أن محمداً كان يلخص ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية (كذا). وحيثئذ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض الموضع، خصوصاً إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها. كما أن محمداً هو خاتم الأنبياء^(١).

* * *

ومن جماع هذه الآراء تبدو صورة محمد ﷺ واضحة في نفوس النصفين من الغربيين على نحو قريب جداً، مما هي في نفوس المسلمين. ولا شك أن مصدر هذا النصر هو قوة الإسلام الذاتية في فرض تعاليمه وتاريخه وأفكاره على الفكر العالمي، وتأثيره فيه، بالرغم من كل المحاولات التي اتخذت لتمزيق صفحاته، وتشويه ملامحه. فقد استطاع أن يمحى تياراً قوياً على أيدي مجموعة من الأعلام من رجال الفكر والأدب والبحث العلمي.

(١) الإسلام خواطر وسوانح: تأليف هنري دي كاستري - ترجمة أحمد فتحي زغلول - عام ١٩١١.

(٥) الاسلام والأديان

عالم الغرب هذا عالم له مفاهيمه وثقافته وفكره الذي تطبعه مقومات خاصة، يستمدّها من الثقافة الإغريقية، والحضارة الرومانية أساساً. والذي يرى أن المسيحية بالنسبة له شيء دخيل جاءه من الشرق، ولذلك فإنه لم يلبث أن طواها في بوقته، فأصبحت له «مسيحيته الغربية» التي تختلف عن المسيحية الأصلية، وعن مفاهيمها في الشرق. وهذا الغرب الذي يفهم عن نفسه أنه سيد هذا الكوكب، وحاكمه والمسيطر عليه بالحضارة والاستعمار في يده كل مقاليد المدنية، والفكر والثقافة، وهو المسيطر على غيره من شعوب العالم الجنس الأبيض ذي المحتد الممتاز، وريث الآرية، والسكسونية والجرمانية واللاتينية. وفي ظل هذه المفاهيم المستعلية على الشعوب الملونة، والأجناس السامية والخامية. وعلى الشرق بالذات، وعلى غير المسيحية من أديان، ومن خلال نظرات منحرفة عنيدة تصور الإسلام والمسلمين بصورة الغزاة الذين اقتحموا النفوذ المسيحي الأوروبي، واكتسحوا الدولة الرومانية، ثم اقتحموا أوروبا وسيطروا على الأندلس، ومدوا نفوذهم إلى فرنسا وإيطاليا، ثم إلى البلقان حتى نهر اللوار. وفي ظل هذه المفاهيم كانت حقيقة الإسلام مليئة بالضباب، مجلة بالسواد في نظر المثقفين الغربيين. وقد زادتها قوى الاستعمار والكنيسة، ولها سلطانها على الصحافة والتأليف، ومناهج التعليم - زادتها قوة على أن تفهم عن الإسلام غير جوهره وخلاف حقيقته.

غير أن الإسلام بذاته القوية. ومن خلال هذه الصورة المضيئة التي وصلت إلى أهل الغرب. استطاع أن ينفذ بأصواته القوية إلى بعض النفوس والقلوب، فيهزها هزاً، ويدفعها إلى دنيا جديدة من الفكر والنظر. ومن هنا استطاع أن يحرز هذه الانتصارات الضخمة بكسب هذه المجموعة من أعلام الرأي إلى صفة، فيحول بعض المتعصبين ضده إلى أن يحسنوا الرأي فيه، وينقل أفراداً ممتازين إلى عقيدة الإسلام، ويضم عشرات من المنصفين إلى الثقة به كحقيقة كبرى، وكقوة حية، فيرى فيه أغبلهم أنه سند الحضارة، وأنه منقذها، ويتمنى له الكثيرون بأنه سيكون عقيدة المستقبل، وضياء الغد، ومنقذ الإنسانية من البلبلة والاضطراب.

ونحن إذا استعرضنا حياة هؤلاء الكتاب الذين أنصفوا الإسلام نعجب، فهم لم يكونوا في حاجة إلى شهرة أو غنى أو يطمعون في مغنم حين أعلنوا صريحتهم، بل إن بعضهم قد أعلن هذه الصيحة في وقت مبكر جداً. عندما كان الغرب قوي الحملة على الإسلام. عنيف التعتصب ضده، فهنري دي كاستري يكتب كتابه عن (الإسلام) عام ١٨٩٦. وجوزتاف لوبيون يقول: رأيه عام ١٨٨٤. وكارليل يعلن عظمة محمد في العقد الأخير من القرن التاسع عشر يوم كانت أوروبا تشب نار الحملة على الأديان، وتهاجم الإسلام.

ثم يولي هؤلاء الكتاب الذين آمنوا بالإسلام إيماناً فكريأً. غير أن هناك مجموعة أخرى آمنت بالإسلام إيماناً حقيقياً واعتنقته فعلأً، ولها مؤلفات وكتابات تكشف فيها عن حقيقة التحول الخطير الذي نقلها إلى الإسلام. وفي مقدمة هؤلاء خالد شلدريك، وهاري هيكل، واللورد هدلي، وعبد الله كوليا. والدكتورة لورا فينيشيا فاليري، ولزيوبولد فايس، وهم بين إيطالي وإنجليزي وفرنسي.

والدكتور خالد شلدريك دخل الإسلام (يوليو ١٩٠٣) نتيجة بحثه

الشخصي. وكان إلى ذلك الوقت لم يقرأ كتاباً من مؤلفات المسلمين، ولا التقى بمسلم. يقول: كنت أطّالع ما يكتب من النبذ اللاهوتية عن الدين المسيحي، ووقع في يدي كتيب عن الإسلام ألف من وجهة النظر المسيحية. فالله الرحمن الرحيم. هو الذي هداني. وفي هذه الفترة توليت التدريس في مدارس مختلفة، فكنت أبث الطلبة ما اقتنعت به عن الإسلام، وأول مسلم اتصلت به هو الشيخ عبد الله كوليام الذي كان قائماً بالدعوة في «ليفربول» وفي عام ١٩٠٥ قابلت مسلماً هندياً أسس جمعية الجامعية الإسلامية في لندن.

وقد فقد بإسلامه كل ما كان يملك من ثروة. فقد حرمه أهله حقه. وكان عليه أن يبدأ الكفاح في سبيل المعيشة، وله بعد ذلك موافقه بالنسبة لحادث دنشواي (١٩٠٦) ولاعتداء الإيطاليين على طرابلس الغرب . ١٩١١

وأتيح له أن يقوم برحلة طويلة إلى بورما وسيلان، وسنغافورة، والصين، واليابان، والفيليبين في سبيل نشر الإسلام. والوقوف على حال المسلمين. وقد زار القاهرة وألقى بها محاضرة^(١). وله أبحاث في مجلة (Real Islam) التي تصدر في لندن.

أما اللورد هدلي فقد روى قصة إسلامه كاملة في الفصل التالي. وقد زار مصر. (يناير ١٩٣٠) وألقى عدداً من المحاضرات. وصدر باسمه كتاب بعنوان (إيقاظ الغرب للإسلام) عام ١٩٢٢. وهو صاحب مجلة (The Islamic Renieo) بجامع ووكنج. وكان يسمى نفسه «سيف الرحمن رحمة الله فاروق» وقد سافر إلى الحجاز في عام ١٩٢٣. ونشرت له المنار سنة ١٩١٣ (م ٧) كما نشرت له معظم المجالس المصرية مثل كل شيء

(١) الفتح ١٣ صفر ١٣٥٧ هـ م ١٢ - العدد ٥٥١

(١٢ يناير ١٩٣٠) وقد كان من أغنى البريطانيين. ومن أعلى أسرهم حسباً، يعمل مهندساً بحرياً. ويملك عدة ألف من الأفنة.

ولقد كان اللورد هدلي يطمع في أن ينشر الإسلام في بريطانيا بالذات. وبذل في سبيل ذلك كثيراً من جهده. أما ناصر الدين دنيه (أتيان دينيته). فهو من كبار أهل الفن، ورجال التصوير الفرنسيين. وصاحب اللوحات النفيسة القيمة التي تزدان بها جدران المعارض الفنية. وله صورة شهيرة هي غداة رمضان. ويتصنف بالقدرة على رسم الصحراء، وتصوير حياة الصحراء، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة. امتاز بتخصيصه في تصوير الحياة الإسلامية. وبالخصوص في بلاد الجزائر. حيث اخذ له فيها موطنًا في (بوسعادة) وله كتاب حياة العرب، والسراب، حياة الصحراء. كتاب رباع القلوب. والشرق كما يراه الغرب.

وفي سنة ١٩٢٧ أعلن إسلامه رسميًا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل بمقتني الجزائر، ووزير العدل التونسي. أشهد الناس على أنه يدين بالإسلام من عشرات السنين. وإن لم يجهر به إلا اليوم، ويريد أن يدفنه في قبره مسلماً حنيفياً لم يتخد الإسلام إلا بعد تحقيق وتدقيق. ولبيت هذه الصورة التي نقدمها للذين أسلموا إلا نماذج تكشف عن عظمة الإسلام الذاتية، وقدرته على فتح الطريق أمام حقائقه وقيمته ومقداصده في كل بيئة.

* * *

وأمامي صور كثيرة تدل على مدى ما اهتزت النفوس لكلمة الإسلام ودعوته. فالفيلسوف «أوغست كونت»^(١) الذي كانت دعوته مادية خالصة. يهتز عندما يرى الصلاة، يقول: لا يسعني عندما أنظر إلى فريق من المسلمين، وهم يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متكافئة في

(١) نقلًا عن كتاب بين الديانات والحضارات (ص ٢١).

أحد مساجد (فاس) والسكنون والإيمان العذب يجثمان فوق رؤوسهم إلا أن أكبر عظمة هذا الدين الذي عرف كيف يصقل الأذهان، ويهذب النفوس، ويشرق القلوب، ويقوم الأخلاق، ويقضي على تمرد الروح، ويحوله إلى خشوع عميق وتواضع ملؤه الوجد والخصوص. ولقد اشتهرت أن تكون يوماً أحد أفراد هذه الأفواج الساجدة لربها. فأراحت ضمائرها بهذا النوع البريء من العبادة المخلصة.

ولكني لا أدرى لماذا لا تكون إلا ذلك التمرد. ضل ولم يهتد، وما زال يتغول في الأعماق. ونرى مسيو ريمون الرحالة المشهور في أثناء طوافه في مجال إفريقيا. يقول: إنه لم يكن يأمن على نفسه. ولا على رجاله إلا عند المسلمين. فكان يصادف منهم أنساً ولطفاً. وحسن ضيافة. وفي رسالة مطولة عن المسلمين في المجال قال: «إن الإسلام انتشر كثيراً في جهات إفريقيا وأسيا. وكان انتشاره طبيعياً لأن المسلمين كانوا قدوةً حسنة لسائر جيرانهم، فلحقوا بهم، وحدوا حذوهم. وبالتالي عرفوا ما الإسلام فاعتنقوه وصاروا مسلمين».

بل إن «غليوم» عاهل ألمانيا العظيم قد صرخ في ٩ نوفمبر ١٨٩٨ وسجلته مختلف صحف العالم بعد زيارة لبيت المقدس قوله: لو لم يكن لي دين لكنت قد اعتنقت حتى الدين الإسلامي، وربما كان تصريحه سياسياً. ولكنه على أي حال يحمل معنى الهيبة الواضحة للإسلام.

وهذا نموذج آخر: يصل إلى القاهرة بين حين وآخر رجل وزوجته، ويعتنقان الإسلام. ورجال من مختلف أنحاء العالم يفعلون ذلك.

ولكن مستر لومكس وزوجته ألن يونافيسي. وهما أستاذان بجامعة كولومبيا قالا^(١) «إنا كنا نقرأ كثيراً في القرآن الكريم (ترجمة مولاي محمد

(١) الأهرام: ٤/٣/١٩٣١.

علي) وكانت معانٍه تلذ لنا كثيراً. وكنا نحاول أن نطبقها على الحياة الفطرية. فكانت محاولاتنا تنتهي دائمًا بالنجاح. وقد أخذ بقلوبنا وأثر فينا التأثير كله. ذلك المعنى الجميل الذي تضمنته تلك الآيات الكريمة التي تقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾. فهذه السورة هي التي جعلتنا نسرع فندن بالإسلام. ولقد رفضنا أن نعمل مع غير المسلمين في بلادنا وأثروا أن نعيش وأولادنا كما يشاء الله. وتكشف الصور المختلفة للإسلام هؤلاء كيف أن بساطة الإسلام هي: أبرز معالله، وترى كيف تبدو نصاعة مقاصده عند المقارنة بينه وبين الأديان الأخرى واضحة غاية في الوضوح. وأبرز هذه المقاصد افتتاحه على الحياة، وبعده عن عقد التسلط المختلفة.

عبد الله كوليم

منذ ستين عاماً أشار علي الأطباء براحة أمضيها في جبل طارق، فلما سرت إلى هناك ركبت سفينه إلى طنجه لمشاهدة البلاد المراكشية، واتفق أنني لما صعدت السفينه رأيت فيها بعض الحجاج من أهل المغرب يغترفون الماء بالدلlo من البحر ويتطهرون مبالغين في النظافة، ثم أقلعت السفينه. وما كادت تغادر الميناء حتى رأيت هؤلاء الجماعة قد اصطفوا للصلوة صفوفاً جمila، وجعلوا يصلون معًا بخشوع وطمأنينة. غير مكتثرين بتمايل السفينه واضطراب الريح. ولقد أثر في نفسي ما قرأته على وجوههم من صدق الإيمان. فأثارت حالتهم هذا الاهتمام الزائد عندي في أن أستزيدهم عن الدين الذي يدينون به. وما عتمت أن تعرفت بمسلم يتكلم الإنجليزية. فكان يلزمني مدة إقامتي في طنجه، ولا سيما بعدما شعر مني بالرغبة في معرفة المبادئ التي يدعو الإسلام إليها، وعولت على أن أقرأ الإسلام في كتبه، وأن أقرأ ما كتبه عنه العلماء المصنفوN، فقرأت ترجمة (سل) للقرآن الكريم وكتاب الأبطال لكارليل، وما خرجت من طنجه إلا وأنا مستسلم للإسلام، مذعن لقوته، مقر بأنه حق، وأنه خير الأديان.

ولما رجعت إلى إنجلترا كان شغلي الشاغل التفكير في الأسلوب الذي يجب أن أتبعه لأدعو الناس إلى الإسلام. وأقنعهم به، وأحملهم على الإيمان به، وكنت أعلم أن ما شحنه أعداء هذه المهدية في رؤوس الأوروبيين عن

الإسلام سيحول بيني وبين التفاهم مع الجمهور بطريق المحاضرات أو النشر. لأن جمهور الإنجليز إذا حدثهم عن الإسلام يظنون أنك تحدثهم عن دين وثني، والصحف لا تفتح صدرها لمثل هذه الدعوة.

ثم بدا لي أن أطرق باباً غير مباشر، فألقيت محاضرة في جمعية النبي عن المسكرات موضوعها (المتعصبون والتتعصب) تحدث فيها عن الشخصيات البارزة في علم الاختراع مثل: ستفسنون مكتشف القوة البخارية. ويلبرفورس المجاهد في سبيل تحرر الرقيق، وأتيت على محمل ما لقاء كل هؤلاء من المقاومة والاضطهاد والسخرية.

ثم أردفت بذكر (محمد ﷺ) فقلت إن هذا المصلح الكبير جاء البشر بر رسالة. ودعا الناس إلى الخير، ومع ذلك فقد ناله من الأذى والاضطهاد ما يجده كل مصلح عظيم يعمل على خير الإنسانية. فلما تبين البشر فضلها دخلوا في دينه أفواجاً، وما زالوا كذلك حتى بلغوا الآن مئات الملايين في جميع أطراف المعمورة، ثم ذكرت شيئاً من آداب الإسلام والمبادئ وال تعاليم التي دعا إليها النبي.

فلما حصلت عليها الصحف، أسرع القسس إلى مديرى الصحف. وقالوا إن المحاضرة بها دسائس، وأنها متضمنة الدعوة إلى دين وثني، فوافق مديرى الصحف على حذف ما في المحاضرة خاصاً بـ محمد، ونشروا الباقي.

فأندرت الصحف بالمحاكمة أمام القضاء على تشويه محاضري، فعادوا ونشروا المحاضرة كاملة، وكان لذلك تأثير عظيم لكثرة الأيدي التي تناولت تلك الصحف، ثم فكرت بعد النجاح أن يكون في بلدي (ليفربول) مكان تقام فيه الشعائر الإسلامية، وما كدنا نفتح هذا البيت حتى صار القسس يدسون لنا الأشرار والمحمسين من صغار العقول، وما أودينا به. أن أولئك الأشرار كانوا يلقون الأقدار على المسلمين، وكانوا

يرجون المؤذن بالحجارة، وينثرون الزجاج المكسور على سجادات الصلاة.

ودخلت المسجد مرة ألقى محاضرة في تفسير آية من القرآن الشريف. فوجدت قد سبقنا إلى المسجد جماعة قرأت في وجوههم أنها وجوه مريبة، فلم أبال بهم، وتلوت آية القرآن الشريف، وشرعت أفسرها وأستنتاج منها العطاءات والغير، فلما انتهيت من المحاضرة قام أحدهم وأخرج من جيده حجارة وألقاها على الأرض. وقال لأصحابه: من كان منكم يريد أن يرجم المسلمين بالحجارة التي معه، فأنا صرت مسلماً فارجوني بها. فألقواها هم أيضاً على الأرض، وأعلنوا إسلامهم. وهو الرجل الذي كان رئيساً لهم ما لبث أن أصبح عضدي الأيمن، ولازمني في كل رحلاتي التي قمت بها للدعوة إلى الإسلام، وعلى يدي أسلمت سكرتيرة جمعية من المسكريات في (بير كميه) وسميت (فاطمة) وأسلم على يدها شقيقاتها وزوجها.

والآن فإن البعض يعتقدون أن اللورد (هيلي) هو أول لورد إنجليزي دخل في الإسلام، وليس هذا صحيحاً. فقد دخل الإسلام مثله لورد (ستنلي أولدرلي) الذي كان يجب أن يدعى باسم (عبد الرحمن أفندي) وكان يأتي مسجدنا فيصلي مع إخواننا رغم ما بينهم وبينه من التفاوت العظيم في المنزلة الاجتماعية^(١).

الدكتورة لورا فنيشا فاليري^(٢)

هدأت في أيامنا هذه نار الحقد والكراهة التي كانت تتجدد في صدور الباحثين من الأوروبيين في الشؤون الإسلامية طوال سني القرون الوسطى، وفي جانب كبير من سني العصر الحاضر، ولم يعد النبي العرب في نظر أحد من يتصدرون هذه الأبحاث. ذلك المستحق لأحظ الشتائم،

(١) الحديقة ص - ٢٠٠ ج ٧.

(٢) من كتابها *محاسن الإسلام*: ترجمة محمد فوزي.

وأفطع عبارات السباب، حيث ظهرت في العصر الأخير أبحاث ادعى أصحابها التزام الحياد، وقد ألقت مصنفاتهم هذه ضوءاً جديداً على أصول ديانة جديدة قلبـت العالم بأسره رأساً على عقب، على أن المسلم القوي الإيمان، المخلص لربه ورسوله - والذي يرى في الإسلام ينبع سعادة أبدية في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لم يصل إلينا صوته إلا ضعيفاً جداً. إذ أن آراء عشـاهير كتاب الإسلام التي كـتبت بلغات لا يقرؤـها إلا نفر قليل من الغربيـين ظلت مجـهولة بوجه عام في العالم الأوروبيـي، ولا نستطيع فـهم الروح الصـحيحة لـديـن من الأـديـان. إذا لم نـتبين جـيدـاً آراء الـذـين يـدـينـون بهـ، وـنـدرـك الشـعـور الـذـي يـحـمـلـونـهـ بـيـنـ جـوـانـحـهـمـ.

ولما كانت النـتـائـجـ الـتيـ وـصـلـ إـلـيـهاـ الـبـاحـثـونـ الـغـرـبـيـونـ غـيرـ مـتـوفـرـةـ فـيـهاـ الغـيـرـةـ الصـادـقـةـ الـواـجـبـةـ، كـمـاـ أـنـهـ قـائـمـةـ غالـباـ عـلـىـ أـفـكـارـ لـمـ يـكـنـ بـأـيـةـ حـالـ منـ الـأـحـوـالـ أـنـ يـسـلـمـ بـصـحـتـهاـ مـسـلـمـ مـخـلـصـ لـعـقـيـدـتـهـ. فـهـيـ لـهـذـهـ الـأـسـبـابـ لـاـ تـصـلـحـ لـأـنـ تـكـوـنـ أـسـاسـاـ لـكتـابـةـ يـقـصـدـ بـهـ اـطـلـاعـ الـغـرـبـيـينـ عـلـىـ كـهـ الـدـيـانـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ، وـالـشـرـيـعـةـ السـمـحـاءـ، حـتـىـ يـقـدـرـواـ عـظـمـتـهـاـ، وـيـعـرـفـواـ أـصـوـلـهـاـ، وـيـشـعـرـواـ بـقـوـةـ إـقـنـاعـهـاـ، وـيـلـمـوـ بـاـ فـيـهاـ مـنـ عـوـامـ تـقـدـمـ وـنـهـوضـ.

لم يـشـهدـ التـارـيخـ حـادـثـاـ مـاـثـلاـ لـهـذـاـ الحـادـثـ الـخـطـيرـ. لـأـنـ السـرـعةـ الـعـظـيمـةـ الـتـيـ أـتـمـ بـهـ إـلـاسـلـامـ فـتوـحـاتـهـ كـانـ هـاـ أـبـلـغـ الـأـثـرـ فـيـ حـيـاتـهـ. إذـ أـنـهـ بـعـدـ أـنـ كـانـ عـقـيـدـةـ نـفـرـ مـنـ الـمـتـحـمـسـينـ أـصـبـحـ دـيـانـةـ لـعـدـةـ مـلـاـيـنـ مـنـ النـاسـ. ولـيـتـ شـعـريـ كـيـفـ تـأـقـيـدـ هـؤـلـاءـ الـمـجـاهـدـينـ غـيرـ الـمـدـرـيـنـ أـنـ يـتـصـرـرـوـ عـلـىـ شـعـوبـ تـفـوقـهـمـ مـدـنـيـةـ وـثـرـوـةـ، وـتـزـيدـ عـلـيـهـمـ درـبـةـ وـمـرـاسـاـ لـلـحـرـوبـ، وـكـيـفـ اـسـتـطـاعـوـاـ أـنـ يـبـسـطـوـاـ سـلـطـانـهـمـ عـلـىـ بـلـادـ مـتـسـعـةـ الـأـرـجـاءـ، وـأـنـ يـحـفـظـوـاـ بـفـتوـحـاتـهـمـ هـذـهـ، وـيـوـطـدـوـاـ هـذـاـ الصـرـحـ الـعـظـيمـ الـذـيـ ثـبـتـ أـمـامـ حـرـوبـ شـدـيـدةـ اـسـتـمـرـتـ قـرـونـاـ عـدـيـدةـ. فـلـمـ تـقـوـ عـلـىـ هـدـمـهـ، وـنـقـضـ بـنـيـانـهـ الشـامـخـ الـمـتـينـ، وـكـيـفـ أـمـكـنـ هـذـاـ الـدـيـنـ أـنـ يـوـطـدـ فـيـ نـفـوسـ أـوـلـئـكـ الـمـهـتـدـينـ

الحادي عشر الإيمان أمن الأسس، وكيف تسنى له أن يحتفظ بحيوته العظيمة التي لم تعرف مثلها ديانة أخرى من قبل حتى بعد ثلاثة عشر قرناً خلت بعد حياة مؤسسه.

وبعد فكيف لم ينقطع الإسلام عن الانتشار والذيع في إفريقيا وآسيا رغم حرية الاعتقاد التي يتمتع بها غير المسلمين في البلاد الإسلامية، ورغمًا عن عدم وجود نظام للدعابة الإسلامية. وهو الآن لا يسبقه سيف الفاتحين. بل على النقيض من ذلك. فإن البلاد التي كانت ترفرف فوقها رايه أصبحت ملكة برجال ذي عقائد أخرى، ولم يستطيعوا مع ذلك أن يصرفوا رعاياهم عنه أو يعتقلوه من قلوبهم.

فأية قوة عجيبة تنطوي عليها هذه الديانة. وما هي قوة الإقناع التي تستند إليها. وفي أية عروق للنفس البشرية تجد غذاءها وقولم حياتها.

لقد رفع الإسلام النقاب الذي أسدله الآخرون على الكتب المقدسة ليحولوا دون فهمها، وأنبأ أولئك الذين لا يعرفون من أمر هذه الكتب إلا قراءتها، وشبه الذين لم يفهموا روح التوراة ومراميها، ولم يحسنوا القيام على ذلك بالحمار يحمل أسفاراً.

وليس للمسلمين مجتمع مقدسة، و مجالس (سينودس) خاصة تقرر لهم نصوصاً تكون لهم بثابة أصول للديانة الصحيحة، ولم يعترف الإسلام لكاين من كان من أتباعه بحق الحكم على إيمان أحد من إخوانه في الدين.

وبينما فرضت الأديان الأخرى على أتباعها مجموعة ضخمة من المعتقدات العسيرة الفهم. فإن الإسلام قد تجلت فيه البساطة والنورانية.

وكان ذلك مدعوة لسرعة انتشاره في أيام الفتح الأولى بين الشعوب التي كانت في اضطراب نفساني عميق نظراً لما كان يساور نفوسها من

الشكوك في عقائدها الدينية. وهذا هو نفس السبب في استمرار انتشاره في هذه الأيام بين أبناء الأمم غير المتعلمة في آسيا وإفريقيا. إذ أنه نجح في التغلغل إلى نفوسهم الساذجة، وعقولهم الفطرية.

إن الناس لتلهف على دين يتفق، و حاجاتهم ومصالحهم الدينوية، ولا يكون قاصراً على إرضاء مشاعرهم وإحساساتهم ويريدون أن يكون هذا الدين وسيلة لأمنهم وطمأنيتهم وسعادتهم. وليس هناك من دين توفر فيه هذه المزايا كلها بشكل رائع سوى دين الإسلام. إذ أنه ليس مجرد دين فحسب. بل إن فيه حياة للناس، لأنه يعلمهم كيف يحسنون التفكير والكلام، ويحضهم على فعل الخير وصالح الأعمال. ولذلك سرعان ما شق طريقه إلى القلوب والأفهام.

وسيعود المسلمون مرة ثانية إلى الارتقاء من منهلهم العذب الصافي، وهو القرآن الذي لم تمسسه يد عدو ولا حبيب ولا عاقل ولا جاهل، ولكنه بقي بدون تغيير ولا تبدل في خلال العصور الماضية، كما أوحى الله به إلى رسوله النبي الأمي خاتم الأنبياء والمرسلين.

لورد هدلي

(١)

إنني بإعلان إسلامي لم أحد مطلقاً عما اعتقدته منذ عشرين سنة. إن عدم تسامح التمسكين بالنصرانية كان أكبر سبب في خروجي على جامعاتهم. إن طهارة الإسلام وسهرولته وبعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت هذه الأشياء أكبر ما أثر في نفسي.

إن اعتقاداتي الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيت فيه عدة سنين. إن الدخول في الإسلام يجب أن يكون - كما يقول القرآن - بإراده الإنسان وبرأيه الذاتي.

وأعتقد أنه يوجد ألف من الرجال والنساء الذين يدينون بالإسلام في قلوبهم، ولكن مخالفة الإجماع، وخوف الانتقاد والرغبة في اجتناب كل ضيق أو تغيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم.

ولا ريب أن أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي جاھرت فيه على رؤوس الأشهاد بأنني اخترت الإسلام ديناً لي. وإذا كنت قد ولدت مسيحياً، فهذا لا يحتم عليَّ أن أبقى كذلك طوال حياتي، فعلى المرء أن يبحث عن الدين، الأمثل. وقد بحثت عنه أنا فوجدته ديناً يمتاز على غيره ببساطته وخلوه من كل مغالطة وإبهام، فقررت أن أعتنق هذا الدين الذي ليس فيه أثر للاحتمالات والخيالات التي لا يسع العقل التسليم بها. بل هو الدين الذي يدعو إلى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته.

وإني مسلم منذ خمسين سنة، ولكني لم أعتنق الإسلام رسمياً إلا في نوفمبر ١٩١٣. وذلك لأسباب عائلية. وقد كنت من صغرى أشخاص في أمور كثيرة في الدين المسيحي، وكانت لا أعرف كيف أستطيع أن أؤمن بالالمبدأ المسيحي القائل: إذا كنت لا تؤمن بألوهية المسيح، فلا تنجو من عذاب جهنم الأبدي، وإذا لم تأكل جسد المسيح وشرب دمه فلن تنجو أيضاً.

لذلك كنت في دخيلة نفسي ثائراً على الديانة المسيحية منذ الصغر. وفي عام ١٨٨٣ سافرت إلى الهند. إلى مقاطعة كشمير لمشاريع هندسية، وإنشاء فرق لتعمير تلك الولايات على الطرق الحديثة الفنية. وهناك اجتمعت بصديقى الكولونيل: الذي أهداني نسخة من القرآن الكريم.

وكنت أجده في هذا الكتاب الشريف من بساطة الدين الإسلامي المبني على الفطرة الطبيعية الصادقة التي تدفع الإنسان إلى الخير، وتنهاه عن المنكر، ما يوافق طبيعة نفسي، وبلاشم روحي، وكانت كلما قرأت في ذلك المصحف الشريف اكتشفت بنفسي أنني مسلم دون أن يبشرني أحد

بإِسْلَامٍ، وَدُونَ أَنْ يَدْعُونِي أَحَدٌ إِلَى إِسْلَامٍ. لَذِكْ أَحَبُّ أَنْ يَتَرَكِ
الإِنْسَانُ فِي مَسَأَةِ الْأَدِيَانِ إِلَى نَفْسِهِ لِيَخْتَارُ الدِّينَ الَّذِي يَرِيدُهُ أَوْ يَوْافِقُهُ،
وَأَنَا أَعْتَقُدُ أَنْ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعَ النَّاسِ فِي إِنْجِلِيزْتَرَا هُمْ مُسْلِمُونَ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا
أَوْ يَعْرُفُوا ذَلِكَ.

وَإِذَا سَأَلْتَ أَحَدًا مَا هُوَ دِينُكَ. فَيَقُولُ لَكَ: أَنَا مُسْكِنِي، وَإِذَا قُلْتَ
لَهُ كَلاً، فَأَنْتَ مُسْلِمٌ بِحَسْبِ اعْتِقَادِكَ، يَضْحِكُكَ مِنْكَ قَائِلًا: كَلاً فَإِنَّا عَلَى
دِينِ الْمَسِيحِ.

أَنَا أَؤْمِنُ أَنْ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَأَؤْمِنُ أَنْ مُحَمَّدًا وَمُوسَى وَعِيسَى
أَنْبِيَاءَ اللَّهِ، لَا نَفْرَقُ بَيْنَهُمْ بِحَسْبِ تَعَالَيمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَجَدُ فِي إِسْلَامٍ
دِيَنًا بِسِيَطَةً يَفْهَمُهُ قَلْبِي، وَيَتَفَقَّدُ مَعَهُ عَقْلِي، لَأَنِّي لَا أَسْتَطِعُ أَنْ أَؤْمِنَ بِمَا لَا
يَفْهَمُهُ الْقَلْبُ، وَلَا يَتَفَقَّدُ مَعَهُ الْعَقْلُ. وَقَدْ خَطَرَ لِي أَنْ أَعْلَنَ إِسْلَامِي مِنْذُ
صَغْرِيِّيِّ، وَلَكِنِّي كُنْتُ مُضطَرًّا إِلَى مَرَاعَاةِ عَوَاطِفِ أَنْسَابِيِّ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي
الْعُمُرِ الَّذِينَ كُنْتُ فِي غَيْرِ شَكٍ سَاجِرَحْ عَوَاطِفَهُمْ، وَأَكْسَرَ قُلُوبِهِمْ إِذَا
أَعْلَنْتُ أَنِّي خَرَجْتُ عَنْ دِيَنِهِمُ الَّذِي يَعْتَقُونَهُ، وَيَعْتَقُدُونَ أَنَّهُ لَا خَلاصَ لِمَنْ
لَا يُؤْمِنُ بِهِ.

وَلَكِنْ فِي السَّنَوَاتِ الْأُخِيرَةِ قَبْلَ الْحَرْبِ مَاتَ جَمِيعُ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي السَّنَنِ
مِنْ أَقْرَبَائِيِّ، وَفِي ذَلِكَ الْحِينَ تَعْرَفْتُ بِصَدِيقِيِّ خَوْجَةَ كَمَالِ الدِّينِ، فَكَنَا
نَتَحْدِثُ وَنَتَبَاحِثُ كَثِيرًا فِي أُمُورِ الدِّينِ إِسْلَامِيِّ. وَلَا أَنْكِرُ أَنَّ لَهُ الْفَضْلُ
الْأَكْبَرُ فِي مَسَاعِيِّي وَإِرْشَادِيِّ لِإِعْلَانِيِّ الْانْضِمامَ إِلَى حَظِيرَةِ الدِّينِ
إِسْلَامِيِّ.

وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ دَائِمًا بِمَا كُنْتُ أَقْرَأُ عَنْ أَبْطَالِ إِسْلَامٍ، وَعَنْ
أُولَئِكَ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْعَرَاءِ حَفَاظَتِ الْأَقْدَامُ، فَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَكُونُوا
أَعْظَمَ قَوَادَ الْعَالَمِ وَأَعْدَلَ قَضَاءَ الْأَرْضِ، وَأَشَهَرَ الْمُشَرِّعِينَ عَلَى الْاَطْلَاقِ،

وإني أفارخ بديني الجديد، وأشكر الله عليه، فهو دين بسيط جدًا، مفهوم تماماً، أعرفه كما هو، وأعيش بموجبه مسترشداً بما يوحيه إلى ضميري ووجوداني.

(٢)

عندما كنت أقضي - أنا نفسي - الزمن الطويل من حيافي الأولى في جو المسيحية. كنتأشعر دائمًا أن الدين الإسلامي به الحسنى والسهولة، وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت، وثبتني في هذا الاعتقاد زيارتي للشرق التي أعقبت ذلك، ودراستي للقرآن المجيد.

كثير من الكتابات المسيحية تربط عزم المجد وراء الحقيقة. بإصرارها على إنكار حق الإنسان في أن يتمتع سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة، وجميع الملذات الدنيوية العظيمة تقريباً. قيل عنها أنها ذنوب وأثام. والحقيقة أن ضد ذلك هو الذي يجب أن يكون ذنوباً وأثاماً.

والغيب مغطى بظلمة الغموض، ولكن بدلاً من أن تستوضح الألغاز عقدت لنا عقائد الكنائس الأحوال تعقیداً عظيماً، وساعدت على غلق الطريق أمام الإيمان والاعتقاد الواضح المعقول.

ولكن روح الإسلام الحقيقي تمكن الناس من أن يتصلوا بخالقهم بدون واسطة أو تدخل. ينظر في هذا العصر للديانة كأنها شيء مزعج، والناس إما ملحدين أو متبعون إتباعاً أعمى لصنوف عقائد من الأفكار التي لا تقبلها عقولهم، وتعاديها. إلا أنهم يعترفون بها ظاهراً، لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم، وأنه يؤدي المطلوب.

إذا كان يمكننا أن نجد فكرًا قوياً «خالياً من العقد» لكي ينتخب لنا الدين الحق الذي يجب أن تتبعه تكون تلك خطوة عظيمة جدًا نحو الاتجاه

المطلوب. إننا إذا ذهبنا إلى القسّيس والرهبان لا نجد لديهم أي مساعدة. لأن المذاهب المتعددة تناقض بعضها على حد مستقيم.

إنني أعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه لو اتبعت الشريعة المحمدية التي أنت في القرآن الكريم بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جداً حكم الشعب. وقد مر العصر الذي كان يمكن أن يجتهد فيه لإقامة أي دين بقوّة الأسلحة، وإنني متأكد من أن المسلمين - أولئك القوم التشعّبون بالإخلاص والوفاء - ما حاولوا قط أن يقيموا الدين الإسلامي بالطرق العنيفة.

وإنني متأكد أنه إذا فهم رجال إنكلترا المعنى الحقيقي للإسلام، لسعوا في أن يخفوا سوء فهمهم المخجل في الوقت الحاضر.

ينظر الأوروبيون دائمًا إلى الإسلام كأنه وحشية وهمجية، فلو علموا كل ما فعله محمد لإزالة التوحش والهمجية التي لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالاً. إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخلوا وسعاً في تحريف الديانة الإسلامية. وإن هذا لأعظم الكذب الذي يخزّيهم.

ما أعظم الفرق بين الطمس التعمدي للحقيقة، وبين الحالة التي يسير عليها البشر المسلم في عمله. وليس هناك أي فضيلة دينية من الفضائل المحمدية تطلب أي سلطة دينية. إذ عظمة الإسلام أرفع من أن تسيطر عليها مثل هذه الاعتبارات الدينية، وكل متبع اتباعاً حقيقياً للنبي العظيم يتطلع إلى جزء أرقى بكثير من الغنى، والفوائد الدنيوية كرفي ضوء الشمس عن ضوء الفسفور.

ليس هناك باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسّيس يطلبون هبات أو أرباحاً. لأن الله نفسه هو «رأس» هاتيك الفضائل الروحية.

أنبأنا التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائمًا أن يكون لها سلطة

دنيوية، ويكتننا أن نشير إلى بيع المغفرة، وتوزيع المعاشات الدسمة، كي نبين فطاعة الأحوال. إن معظم ديانة الغرب ما هي في الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى، وبقايا العصور المظلمة، ولا تتفق مع تعاليم موسى وال المسيح.

فمجيء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريباً كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار: كالتفكير والتوسط الكهنوتي والتسلل إلى القديسين.

مما كانت عظمة الشرائع الموسوية، ومما كانت طرافة ورقة مبادئ نبي الناصرة (عيسى عليه السلام) يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التي احتوت على الرسالة السامية تتغلب بتذليلها كل العقبات التي تقف في سبيل السالك إلى الله.

هناك آيات في القرآن الكريم لا تترك شكّاً في معناها، وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون في دائرة السيادة الكهنوتية. ﴿ اتخذوا أخبارهم وربهما هم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾.

إن ديانة المسيح ليست تماماً ديانة سانت بولس الذي أضاف إليها وغيرها تغييراً كبيراً. وليس هناك تنامق في تلك التعاليم، ولكننا نجد في الإسلام ما يكفي.

ليس في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه أمم الجميع وفوق الجميع. وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، إنه لو أصبح كل فرد في الامبراطورية الإنجليزية محمدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك. لأن الناس سيقادون بدین حقيقي، ولن نبقى ضرائب ثقيلة تدفع للمرور في الطريق الموصل إلى الفردوس.

منذ عدة سنين خلت، كان أحد أفکاري الرئيسية، هو كيف يمكن الإسلام أن يصبح غربياً حتى تمارسه الأمم الأوروبية، أو كيف يمكننا نحن

معشر الغربيين أن نعد أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الإسلام الحقيقي.

إن القرآن يضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية التعاليم الماضية في الإنجيل، وبباقي الكتب المترلة، وفوق ذلك فهو يحرم كل نكبات العبادة - الوثنية (**).

روح الشكر هي خلاصة الدين الإسلامي والابتهاج أصل في طلب الإرشاد من الله. وإن كان شكري الله كان متأصلاً فيَ منذ حدائي، إلا أنني لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التي قرعت فيها الإسلام لبيّ حقاً. وتملك رشدي، وأقعني نقاوه، وأصبح حقيقة راسخة في عقلي ورؤادي. إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل. ونجوت من العقائد الغربية المتعلقة بسائر فروع الكنيسة.. واستنشقت تلك النجاة، كما أستنشق هواء البحر الخالص النقى.

وبتحقيقى من سلامه وضياء وعظمة الإسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار (***) .

دمр التعصب الديني الأعمى الكنائس في تنافسها إلا أن ذلك لا يمكن أن يقال عن الإسلام الذي هو كتلة متحدة. والكنائس يناقض إحداها الأخرى، ومعلمون لا هوتها (كهنتها) وضعوا عقد التعاليم التي لا تحمل والقلوب المبصرة تتوقف إلى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد. وإن أعترف أن زيارتي للشرق ملأتني احتراماً للدين المحمدي السلس الذي يمحض الإنسان بعين الله حقيقة طوال مدة الحياة لا في أيام الأحاد فقط (****).

هنري دي كاستري

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحاري في ولاية حوران بن زرقوم، وسجين. وخلفي ثلاثة فارساً كريماً من أولاد يعقوب يশون جماعات،

(*) المنار: ج ٧ م ٢٤ (أكتوبر ١٩٢٢).

(**) المنار ديسمبر ١٩١٣.

(***) المنار: ج ٥ م ٢٩.

جماعات لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها. و كنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر، والفصل فصل الشتاء، ويومنا يوم جمیل تستوطن الأبدان حرارته، ويبلغ ضوؤه حد البهاء، وروائحه تنعش السالكين، و يجعل المستنشق شاعراً بتمام الحياة، يخالجني مع ذلك إحساس آخر، هو: شغفي بتلك المدوحة التي كان اسمها يروح ويعدو في أقوال أولئك الشجعان، وبينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلاً بصوت خشن. «سيدي الآن وقت العصر». هنالك ترجلت الفرسان، واصطفوا لصلة العصر مع الجماعة. أما أنا فقد ابتعدت عنهم، و كنت أود أن انشقت الأرض فابتلعني، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تتشي وتتنفرج بحركات المصلين، وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع: «الله أكبر، الله أكبر» فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذأً لم يوجده فيه درس الموحدين، ومطالعة كتب المتكلمين، و كنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه سبيه الحياة والانفعال. أحس أن أولئك الفرسان الذين كانوا يتذلون أمامي قبل هذه اللحظة يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقاماً، وأعز نفساً. فما أجمل منظر أولئك القوم في نظامهم لصلاتهم بملابسهم، وجيادهم بجانبهم إرサئها على الأرض، وهي هادئة كأنها خاشعة للصلاة. تلك هي الخيل التي كان يحبها النبي ﷺ جبًّا ذهب به إلى أنه كان يمسح خياتيمها بطرف إزاره، عملاً بوصية جبريل.

وكنت أرى نفسي وحيداً في عرض هذه الصحراء على ما أنا به من اللباس العسكري الضيق في مكان هو مسقط رأس الديانات. كأنني من الحجر أو من الكلاب أمام أولئك القوم الذين يكررون لربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقاً وإيماناً.

* * *

ولما رجعت إلى مكان راحتني جعلت أكتب ما علق بذهني من

الأفكار. فأحسست أنني منجذب بحلوة الإسلام، كأنها أول مرة شاهدت في الصحراء قوماً يعبدون خالق الأكونان.

و كنت في سنٍ يستسهل العقل فيه حل المشكلات، و يأخذ الأشياء من ظواهرها، و يحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب، و يعتقد المرء في الأمور بغير قيد، وهو سنٌّ لو أنصف أهله لما كتبوا وألفوا، و كنت أرى أن جمال الدين أصدق شاهد على أنه الدين الحق، و صررت أكتب عن الإسلام غير شاعر بما ينطه القلم طوع الفؤاد.

والحق أن الإسلام ما دخل بلدًا إلا صار ذا المقام الأول بين الديانات، من غير أن يتعرض لمحوها. وعلى هذا يتحقق أن الإسلام لم ينتشر بالقوة والعنف. بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين، ولین جانبهم كان سبباً في سقوط المملكة العربية. ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الإسلام، حتى بلغ نهر اللوار في فرنسا، ويتساءلون ما الذي كان يصير إليه حال أوروبا. لو لم يقف (كارلوس مارتل) في وجه المسلمين في سهول (بواتيه) ونحن نرى أن هذا السؤال موضوع وضعياً مقلوباً. والأولى أن يقال: ماذا كان يصير إليه حال أوروبا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين. لأن انكسارهم في بواتيه ليس سبباً كبيراً يكفي لأن يعوق الإسلام عن الانتشار^(۱).

ليوبولد فايس

في عام ۱۹۲۲ تركت النمسا بلادي لأنجحول في إفريقيا وآسيا بصفتي مراسلاً لبعض أمهات الصحف الأوروبية. ومنذ ذلك الحين قضيت كل أوقاتي تقريباً في الشرق الإسلامي.

(۱) من كتابه: «الإسلام خواطر وسوانح» ترجمة فتحي زغلول.

ولقد كان اهتمامي بالشعوب التي احتككت بها في أول أمري اهتمام رجل غريب. لقد رأيت نظاماً اجتماعياً، ونظرة إلى الحياة تختلف أساسياً عما هو الحال في أوروبا.

ومنذ البداية الأولى نشأ في نفسي ميل إلى إدراك للحياة أكثر هدوءاً - أو إذا شئت - أكثر إنسانية. إذا قيست بطريقة الحياة الآلية العجل في أوروبا، ثم قادني هذا الميل إلى النظر في أسباب هذا الاختلاف.

وهكذا أصبحت شديد الاهتمام بتعاليم الإسلام الدينية، إلا أن هذا الميل لم يكن، في الزمن الذي نتكلم فيه، كافياً لجذبي إلى حظيرة الإسلام، ولكنه كان كافياً. لأن يعرض أمامي رأياً جديداً في إمكان تنظيم الحياة الإنسانية مع أقل قدر ممكن من النزاع الداخلي، وأكبر قدر ممكن من الشعور الأخوي الحقيقي.

إن الحياة الإسلامية في الواقع تظهر، على كل حال، في أيامنا الحاضرة، بعيدة جداً عن الإمكانيات المثل التي تقدمها التعاليم الدينية في الإسلام، فإن كل ما كان في الإسلام تقدماً وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراثياً وركوداً.

لقد تخيلت نفسي واحداً من الذين يضمهم الإسلام. على أن ذلك كان تجربة عقلية بحثة، ولكنه كشف لي في وقت قصير عن الحل الصحيح. لقد تحققت أن ثمة سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، ذلك السبب يرجع إلى أن المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً يتربكون اتباع روح التعاليم الإسلامية. لقد ظل الإسلام بعد ذلك موجوداً. ولكن جسداً بلا روح، وكلما ازدادت فهماً لتعاليم الإسلام من ناحيتها الذاتية، ازدادت - رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها. لقد ناقشت هذه - المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البارمير (في الهند) ومن البوسفور

إلى بحر العرب، فأصبح ذلك تقريراً شجني في نفسي طغى في النهاية على سائر أوجه اهتمامي الثقافية بالعالم الإسلامي، ثم زادت رغبتي في ذلك شدة - حتى أني وأنا غير المسلم - أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقاً على الإسلام من إهمال المسلمين وترانحهم، لم يكن هذا التطور بينما في نفسي، إلى أن كان ذات يوم - وذلك في خريف عام ١٩٢٥ - وأنا يومذاك في جبال الأفغان. فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله: «ولكنك مسلم غير أنك لا تعرف ذلك في نفسك». لقد أثرت في هذه الكلمات. غير أني بقيت صامتاً. ولما عدت إلى أوروبا مرة ثانية في عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة الوحيدة مليئة هذا أن اعتنق الإسلام.

لماذا اعتنقت الإسلام؟

يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جواباً شافياً، لم يكن الذي جذبني تعليناً خاصاً من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب، والمتراحمي بما لا تستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الخلقية بالإضافة إلى منهاج الحياة العملية. لا أستطيع اليوم أن أقول: أي النواحي قد استهواني أكثر من غيره. فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة، وكل أجزائه قد صيغت ليتم بعضها بعضاً، ويشد بعضها بعضاً، فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص في شيء، فتنج عن ذلك كل ائتلاف متزن مرصوص. ولعل هذا الشعور من أن جميع ما أتي به الإسلام من تعاليم وفرائض «قد وضعت مواضعها» هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي. لقد هبط على الإسلام كاللص الذي يهبط المتزل في جوف الليل. ولكنه لا يشبه اللص لأنه هبط على ليقى إلى الأبد. ومن ذلك الحين سعيت إلى أن أتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه، لقد درست القرآن الكريم، وحديث الرسول. ولقد درست لغة الإسلام، وتاريخ الإسلام، وكثيراً ما كتب عنه، أو كتب في الرد عليه، قضيت أكثر من خمس سنوات في الحجاز ونجد.

وأكثر من ذلك في المدينة ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة إليه فيها.

وبما أن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار. فقد تمكن من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الإسلامي في أيامنا. هذه الدراسات والمقارنات خلقت في العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهاته الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخر المسلمين أعظم قوة نهضة بأهم عرفة البشر. وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد^(١).

نشكتنابا دهيبا^(٢)

كنت كثير الاعجاب بمذهب العقلين، ولكني لم ألبث أن تحولت عنه، لأن هذا المذهب لم يرو لي غليلاً، فأخذت في درس الدين البوذى، وأعجبت بظاهر رفعته الخلقية، وعندما تعلمت الفرنسيية أعجبت بربان. وكان من تأثير ذلك أنني أخذت في دراسة لغات الساميين وأديانهم، وكرست قسماً عظيماً من حياتي لدرس المقابلة بين الأديان العظيمة أعني اليهودية والزرادشتية والبرهمية من الجهة الواحدة والبوذية والنصرانية والإسلام من الجهة الأخرى. ووقف دون تنصري مسألتان: الفداء، والملائكة الأبدى يضاف إليهما في الكاثوليكية اعتقاد العصمة البابوية.

ولما عدت إلى البلاد الهندية، في هذه الحال من تبليل الفكر، فرغت نفسي لدرس الرياضة (التصوف). وعدت منها غير مقنع، ولم أعط البوذية والإسلام حقهما من الدرس، حتى ذلك الحين، فدرست الأولى

(١) من مقدمة كتابه «الإسلام على مفترق الطرق».

(٢) نشكتنابا دهيبا: القاضي بكلية حيدر أباد، وأستاذ التاريخ في كلية مهراجا في ميسوري.

منها. ثم استمالني الإسلام أخيراً، وأثر في نفسي باقياً. وكنت قد شعرت بصحبته، وبصحبته منذ مدة طويلة، ولكن الظروف الخارجية منعتي من التصرير بذلك حتى ٢٨ أغسطس حين صرحت في مدخل بدخولي الإسلام برسالتي. «لماذا انتقلت الإسلام».

وقد بنيت رضائي بالإسلام على ثلاثة أسباب:

أولاً: صحة أخبار الإسلام، وأنه الدين التاريخي الوحيد.

ثانياً: موافقته للعقل.

ثالثاً: أنه عملي لا خيالي.

وعندي أن ميدانه التاريخي قد أثر حتى في أعداء محمد وأتباعه، فضلاً عن جريه على قواعد العقل على أساس قاعدتين: توحيد الله، ورسالة محمد، وأنه يجب على كل صحيح عاقل أن ينقاد لهذه الحقيقة البسيطة الجليلة. وهي توحيد الله الخالص، ولا يوجد في الإسلام ثلاثة في واحد، ولا ثلائون مليوناً من الآلهة^(١).

قسطنطين ملحم^(١)

ليس اعتنافي للإسلام مداعاة للاستغراب، ولا موضعًا للظن، والريب، فإنه هو بحسب اعتقادي، ليس إلا تطوراً طبيعياً يؤدي إليه التعمق في درس الأديان المسلط عليه اليوم على عقول البشر. اللهم إلا إذا كان عقل الدارس غير مقيد بقيود غليظ يربطه بأحد الأديان ربطاً محكماً، لا يستطيع الإفلات منه.

إن المذهب البروتستنти هو أقرب المذاهب المسيحية إلى الدين

(١) المثار م ٨ - ١٩٠٥ (ص ١٩٤).

(٢) المثار: م ٢٨ ص ٧٠٥ (بتصرف).

المسيحي - الحقيقى . غير أنه يعاب في نظري لإقراره بـالـلوـهـيـةـ المـسـيـحـ، وـأـنـاـ معـ اـعـتـارـيـ السـيـدـ المـسـيـحـ منـ فـضـلـاءـ المـصـلـحـينـ، وـالـأـنـبـيـاءـ، وـفـيـ اـعـتـارـيـ أنـ النـبـوـةـ وـحـيـ إـلـهـيـ لـاـ أـقـرـ لـهـ بـالـلـوـهـيـةـ، وـلـنـ أـعـبـدـ قـطـ رـجـلـاـ مـثـلـيـ مـنـ دـمـ وـلـحـمـ.

هذه العقيدة راسخة فيي منذ بلغت رشدي . وقد جاهرت بها عندئذٍ بين أهلي وأقاربي ، وكل من شافهني في هذا الموضوع منذ سنين طويلة ، فتطوري إذن ليس حديث العهد ، كما يتوهם بعض عارفي ، بل هو نتيجة افتتاح راسخ مستحوذ لا علىّ فقط . بل على السواد الأعظم من المسيحيين المتعلمين .

أما ميلي إلى الإسلام ، فليس حديث النساء أيضًا . والذين أطلعوا على كتاباتي في جريديتي (أداليد) ومحلتي (لابلابرابورتانيا) فمنذ خمس سنوات بدأت بالموافقة جهراً على الإسلام بقلمي ولساني ، بعد أن كنت أدافع عنه سراً بلساني فقط .

غير أن ميلي المذكور لم يصل بي إلى حد التدين نهائياً بالدين الذي آلية على نفسي الدفاع عنه ، وما ذلك إلا لأنني كنت لم أزل أجهل عنه الشيء الكثير . فعندما عولت على وضع كتابي «شرائع الإسلام» رغبة مني في دحض افتراءات المفترئين على الشريعة السمحاء ،رأيتني مضطراً لمراجعة مصنفات الأئمة الأعلام ، ومطالعة أكثر من واحد من كتب الدين ، فاتضح لي عندئذٍ بجلاء جمال هذا الدين السامي ، وفضل المصلح العظيم (محمد بن عبد الله) على الإنسانية جماء فصممت حينئذٍ على اتخاذ الإسلام دون باقي الأديان ديناً أتدرين به عام ١٩٢٤ .

بيد أنه لحدري من سوء ظن الذين لا يتصورون أن المرء قد يعشق الجمال مجرد الجمال ، بل لما يتضمن من لذة مادية وحشية . قلت لهم إني

لهذه الأسباب تركت إسلامي على الخفاء إلى أن جاء زمن إعلانه، ولم يبق في وسعي السكوت، فأنا منذ ثلاث سنوات مسلم بكل ما في الإسلام من مبادئ سامية، وأفكار راقية وروح تعاوض وحب خير، وابتعاد عن المنكر.

والذي يزيدني تمسكاً به ما وجدته فيه من الحض على العلم والعرفان، ومطابقته روح المدنية الحقيقة. فالإسلام دين علم وعمل، وهو دين إيجابي يعكس غيره الذي هو سلبي، يأمر بإنكار الذات على الابتعاد عن كل ما في الدنيا من رزق ومتاع. أما الدين الإسلامي فيمكنا العمل بأوامره تماماً دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم، وما فيه من لذة.

إن سنة النشوء والارتقاء، تقضي ببقاء الأصلح. فمن ترك أمراً صالحاً للتمسك بما هو أصلح منه، أو بما يعتقد أنه أصلح منه، كان عاملاً بأوامر تلك السنة الأزلية التي لا مرد لأحكامها.

هاري هيinkel^(١)

اخترت الديانة المسيحية في بدء حياتي بحكم الوراثة، كما كان يعتقد أهلي وأقاربي، وليس بمحض إرادتي، غير أن عقيدتي في الدين تكونت نتيجة لبحث وتحليل عميق.

قرأت الكتاب المقدس عدة مرات، وأنا أشك كثيراً، إذا كان هناك شخص قرأ الإنجيل، ولم يتأثر هول الأخبار والأقصيص المسطرة بين صفحاته.

والحقيقة أن الإنسان بعد قراءته للإنجيل لا يسعه إلا أن يندهش لطبيعة الإله المسيحي، من المفروض على كل مسيحي أن يقتني الكتاب المقدس. ليس كتاب ديني تحب قراءته. بل كقطعة نفيسة يزين بها بيته.

(١) مجلة الشهاب الجزائرية مجلد ١٩٣١ عن مجلة (اسلاميك ريفيو).

قال شارلس فرانسيز: في كتاب «قصة الدين» إن الإنجيل كتاب لا يعرفه أحد في أمريكا. أما «القرآن» فهو كتاب يعرفه كل مسلم. لقد كان الإنجيل السبب الرئيسي في خروجي من حظيرة الديانة المسيحية. وبعد خروجي أخذت في قراءة الديانات الأخرى. فكانت التسليمة كفري وإنحادي، ومع هذا فقد تأصلت في نفسي غريزة كانت تدفعني للسؤال جرياً وراء حقيقة واحدة هي: إثبات وجود الخالق لهذا العالم.

ولكن ليس الإله الذي يجدد سفك الدماء، ومن نتيجة هذه الدراسة وجدت في نفسي ميلاً للإسلام، لأنه دين العقل والتسامح، وهو خالٍ من كل شائبة.

ووجدت الإسلام يشجع على متابعة الحقيقة. إن صحائف التاريخ مملوءة بالحقائق التي ثبتت عرقلة الأديان الأخرى. للمدنية والعمان. وقال يوسف وكاب أحد الموحدين: من الصعب جداً وجود علم غير مدين بفضله للإسلام، ولا أتردد لحظة في القول ثانية بأنه لو كان الإسلام منتشرًا في الغرب أكثر من انتشاره اليوم لأدهش العالم المتmodern بكثرة أنصاره. ويرجع السبب في عدم انتشاره إلى تشويه الحقائق التي يعتمدها البعض من يتصدون لترجمة الكتب الإسلامية إلى اللغات الأخرى⁽¹⁾.

الدكتور خالد شلدريك

إنني اتخذت الإسلام ديناً بعد بحث وتنقيب، لم أتلق هذا الدين في أول الأمر من كتبه، ولكني تلقيته من كتابات الطاعنين عليه، ولدت من أبوين بريطانيين تابعين للكنيسة الإنجيلكانية، كان والدي يتمنى أن يراني

(1) مجلة إسلاميك ريفيو.

قسيساً من رجال هذه الكنيسة، لذلك كان يسره أن أطالع كتب الدين.

إن إنجلترا وإن تكون مسيحية في الظاهر. فإن (٩٠ في المائة) من سكانها لا يعرفونحقيقة الديانة المسيحية، فالديانة المسيحية مؤسسة على اعتقاد أن الله مكون من ثلاثة شخصيات. وهي عقيدة لا يستسيغها عقل ويقولون إن المسيح ولد في ٢٥ ديسمبر. وهذا التاريخ ليس له سند معاصر للمسيح، أو قريب منه، وإنما حده أحد الباباوات من غير اعتماد على أصل تاريخي. فالعلم بقواعدة التي نعرفها لا يستطيع أن يثبت أن يوم ٢٥ ديسمبر هو يوم ميلاد المسيح.

وعقيدة الأب والابن نفسها من عقائد الوثنين القدماء. فإن البوذيين يصوروون بوذا في طفولته مع أمها (باما) نفس الصورة التي نراها منقوشة في كل كنيسة.. لل المسيح في طفولته مع أمها مريم اتخذ المسيحيون من الوثنين للاعتدال الريبيعي (٢٥) ديسمبر موعداً لولادة الشمس عيداً لميلاد المسيح.

وفي الحقيقة أن الشخصية التي يدعى بها المسيحيون للمسيح ليست تاريخية قطعاً، والباحث عن ذلك بالأساليب العلمية ليرى مبلغ ذلك من الواقع يخرج من بحثه صفر الدين.

والاختلاف بين المسيحيين شديد جداً في أصول المسيحية، وفي تكوين العقيدة عن المسيح، وقد حلني هذا على البحث والتأمل، ودرس الديانات الأخرى.

درست البوذية والبرهمية، وسائر الأديان. وفي دور الكتب العامة بإنجلترا بحثت عن كل دين ما عدا الإسلام. فإن الكتب التي ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن. والفرض الظاهري.

وزعموا أن الإسلام ليس ديناً مستقلاً. ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين. وقد تسائلت في نفسي إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا

الحمد، فلماذا هم يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه، ومقاومته وتوجيهه المطاعن إليه.

ولقد مضى على دخولي الإسلام خمسة وثلاثون عاماً. وأنا الآن أشد تمسكاً به، وعلماً بمحاسنه عما كنت في ذلك الحين.

وليس عندي ريب في أن الإسلام سيكون يوماً ما الدين الذي يسود العالم أجمع، وهذا يتوقف على سبب جوهري. هو: أن يكون المسلمين مثلاً حسناً يعلن عن الإسلام، ويعرف الأمم به عملياً.

ولما شرعت أدرس عقائد الإسلام بعد أن انتهيت من الوقوف على الحقائق السالفة الذكر، وجدت جميع عقائده مقبولة عقلاً. فعقيدة التوحيد الخالص التي امتاز بها الإسلام هي أصح العقائد التي عرفها البشر، وهي كاملة في توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وإعلان صفات الكمال لباريء الكون، والاعتراف بجميع أنبياء الله ورسله، ويزعمون في أوروبا أن الإسلام انتشر بالسيف وهي فرية، يعلمون هم بأنفسهم أنها كاذبة وغير معقولة، لأنها تخالف وقائع التاريخ، كما تخالف حقائق الإسلام. ولو انتشر الإسلام بالسيف كما زعموا لما بقيت هذه الكنائس والبطريكيات، والأوضاع غير الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي، والمسلسلة من أقوى أزمانه إلى الآن.

وتسليط السيوف على العقائد هو من شأنهم بدليل ما فعلوه في الأندلس مما دونته بطون التاريخ، ووقفوا به أنفسهم أبداً الأبدين. وعلى كل حال فإذا كان هناك دين انتشر بالسيف، فليس هو الإسلام. بل غيره. إني كلما ازدلت علمًا بالإسلام ازدلت إجلالاً له، وتمسكاً به، ولا أدعني أنني درست الديانات كلها، ولكني بلا شك وقفت منها على ما فيه مقنع لملئي.

إitan دينيه

وصية الله عشر المسلمين أن لا نعتدي، أما أهل السوء من لا ينفكون يهاجروننا بالأباطيل ويحاربوننا بالمفتريات. فليس علينا جناح إذا ما أورينا لهم من نوع سلاحهم، ودفعنا عن بيضة الإسلام بهتائهم. وإذا نحن شئنا أن نخصي أكاذيبهم علينا كانت منها صفحة هي من أسود الصفحات خزيًّا في سجل التعصب. بل وجدناها مجموعة كبيرة تلك المثالب التي قام بها أعداء الإسلام، سواء كانوا من علمائهم أو روادهم أو قساوستهم أو رجال حكوماتهم أو كتابهم أمثال: بيرون، وبلجراف، وجلاستون، ومرجليوت، وقسيس كاتربرى، والأب ولوي براتران. ومن كبار المطاعن التي يوجهها علماء النصرانية للإسلام نكرانهم عليه الابتكار والإيتان بالجديد، والإبداع بما هو خاص به. على أننا لا يدهشنا أن نسمعها من المتعتدين، وإنما يدهشنا أن يصدقها النفر الذين يحسنون الظن بديننا. أنهم ينظرون إلى سان لوبي (القديس لويس) كأنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجة، غير أن الوثائق التاريخية تثبت بوضوح وسهولة أن خصمه صلاح الدين الأيوبي كان أرفع منه قدرًا في الحضارة وفي الشجاعة وفي معاملة الخصوم، وهم يفخرون بالعالم باستور الفرنسي، و يجعلونه درة في تاج الحضارة الحديثة، ولكن فاتهم أن (جابراً) و(الرازي) لا يقلان عنه في مرتبة العلماء والمفكرين، وهذا المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه عن طريق التقدير، ومن حض التريريك وحض الكبريتيك.

واليس المسيحية وإن ظهر أنها تحكم العالم في وقتنا الحاضر، فليس ذلك مرجعه إلى تعاليمها دون غيرها، بل إن مرجع ذلك إلى ما تستفيده من القوة المادية التي أوجدتها المستكشفات التي قام بها العلماء الغربيون. بل أن منهم من حاربهم المسيحية واضطهدتهم. خذ مثلاً (جاليلو) الفلكي

الإيطالي، واتين دوليه الكاتب الفرنسي وغيرهما من ذهبوا ضحية التعصب الذميم.

إن الشخصية التي حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة، وكانت ذات أثر عظيم جدًا حتى أنها طبعت شريعته بطبع قوي جعل لها روح الإبداع، وأعطتها صفة الشيء الجديد.

إن للإسلام عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادئ السامية التي تقوم على تلك العقيدة. والإسلام هو الدين الوحدid الذي لم يتخذ من الإله شكلاً بشرياً. أو ما إلى ذلك من الأشكال. أما في المسيحية، فإن لفظ الله تحبيطه تلك الصورة الأدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال. وكذلك يaho (Jehorah) الذين يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي، فهم يجعلونه في مثل هذه المظاهر المتهالكة، وكذلك نراه في متحف الفاتيكان. وفي نسخ الأنجليل المصورة القديمة.

أما (الله) في دين الإسلام الذي حدث عنه القرآن، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن يجري به ريشته. أو ينحته أزميل ذلك بأن (الله) لم يخلق الخلق على صورته، وتعالى الله سبحانه، فلم تكن له صورة ولا حدود مخصوصة، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد. الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وللإسلام على النفوس طابع لا يمحى حتى أن الكونت دي كاستري - وهو مسيحي متغصّب - أيقن بهذه الحقيقة. وقال تلك الكلمة الكبيرة في كتابه الإسلام. صفحة ٢٨ (إن الإسلام هو الدين الوحدid الذي ليس فيه مرتدون).

أما أن الله سبحانه وتعالى قد «أوحى» الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة

قومه. فالذى لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر، ولم يعد له أثر، أو أنه قد أبيد.

ولهذا قد جعلوا مكانه (توليفات) أربع مشكوك في صحتها وفي نسبتها التاريخية. كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية هي لغة سامية. لذلك كانت صلة السماء بهذه الأنجليل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود وقرآن العرب.

ثم الأنجليل ألم يدخل عليها التتفيق والتهذيب في كثير من الموضع التي لم تعرف بعد، ولم أغفل رجال الأنجليل ثلاثين عاماً من حياة المسيح دون أن يذكروا لنا عنه شيئاً إلا ما اختص منها بالسنين الثلاث الأخيرة. وأمر آخر فات رجال الأنجليل ذلك أنه مع عظيم خطر هذه الثلثة في سني حياة المسيح. فإن الأنجليل لم ينلها التتفيق الواجب الدال على المهارة والذكاء. ذلك لأن واضعيها، وهم قليلو الخبرة بعلم النفس لم يدركوا أن ما يصح ذكره على لسان (نبي) لا يصح أن يقال على لسان (ابن الله).

سلطانة جahan مهوبال

خطابها إلى دي سبلنكورث (نازرة مدرسة البنات العليا بالله أباد)^(١) أن جميع الاعتبارات الشخصية التي أشارت إليها الآنسة ريتشارد سون فيما يخص مركز المرأة في الإسلام لم تكن قائمة على معرفة الدين الإسلامي وعالمه. المعرفة الحقة، فقد بدا لها أن الإسلام ينشئ ويحفظ بطبيعته للمرأة المسلمة انحطاطاً نسبياً أكثر مما ورد في أي عالم ديني آخر.

(١) ترجمة عبد العزيز جاويش: جريدة الأخبار ٣ أكتوبر ١٩٢٣ (عن المجلة الإسلامية عدد يناير سنة ١٩٢٣).

وأنها لا تعجب حينذاك إذا رأت بين المسلمات الكثيرات من الغاشيات، وربات المكر والخيانة. غير أنني أعتقد في هذا الحكم على كثير من المسلمات إجحافاً بحقوقهن، وباعتباري مسلمة، ولي إمام بأركان ديني وعقيدي أعرف أن الإسلام لم يصدر لائحة ولا قانوناً ولا عقداً يقضى بأن يكون مركز الجنس اللطيف منحطاً على أي وجه من الوجوه. بل على تقىض ذلك. فقد منح الإسلام للمرأة مركزاً عادلاً حسناً. يمكن أن تحصل عليه بمحض إرادتها في أي وقت شاءت. فضلاً عن أنه لم يتخل المرأة من أعمق هاوية الانحطاط التي كانت غارقة فيها في الجاهلية فحسب، بل منحها مركزاً شرعياً محدداً، لا يمكن لأي دين آخر أن يوجد نظيراً له، فقد منع النبي ﷺ الجور الذي كانت تلقاه النساء قبل بعثه، كما أمر أتباعه من المؤمنين باحترام الجنس اللطيف. ولقد فرضت تعاليم النبي ﷺ المساواة بين الجنسين، وإنني أقول دون أن أحشى في ذلك لوم المعارضين أن الإسلام قد وضع أقوم الطرق لتنقيف المرأة عقلياً وعلمياً، وأمر بإياكبار المرأة الفائق واحترامها الزائد، وحبتا لو تعلم الغريبات اللغة العربية، وأمكنهن دراسة القرآن الدرس الكافي الذي يكفل إزاحة كثير من سوء التفاهم، وأن من يتبع ما سطرته يد الكتاب المسلمين والأوروبيين غير المتحيزين في هذا الموضوع يستتتجح أن الإسلام قد هيأ للمرأة من الحقوق المنشورة ما لم يهيئ لها أي دين آخر. الواقع أن جميع ما وجه ضد ديانتنا من التهم المتدوالة لم ينجم إلا عن الجهل المطلق بأصول تعاليم الرسول الكريم. فإن تاريخ الإسلام مفعم بحوادث يخطئها العد، تتطق بها ووصلت إليه المسلمة من التهذيب، والرقى. الذي كان من عوامل تأثير الدين، وليس ناتجاً عن أي تشجيع أو وازع آخر. كان من بينهن المتضلعات في القوانين وأصوتها والتوحيد والفقه والفنون الجميلة، وقد تركن من ورائهن سجلات ضمت بين دفتيرها من نبيل أعمالهن وبطولهن ما لم نجده في تاريخ أي عالم آخر. كيف لا وقد ارتقين منصات الخطابة، وَفَهْنَ بالخطب

البلغة المؤثرة، وألقين المحاضرات، وطالما لعبن أدواراً مهمة في سياسة بلادهن، وب بدون أن تلنجأ إلى ما ورد في تصريح المقرظين والأتباع. فقد كن بعض كلمات من نصائحهن الفيضة الحالصة، يدرن عنان الإدارة أو يقدن الرأي العام إلى ما فيه خير البلاد. كن في ساحة القتال يمرضن العليل والجريح، ويحرضن الجندي بطرق مشجعة على حمامة بيضة أمتهن، وحفظ كيانها، ولا أخالك تعلمين أنهن كن يحاربن مع الرجال بشجاعة نادرة في كثير من الواقع الحرية.

هذه هي حقيقة الصفات التي اكتسبتها النساء بعد ظهور نبينا بزمن يسir، نبينا الذي لا تعرفه أخواتنا الغربيات تماماً.

نشكرك لمراسلاتك لنا. ولكننا نرجوك في الوقت الذي تجهلين فيه أركان الإسلام أن لا تصفي الأدواء لمعالجة حالة التدهور والخطب الراهنة قبل أن تدرسي آداب ديننا.

هذا وليس في مقدوري أن أعمل أفضل مما لو رجوت من إخواتي الغربيات أن يدرسن «القرآن» الذي هو عmad ديننا. بل سلسلته الفقرية، وأن يدرسن ما جاء به مشهورو كتاب الإسلام.

وبقدر ما تسمح به معلوماتي في شأن الفروسيّة وفنونها. فإن الغرب قد نقلها عن الشرقيين، وليس أدل على مساواة نكـd الطالع، وتعريضه بنا من أن الغربيات لا يزلن ينظرن إلى إخواتهن الشرقيات بعين السخرية. أما المدارس التي قمت بتأسيسها في ماهوـal. فتقوم بعملها خير قيام. وثقـi أنـi أول من يهتم في الهند بأمر رقـi التعليم^(١).

(١) سلطانة ماهـoـal: اسمها تواب سلطان جهـan يـkـm. وهي زوجة العالم الشهـir ثواب صديق حسن خـan صاحب المؤلفات والأبحاث الكثيرة. توفـit ١٩٣٠ - وكانت قد تركت الحكم لابنها (ثواب حـid الله خـan) عام ١٩٢٣. وقد تولـت الملك سنة ١٩٠٠ وزارت أوروبا ومصر سنة ١٩١١.

الدكتور بنوا

إنني طبيب مهنة، وسليل عائلة فرنسية تتسبّب إلى الكاثوليكية. هذا وقد سبقت لي بسبب مهنتي ثقافة علمية متينة، لم يكن من جوهرها أن توجهني إلى الحياة الدينية. والسبب في ذلك يرجع لعدم إيماني بوجود الله. إذ لم أكن كافراً. وإنما لعقائد المسيحية، والمذاهب الكاثوليكية. غير المقبولة عندي، والتي لم تثبت لي وجود الله.

ومن ثم كان شعوري بوحданية الله يمنع عليّ قبول مبدأ «الثالث ثلاثة» كما أنه كان بطريق التبعية يحول بيدي وبين الإقرار بألوهية المسيح، وبهذا كنت على اتفاق من حيث لاأشعر مع ما تضمنه الشطر الأول من شهادتنا «لا إله إلا الله» ومع روح سورة الإخلاص: «قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

وعليه تبين أن اعتنافي الإسلام كان راجعاً في أول أمره إلى أسباب روحية بحثة، إلا أن أسباباً أخرى حملتني على دخول هذا الدين، ومن بينها عدم الرضى بالرهبانية التي يجترب فيها أصحابها على نيل سلطة يعتقدون من ورائها أنه يمكنهم محسوسيات البشرية، كما لم تكن ترضيني طريقة «التعميد». كما أن هناك أمراً آخر أبعدني عن المسيحية ألا وهو التغافل التام عن النظافة البدنية قبل الصلاة. والآن أصل إلى الأمر الرئيسي والخامس الذي أيد لي عظمة الإسلام. فدفعني إلى اعتنائه ألا وهو «القرآن» لقد كنت تصفحته قبل إسلامي بروح النقد الموجودة عند كل مثقف عربي. وكان قد ساعدي على إدراك معناه كتاب «مالك ابن نبي» القيم «المظاهر القرآنية» الذي زادني يقيناً بنزول قرآناً، ويتضمن الكتاب صفحات من بينها تلك التي تتناول موضوع المناسبات. حيث يبين المؤلف أن نصوص بعض آي الكتاب الوحي به على نبينا منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً تتناسب وأحدث مبادئ العلوم العصرية، وكان من جراء هذه

الملحوظات أن آمنت نهائياً. فأصبحت بهذا على وفق الشطر الثاني من شهادتي «محمد رسول الله».

ومن أجل هذا كان حدت في العشرين من فيفري (فبراير) ١٩٥٣ بجامع باريس دخولي الإسلام بصفة رسمية بحضور وباسم «علي سليمان»^(١)

شهادات الإسلام

- (١) اتيان دينيه (ناصر الدين دينيه): أشعة خاصة بنور الإسلام: ترجمة راشد رستم. (المطبعة السلفية - ١٩٢٩) مصر.
رأي المغرب في الشرق (طبع ١٩٢١).
- (٢) هنري دي كاستري: الإسلام: ألفه ١٨٩٦. ترجمة فتحي زغلول ١٨٩٨ القاهرة.
- (٣) جورج سارتون: الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين. ترجمة عمر فروخ.
- (٤) جوستاف لوبيون: حضارة العرب: ألفه ١٨٨٤ - ترجمة عادل زعير ١٩٤٥ - مطبعة الحلبي - القاهرة.
- (٥) هرهر جورنج: الإسلام.
- (٦) كمال ول夫 سخوماكو (جاوه): بحوث في الثقافة الإسلامية.
- (٧) هورتن الألماني: استعداد الإسلام لقبول الثقافة الروحية.
- (٨) أرنولد تويني: الإسلام والغرب.
- (٩) رينان: تعليقائي على تاريخ الأديان.
- (١٠) توماس كارليل: الأبطال وعبادة الأبطال (ترجمة محمد السباعي).
- (١١) أوغست كونت: من كتاب بين الديانات والحضارات (طه المدور - بيروت ١٩٥٦).

(١) جريدة البصائر العدد ٢٦٤ - ٢٦ مارس ١٩٥٤ نقلأ عن جريدة المسلم الجزائري.

- (١٢) وامبرى:
- (١٣) اللورد هدلي: المنار - ١ - م ١٧ - ص ٣٦.
- (١٤) شهادات الإسلام من غير المسلمين: الرسالة م ١٤ (١٩٤٦) ص ١٣٨٣.
- (١٥) غاندي: مجلة ذي لait (لاهور) ترجمة المنار. م ٣٢ - ج ٢.
- (١٦) ديفونوب: اعتذار إلى محمد والإسلام (المنار م ١٣ ج ٩ - ص ٧١٥).
- (١٧) كلود فاريير: يوم تراجعت المدنية ثمانية قرون.
- (١٨) موته (كلين حنيف): حاضر الإسلام ومستقبله. مجلة المقتبس: م ٦ ص ٣١٧.
- (١٩) إسحاق طيار (القس): الإسلام والمسلمون (مجلة سنت جيمس غازيت) ١٨ - ١٤ - ١٩٨٨.
- (٢٠) دوزي (المستشرق الهندي): ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام ترجمة كامل كيلاني - ١٩٣٤.
- (٢١) واصف بطرس غالى: فروسية العرب المتوارثة (جريدة الأخبار ٢٠ مارس ١٩٢٣).
- (٢٢) تربتون - أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن: الإسلام ومعتقداته وطقوسه. صدر ١٩٥١ (تعليق الدكتور الأهوازي مجلة الثقافة - ١٥ - ١٠ - ٥١).
- (٢٣) لويس ماسنيون: الإسلام والغرب (ترجمة مجلة لسان الدين).
- (٢٤) هنري بيرين: محمد وشرعان.
- (٢٥) كريستان (سنوك) هير وجرونجيه الهولندي: الإسلام: عن البلاغ الآسيوي ٢٠ - ١١ - ١٩٢٩.
- (٢٦) جورج برناردشو: الإسلام بعد المائة عام (مقال).

- (٢٧) لوثرب استودارد: حاضر العالم الإسلامي (ترجمة عجاج نويهض - وتعليق شكيب أرسلان).
- (٢٨) توينبي: الحضارة في فترة اختباره. ترجمة عبد الجواد المطibli (مجلة الكتاب) العراقية حزيران ١٩٦٢.
- (٢٩) رينيه ميليه: محاضرة في مؤتمر أفريقيا الشمالية (باريس) ١٩٠٨ - ترجمة (المنار) م ١١ ص ٨١٨.
- (٣٠) ول دورانت: الإسلام والمسلمون «المقتطف» - نوفمبر ١٩٣١».
- (٣١) سير ريتشارد وود: الكتاب الأزرق ١٨٧٨ (نشره حب الدين الخطيب ١٩١٢ بالمؤيد).
- (٣٢) وليفجانج لأنجرميش: اخترت الدفاع عن الإسلام (مجلة المختار فبراير ١٩٥٦).
- (٣٣) هـ. جـ. ولز: معلم تاريخ الإنسانية - مختصر تاريخ العالم.
- (٣٤) ماسينون: (وجهة الإسلام). ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ١٩٣١ - مصر.
- (٣٥) جـ:
- (٣٦) ولفريد كابتول سميث: الإسلام في التاريخ الحديث.
- (٣٧) ليون روشن: ثلاثون عاماً في الإسلام. ترجمة المنار م ١٩٠٤ - ٧ ص ٥٢٠.
- (٣٨) مستر رـ. حـ. كويت: الإسلام والدولة البريطانية (جـ ٥) من كتابه عن الدولة البريطانية ومستعمراتها. مجلة المجالات - أكتوبر ١٩٠٣.
- (٣٩) أوجين يونج: يقظة الإسلام والعرب ١٩٣٣.
- (٤٠) فيليب دي طرازي: القرآن (مجلة المجمع العلمي العربي) مجلد ١٩ - ص ٤٨٩.
- (٤١) روبرت. لـ. بيكر: الإسلام في سبيل الوحدة (مجلة كارانت هستوري السياسة القومية ٩ أغسطس ١٩٣٣).

- (٤٢) شاتليه: الإسلام وعوامل الاعتقاد. جريدة المؤيد العدين ٦١٨٨ .
 . ٦١٩٦
- (٤٣) ادوار مونته أستاذ اللغات الشرقية - جامعة جنيف: الإسلام
 (باريس) ١٩٢٣ - مكتبة بابو ترجمة القرآن (١٩٢٩).
- (٤٤) الدكتور بول دي ركلا: الدين الإسلامي في مرآة الغرب. (مجلة
 العرفان ٢٢ (١٩٣١) ص ١٦٦ .
- (٤٥) جيرون: أضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ١٧٨٨ .
- (٤٦) أميل درمنجم: حياة محمد.
- (٤٧) عمر فاخوري: آراء غربية في مسائل شرقية.
- (٤٨) البارون كارادي فو: أصحاب الفكر في الإسلام (باريس) بالفرنسية.
- (٤٩) سنديو: خلاصة تاريخ العرب (ترجمة علي باشا مبارك).
- (٥٠) الدكتورة لورا فنيشيا فاليري الإيطالية: محاسن الإسلام. ترجمة طه
 فوزي ١٩٣٠ (يافا) أعيدت ترجمته باسم (دفاع عن الإسلام) منير
 البعبكي بيروت ١٩٦٠ .
- (٥١) ليوبولد فابس: الإسلام على مفترق الطرق. ترجمة عمر فروخ
 ١٩٤٦ بيروت .
- (٥٢) اللورد هدلي: إيقاظ الغرب للإسلام. (القاهرة) ١٩٢٢ .
- (٥٣) الدكتور بنوا «علي سليمان»: جريدة البصائر ٢٦ مارس ١٩٥٤ - نقلأً
 عن جريدة المسلم الجزائرية .

٦) غزوة جديدة للتفكير الانساني

(١)

في يقيني أن «الإسلام» في غزوة جديدة للفكر «الإنساني» ولا أقول الغربي. هذه هي الغزوة الثانية. أما الغزوة الأولى فهي تلك التي جاءت أثر القرون الوسطى المظلمة لأوروبا، والتي كانت أساساً لعصر النهضة في أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي.

تلك الغزوة الأولى كانت أساس الحضارة الحاضرة، فقد تلقى المسلمين دينهم الذي هو في الواقع دين ومجتمع وحضارة، والذي استطاع بامتزاجه بعصارات الفكر الإنساني المتمثل في ثقافات اليونان وفارس أن يقيم تلك الحضارة الضخمة التي عاشت ألف عام، وما زالت قيمها في مجال الفكر والثقافة والأدب واللغة والتشريع والتاريخ قائمة حية متفاعلة لم تمت، ولم تضعف ولم تختلف. وقد مرت بالغرب فترة عصبية تنكر فيها لفضل الثقافة الإسلامية، والإسلام ذاته، وأعلن تجاهله الكامل لها، وسجل بأن الحضارة الغربية الحديثة هي ثمرة الحضارة الرومانية القديمة، وبينهما ألف عام، وأنه ليس بين أرساطه وديكارت غير معبر الزمان.

وقد عني كثير من الباحثين بأن يكشفوا عن حقيقة الدور التاريخي للثقافة والحضارة الإسلاميتين، وأثراهما في حضارة الغرب القائمة الآن.

وهذا ليس مجال البحث اليوم. فقد مرت السنون الطويلة منذ بدأ

الغرب حلته الضخمة على الإسلام عن طريق ترجمة القرآن وتحريفه، وتصوير النبي محمد ﷺ بصورة مزيفة، ومحاكمة أصول الإسلام ومقاصده في عشرات الموضع، وإعطاء صورة مظلمة مضيبة له. وقد شنت هذه الحملة تحت تأثير عاملين:

- ١ - سيطرة الكنيسة ومحاولتها إقصاء الإسلام عن طريقها.
- ٢ - سيطرة النفوذ الأجنبي الذي كان يرى في الإسلام قوة معرضة أمام أطماعه وتوسيعه. من هنا جاءت (الحملة على الإسلام) على عنفها مضطربة مهلهلة. غير قائمة على منهج البحث العلمي الصحيح، وإنما أبرز معالمها تلك العبارات القاسية الطائشة. وتلك الاتهامات التي تبدو منها روح التحصّب والخذلان.

ولقد كان أصحاب هذه الحملة يهدّون إلى أمرين:

الأول: إغراق الفكر الغربي بدراسات ومراجع عن الإسلام تحول بينه وبين الدراسات الأصلية والأساسية النابعة من كتابة المسلمين أو المنصفين على الأقل.

الثاني: تشويه الإسلام في نظر أصحابه ومعتنقيه، وإثارة الشكوك والشبهات في نفوسهم لصرفهم عنه. وتحطيم قيمه في أنفسهم مما يعين الاستعمار على خلق طائفة من المثقفين المؤمنين بالقيم الغربية التي تعاطف النفوذ الأجنبي وتقبله.

* * *

غير أن هذه الحملة المضيبة لم تخل بين الإسلام وبين النفاذه إلى القلوب. والعقول، فلم تثبت مقاصده إلى أن بلغت إلى عشرات من طلاب الحق، وأثرت فيهم فانبعثت بضوء جديد تطور من بعد إلى «تيار» قوي يحمل الحقيقة إلى ما سوى العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

ولا نعتقد أن هذا «تيار» الذي عنينا برسم صوره له في هذه

الدراسة يمكن أن يدفع الاتهام عن الغرب التعصب إزاء الإسلام، أو يعطي وثيقة يمكن أن يعتبرها بعض أنصار الفكر الغربي إنصافاً له. ذلك بأن حملة التحدي والتعصب ما تزال مستمرة في تيارها القوي. أما هذا التيار الجديد فإننا نعدّه تياراً في الفكر الإنساني العالمي استطاع أن يشق طريقه بالرغم من كل القوى التي قاومته، أو وقفت في طريقه، وتسجل النصوص كيف أن كل هؤلاء الذين واجهوا الإسلام بعقل مفتوح. وقلب سليم قد لقوا من قومهم مزيداً من الاضطهاد وأن بعضهم جرد من أملاكه (الدكتور خالد شلدرريك) أو حل عليه حملات عنيفة كالكاتبة الإيطالية: «لورا فنيشيا فاليري».

أو يضطر أن يمضي خمسين سنة قبل أن يعلن إسلامه خوفاً من اضطراب حياته العملية. كاللورد «هيلي». وأنا واثق من أن هذا التيار سيزداد قوة بمرور الأيام، ويعمق، ويصل إلى أبعد مدى. ولا شك في صدق ما ذهب إليه الذين انتقلوا إلى عقيدة الإسلام من أن هناك عشرات قد آمنوا بالإسلام. ولم يتح لهم أن يجهروا به. وأن من يستمع إلى حديث لأحد الدعاة العاملين في هذا الميدان كالمهندس: محمد توفيق أحد - صاحب مجلة «بريد الإسلام» والذي يحمل لواء التبشير الإسلامي بالبريد منذ ثلاثين عاماً. ليدهش كيف أن كتاباً بسيطاً صغير الحجم في أربعين صحيفة يستطيع أن يكسب عقلاً جديداً. كلما بلغ إنساناً. متعطشاً إلى فهم الإسلام. وأن هذا العمل قد حقق لئات من المثقفين في أوروبا وأمريكا. الاقتناع العميق بجوهر هذا الدين. وهكذا يعمق هذا التيار. ويتسع نطاقه.

فإذا عدنا إلى الصورة الأولى وجدنا أن الفكر الغربي قد كان حريضاً على أن يضع حجاباً كثيفاً على العقل الإنساني بحملته على الإسلام. هذه الحملة التي يصورها (م. ر. كويت) في كتابه الإسلام والدولة

البريطانية^(١) حين يقول: «إن الكثيرين منا شبوا على كراهية الإسلام» وارتضوا ذلك مع لبان أمهاطهم. هذا فضلاً عن أن ما لدينا من المعلومات عن الإسلام يزيد في بعدها عن معرفة حقيقته خصوصاً لعدم إمكاننا الوقوف على أصوله من اللغة العربية.

ومن عجب أنه لم تكدر تمر فترة لا تزيد عن ستين عاماً حتى وجد الإسلام مجالاً واضحاً في الفكر الإنساني. استطاع به أن يواجه حملة الفكر الغربي عليه.

فالليوم تزخر مكتبات أوروبا وأمريكا والشرق بعشرات من الكتب كتبها مثقفون من غير أهل العالم الإسلامي يصورون فيها مشاعرهم إزاء الإسلام، ويكتشفون فيها عن مفاهيم له، ولا بد أن تحمل هذه الكتب بعض الأخطاء أو الاضطرابات ولكنها في جوهرها صادقة. فقد قرأ هؤلاء ما كتبه الغربيون ومنه - في الأغلب - نفذوا إلى الحقيقة. والدكتور خالد شلدرريك البريطاني المسلم يعترف بأنه لم يتلق هذا الدين أول الأمر من كتبه، وإنما تلقاه من كتابات الطاعنين. وأن البحث والتأمل دفعه إلى دراسة البوذية والبرهمية، وسائر الأديان. ووجد في مكاتب بريطانيا كتاباً منصفة عن كل الأديان ما عدا الإسلام. فقد وجد كتبه ملوءة بالتحامل والمطاعن. وهي تقول أنه دين لا أهمية له. وقال الدكتور شلدرريك لنفسه: إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا الحد. فلماذا يبذلون كل هذه الجهد للتحامل عليه، ومقاومته، وتوجيه المطاعن إليه. يقول خالد شلدرريك: «وقد وقر في نفسي أنه لو لا أن الإسلام دين يخشاه الناس، ويخسرون له حساباً كبيراً لما فيه من القوة والحيوية، لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته. وأنطعن فيه، وتشويه سمعته».

(١) مجلة الفتح: - ١٣ صفر ١٣٥٧ م - ١٢ .

وهكذا استطاع الإسلام عن طريق الكتب المشوهة عنه أن يشق طريقه، وأن يبدأ غزوة جديدة للفكر الإنساني لا شك سيكون لها مدى كبير، وأثر لا حدّ له. هذا الأثر الذي يكشف عنه كل الذين عرفوا الإسلام وأمنوا به.

(٢)

إن الذين كونوا هذا التيار الجديد الذي يعد غزوة جديدة من الإسلام للفكر الإنساني يمثلون ثلاثة جبهات.

* معجبون هزمهم الإسلام بحقائقه الدامغة. فقالوا فيه كلمة الحق. وهم أمثال توماس بكارليل. وجوسťاف لوبيون. وجورج سارتون، وهورتن الألماني، وهرجودنچ، ودبورانت، ولفرن كابتول سميث، وإيميل درمنجم، والبارون كارادي فو، والدكتور بول دي ركلا، وسيديو. وهؤلاء بين مؤرخين وصحفيين وكتاب قد وصلت إليهم الحقيقة فأعلنوها معترفين بفضل الإسلام وأثره في الحضارة الحديثة، وقيمه الحية النابضة، ومدى ما يمكن أن تقدمه للإنسانية.

* قادة وكتاب وسياسيون قالوا الحقيقة لقومهم لنضع حكماتهم ومؤسساتهم الخطط التي تمكنا من رسم طريق صحيح مع العالم الإسلامي. ومن هؤلاء: هنري دي كاستري، والقس إسحاق طيلر، ولويس ماسينيون، وجب، ورينيه ميليه، وكريستان سنوك هيروجرونجيه، وسير ريتشارد وود، وشاتليه، وأوجين يونج.

* مؤمنون بهم الإسلام حقيقة فآمنوا به أمثال: اللورد هدلي، واتيان دينيه، وليون روس، والدكتورة لورا فنيشيا فاليري، وليوبولد فابس، وعبد الله كوليام، ونشكيتبا رهبا، وهاري هيinkel، وخالد شلدريك، وهناك مجموعة أخرى من كبار المفكرين استطاعوا أن يصححوا آراءهم

في الإسلام بعد مراجعة لأفكاره أمثال: رينان وأوغست كونت. ومن عجب أن ترى ديفو تويب يؤلف كتاباً يطلق عليه اسم «اعتذار إلى محمد والإسلام» أو تسمع قصة ليون روشن الذي عمل كاتباً لأسرار الأمير عبد القادر الجزائري. وجاسوساً عليه لفرنسا. واستطاع الأمير بعد ثلاثين عاماً أن يجذبه إليه.

وأمامي أكثر من ثلاثين مرجعاً، وأكثر من مائة فكرة عن كتاب غربيين وشرقيين اعترفوا للإسلام بالفضل. ومن بين هؤلاء الكتاب أبرز كتاب الإنسانية أمثال: كارليل، وتوبينبي، وبرناردشو، وولز وجوب، ودرمنجم، وسيديبو في وثائق ثابتة، يكشفون فيها عن رأيهم الذي كتبوه دون أي ضغط أو إكراه. فماذا يعني هذا.

ما الذي دفع هؤلاء إلى أن يقولوا كلمة الحق في الإسلام؟

إذا كنا نتهم بعض الكتاب الذين حملوا على الإسلام أنهم كانوا متصلين بالكنيسة أو بوزارات المستعمرات في دولهم، فماذا نقول في هؤلاء. وليس للإسلام نفوذ في أوروبا يستطيع أن يغري كتاباً لهم مثل هذا النفوذ الفكري بأن يقولوا كلمة الحق. إذن فليس سبيل إلا أن الإسلام بقوته الذاتية الدافعة. ومقاصده القوية، وتعاليمه الصادقة، وقيمه الأساسية. هو الذي استطاع أن ينفذ إلى هذه القلوب والعقول.

وإذا كان الاستعمار والتعصب قد شقا في قلب الفكر الغربي تياراً قوياً ضد الإسلام. فإن الإسلام استطاع أن يقوم بغزوة جديدة في الفكر الإنساني كله، ويحفر تياراً لا شك في أصالته وقوته. برع فيه كتاب من الأعلام في مجال الفكر الغربي. وكتاب تدل كتاباتهم على الصدق والإيمان بالحقيقة. وقد واجه هؤلاء جميعاً ما وجه للإسلام من اتهامات في حملة التحدي الضخمة الضاربة، واستطاعوا أن يكشفوا عن حقائق هامة.

أولاً - أن الكتاب الغربي لم يعتمدوا المذهب العلمي أساساً لآرائهم أو أبحاثهم.

ثانياً - إن الإسلام (بوصفه ديناً وثقافة ومجتمعاً وحضارة) يكشف في تعاليمه عن سلامة وبساطة وشمول يمكن أن يعطي الإنسانية الحائرة الآن حاجتها.

ثالثاً - إن الإسلام لا يقف عقبة في سبيل الفكر. فقد يكون المرء صحيحاً الإسلام. وفي الوقت نفسه حر الفكر^(١).

رابعاً - إن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس كذلك لكل أنواع العقليات، وجميع درجات المرتبات على حد تعبير ناصر الدين دينيه الذي يقول: «وبينها تجد الإسلام يهيج في نفس الرجل العملي في أسواق لندن. حيث مبدأ القوم «الوقت من ذهب» إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحاني. وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقي ذو التأملات. ورب الخيال. إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن، وتملكه الشعر»^(١).

خامساً - قدرة المسلمين على تمثيل آراء الغرب والفكر الإنساني في تطوره. يقول كازانوفا: يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثيل آرائنا. وهضم أفكارنا. يعتقدون ذلك، وينسون أن النبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة.

سادساً - صدق القرآن، وتأكيد رسالته من الله، وأنه من صنع محمد. يقول سانت هيلير في كتابه تاريخ النبي: أنه كان يشك في صدق النبي في رسالته حتىقرأ في جميع السير أنه لما نزلت آية الحفظ. ووعد اللهنبيه بأنه سيتولى حراسته. وقال ﴿وَاللَّهُ يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بادر محمد

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام كتاب ناصر الدين دينيه ترجمة أسعد رستم.

بصرف حرسه، والمرء لا يكذب على نفسه، ولا يخدعها. فلو كان لهذا الوحى مصدر غير الله لأبقى محمد حرسه.

سابعاً - الاعتراف بفضل «الإسلام» على الحضارة الحديثة - حتى أن نيتشه^(١) يقول: لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبرية القديم، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام. فقد ديسست بالأقدام تلك المدنية العظيمة مدنية الأندلس المغربية، ولماذا لأنها نشأت من أصول رفيعة، وغرائز شريفة. ثم من غرائز رجال تلك المدنية التي لم تنكر الحياة. بل أجبتها بالإيجاب. وفتحت لها صدرها. لقد قاتل الصليبيون تلك المدنية. وكان أولى بهم أن يسجدوا لها على التراب ويعبدوها. وما مدنيتها في هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة وانية بجانب مدنية الإسلام في ذلك الوقت.

ثامناً - مسيرة الإسلام للمدنية: وهذه عبارة ولز «كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط، ولا تبال به، وأن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية التي سارت هي المدنية الإسلامية، وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً عن هذا فليقرأ القرآن. وما فيه من نظرات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، وإذا طلب مني أحد. أن أحدد له الإسلام. فإني أحدهد بهذه العبارة «الإسلام هو المدنية»^(٢).

تاسعاً - انتشار الإسلام بالاقتناع: يقول اللورد هيلي^(٣) لا أظن أبداً أن المسلمين اجتهدوا في حين من الأحيان أن يمحشو أفكارهم، ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة أو الفظاعة. أو التعذيب، ولم يشهر محمد السلاح إلا حين الحاجة القصوى لحماية

(١) مجلة المستقبل ١٩١٤/٥/٢٤ ترجمة سلامه موسى عن نيتشه.

(٢) موسوعة «الحقيقة» لمحب الدين الخطيب ج ٧ ص ٢٦٢.

(٣) المنار ٢٩ ج ٥ عن مجلة (اسلاميك ريفيو).

البشرية. وأن أعداء الإسلام لأعجز من أن يأتوا بدليل أو مثل من الأمثلة التي أثرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخص واحد.

عاشرًا - «بساطة الإسلام وحقائقه» يقول اللورد هدلي: إن أعظم ما تركه الإسلام في نفسي ما تجلى له من البساطة، والحقيقة بحيث وجده يمتاز على غيره ببساطته وخلوه من كل مغالطة أو إيهام. الدين الذي ليس فيه أي أثر للاحتمالات والخيالات. والذي يدعو الإنسان إلى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته.

حادي عشر - صدق محمد. يقول كارليل: **أَفِيَقُوْيَ مَدْعٍ زَائِفٍ عَلَى إِبْحَادِ دِينِهِ**. إن الزائف لا يستطيع أن ينشئ شيئاً. ولو كان هذا الشيء شيئاً من الطوب.

ويقول دوزي: «لو صلح ما قاله القساوسة من أن محمداً نبي منافق كذاب. فكيف نعمل انتصاره، ما بال فتوحات أتباعه تترى وتتلوا إحداها الأخرى. وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حدّ. وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول».

ومن رأي برنارد شو أن يدعى محمد منقذ الإنسانية. وعنده أنه لو تولى زعامة العالم «ال الحديث» لنجح في حل مشكلاته.

ويقول الدكتور ماردوس المستشرق الفرنسي أن أكثر الكتاب ارتياهاً وشكّا قد خضعوا لسلطان تأثير محمد. ويقول ولز: إن محمداً كان من أنجح الأنبياء وأكثراهم توفيقاً. ويقول غوته: إننا أهل أوروبا بجميع مناهجنا لم نصل إلى أبعد مما وصل إليه محمد، وسوف لن يتقدم عليه أحد. ويقول وليم موير: إن محمداً قد امتاز بوضوح كلامه، ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس. وأحيا الأخلاق في زمن قصير. كما فعل محمد.

ثاني عشر - الإسلام ليس له مرتدون، وهو مسيحية وزيادة.
يقول الكونت هنري دي كاستري: إن الإسلام هو الدين الوحيد
الذي ليس له مرتدون. ويقول (إيتان دينيه) إن للإسلام على النفوس
طابعاً لا يمحى، والذين يعتقدونه من الأوروبيين والأمريكيين دائمًا من
الخاصة، وإسلامهم لا شك فيه. لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض
المادية.

ثالث عشر: الإسلام ليس عدواً للعلم. وقد اعترف بذلك (البرت
هويك) حين قال: حينها تعمقت في قراءة القرآن. اندھشت لعصرية
القرآن في علاقته بالعلم، ففي الإسلام من المستحيل وجود مثل حادث
(جاليليو) والتعاليم الإسلامية لن تعارض البحوث العلمية الحديثة، ولم
تفت في وجه مقتضيات العالم الحديث.

وقال تريتون: إن الإسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لا شائبة فيه.
 فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

رابع عشر - توقف الإسلام أظلم أوروبا. اعترف بذلك كلود
فارير. أستاذ اللغات الشرقية. وهنري دي شامييون، وجيمس برسيد.
قال كلود فارير: إن فاجعة عام ٧٣٢ (معركة بواتيه) كانت أشأم
الفواجع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى. هي معركة
بواتيه، برابرة المحاربين من الإفرنج بقيادة شارل مارتل. ماذا عساهما أن
تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العماني المتسامح.

ويقول هنري دي شاميون: إن انتصار كارل مارتل على تقدم
الإسلام في فرنسا آخر سير المدنيةثمانية قرون. وأنه هو الذي أوقع أوروبا
في ظلمات القرون الوسطى، ومكافحة المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب
الديني والمذهبي.

وقال جيمس برسيد: إن العصر الإسلامي في إسبانيا كان أكبر عامل

من عوامل المدنية في أوروبا. وأن انحدار المسلمين في إسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام المموجية.

(٣)

والى يوم تبدو حاجة الإنسانية إلى الإسلام، وتبدو عالمية الإسلام نفسه. ذلك أن الإسلام اليوم حين يفتح جبهة جديدة في الفكر الإنساني، ويغزوه من جديد على هذا النحو، إنما يثبت صلاحيته الحقيقة لحل مشاكل البشرية، وليس أقدر منه على تحقيق هذا الأمل للأمم الحائرة بعد تجاربها الطويلة خارج نطاقه. فقد انصرفت الحضارة الحديثة عن المسيحية. عندما عاقها عن التقدم العلمي، وبذلك انصرفت عن الدين كله، وظلت حين واجهت الإسلام أنه كالمسيحية، سيف في وجهها. ونظرت إليه من نفس الزاوية، وحكمت عليه قبل أن تكشف جوهره، وحملت دعوة التغريب رأي الفكر الغربي في الدين الذي كونته عن طريق مفاهيمها في المسيحية، محاولة أن تطبقه على الإسلام. غير أن الأمر يختلف كثيراً، وأمامنا هذه الوثائق التي قدمها نفس الأعلام المثقفين الذين قارنوها بين تجربتهم مع الإسلام والأديان الأخرى تعطي الحقيقة، ولا شك أن العالم يمر اليوم بأزمة أساسية تضطرب كيانه كله، في تعليماته الحائرة بين المذاهب والدعوات والأفكار مما يصوّره هارولد لاسكي^(١) حين يقول: من قرن مضى «كان في مقدور الدين أن يتبع للثريين الأمل في تعويض ما ناهم من الحياة. وذلك في الحياة الأخرى. أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء، ولا عن طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل. ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل في الصناعة الجديدة».

والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التي تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا دون أن يساندها مبدأ ما، لم

(١) ترجمة علي أدهم - مجلة المجلة - ديسمبر ١٩٥٨.

يصبح لها أي معنى، إلا إذا كان هذه الطاقة هدف معروف، ثم التمست بعد المذاهب الكاملة (Totalisme) شيئاً يكون ديناً أو كالدين، ولم تستطع القومية أو الديموقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد في قرن أو قرنين مسدة الدين الذي أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون.

وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها في ميدان علم النفس تحاول أن تسد الثغرة الروحية في بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية البحثة، ونجح علم النفس حين تواضع وأخفق حين جمع ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جديداً. وأشار في نجاحه وإنفاقه إلى الصمير الغائب إلى الدين.

ويعرف (سيمون وايل) في مقاله البحث عن الجذور بأن العلم الحديث. والنظم الاقتصادية والسياسية. قد فشلت في الاعتراف بحاجتها إلى هدى الله ما أوجد هذه المساوىء. وهذا التفكك والتشویش والقلق الذي يهيمن على أفكار أهل الجيل وسلوكهم.

وتقول الكاتبة الفرنسية مدام سنت بوانت «اتهم المدينة الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي ترعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة. أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعظيمها على وجه الأرض. وتؤدي إلى الاتحاد. لقد أراد الغرب أن يوحد العالم. ولكن تحت سلطانه ولصلحته، والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب والإخاء، ويرد الحقوق إلى أهلها، ولكن الغرب بحاجة إلى القوة الغاشمة، وعبث بالشرعية الدينية، وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بمحبة الناس أجمعين.

* * *

ومن هنا يأتي تقدير المتصفين الغربيين للإسلام كوسيلة لحل الأزمة الإنسانية العالمية. يبدو هذا في كتابات الكثيرين منهم.

فبرنارد شو يقول: «أنا على يقين من أن دين محمد سيكون دين أوروبا في غد، كما أنه قد أخذ الأوروبيون يقبلونه من اليوم. وفي القرن التالي سيكون أهل أوروبا أكثر معرفة بفائدة اعتقاد (محمد في حل مشكلاتهم)».

وليون روش في كتابه (٣٠ عاماً في الإسلام) يقول: ولقد وجدت في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرأ.

الأولى: في قول القرآن ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية.

الثانية: فرض الزكاة على كل ذي مال. وتحويل الفقراء حق أخذها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً.

ويقول تويني: إن الإسلام قد قضى على التزعة العنصرية. والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي. والمساواة المطلقة بين المسلمين. وعلى الغرب أن يأخذ بهذا المبدأ الإسلامي لتنجو المدينة الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر العداء.

ويقول اللورد هلي: لو ندببت لجنة من الإنجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح. لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الإسلام.

ويقول رينان: وما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي، الولود. والكثير المواهب إلى إبداع مدينة أرقى من زميلتها المندثرة. إن فترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعرجة.

ويقول هورتن الألماني: لا نجد في الإسلام سداً يمنع من نفوذ الثقافة الغربية إليه. بل نرى أن له استعداداً لقبول الثقافة لا حد له.

ويقول أيضاً: إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين - وقد صور هذا المعنى الفيلسوف سبنسر في حديثه مع الشيخ محمد عبده حيث قال: محى الحق من عقول أهل أوروبا.

واستحوذت عليهم الأفكار المادية. فذهبت الفضيلة. وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً. فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة. ثم سرت عدواها منهم إلى الإنجليز. وقال إنني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي ترعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة^(١).

وهكذا يكشف الفكر الإسلامي عن حقيقتين كبيرتين:
أولاً: عالمية الإسلام، وأنه ليس ديناً فقط. بل ديناً وثقافة وحضارة مجتمعاً.

ثانياً: حاجة الحضارة القائمة إليه، وحاجة الإنسانية لحل معضلاتها.

* * *

بقي أن ننظر إلى الإسلام نفسه. وموقفنا في العالم الإسلامي منه. فنحن أشد ما نكون حاجة إلى أن نؤمن به. ونثق بحاجتنا نحن أولاً إليه باعتباره المصدر الحقيقى لثقافتنا. والأساس الأكبر لمقوماتنا الفكرية والروحية. وعنده نجد القوة لمواجهة كل الأعاصير. وحل كل مشاكلها. ومقاومة كل التحديات.

وجوستاف لوبيون^(٢) في حديث له مع مصرى يدعى « توفيق يزدي » زاره في منزله بشارع أفينيو بباريس. يكشف هذه الحقيقة، ويجاهر بها حيث قال:

إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين، وتشبيهه بالعقائد الباطلة، فإن قوة الدين قوة أدبية لا يستهان بها. ومن الواجب عليكم أن تأخذوا من دينكم ما يوافق روح العصر، وأن تحافظوا على تقاليدكم الحسنة، وعاداتكم المرضية، وعلى الطلاب الذين يأتون أوروبا أن يجذبوا من

(١) موسوعة الحديقة لمحب الدين الخطيب. م ٣ - ص ١٩٥٢.

(٢) مجلة رمسيس السنة الثالثة ص: ٦١٩.

العلوم والفنون والأفكار ما ينفع وطنهم، ويواافق أخلاقهم. إن الشعب الذي يريد الرقي يجب ألا يقطع الصلة التي تربطه بحاضره.

ونفس هذا المعنى يردد المستشرق (وامبرى) حيث يقول: إن روح نظام المسلمين هو الدين، والذي أحياهم هو الدين. والذي يكفل سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس إلا.

والذى لا شك فيه أن الإسلام استطاع أن يقاوم كل ما وجه إليه من تحديات. وأنه قد خطأ خطوة واسعة. منذ استطاع أن ينفذ بروحه القوية إلى الفكر الإنساني، فيكسب أنصاراً خارج العالم الإسلامي. لا يعرفون العربية ولا يقرؤون القرآن بها. وهذه آية عظمته. وقد اعترف له الجميع بأنه لن يسقط أمام الحملات العنيفة التي يشنها الاستعمار والنفوذ الغربي عليه. وقد سجل ذلك الدكتور كريستيان ستوك هرجنج الهولندي عام ١٩١٣ عندما كان الإسلام يمر بأقصى فترات التحدي والتعصب والمقاومة. حين قال: «لا أعتقد أبداً أن الإسلام يسقط أمام النصرانية أو الغرب. وقد تغللت الأفكار الأوروپية في بلاد المسلمين. ولكن لم يجد منها الشعور الأوروبي مركزاً. لهذا أتبراً على القول بأن المسلمين سيستمرون على دينهم. وكلما عشت بين المسلمين ازدادت اعتقاداً بأن الإسلام سيجري في نشوئه على الطريقة التي سلکها. ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الإسلام لأنه لا توجد بواعث خارجية تمنعه. فالإسلام قوي ولم يضعف^(١).

وبعد: ففي يقيني أن هذه الصفحات قد كشفت حقائق واضحة عن الإسلام، لم يكتبه المسلمون. وإنما كتبها مثقفون من الغرب والشرق من خارج نطاق العالم الإسلامي أتيح لهم أن يتصلوا بالإسلام قراءة أو زيارة. ومن خلال ركام ضخم من حالات التعصب على الإسلام اكتشفوا

(١) ١.٧ ج ٣ المدارص ٢١٢.

الحقيقة، واستطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يواجه نفوساً متطلعة إلى الحقيقة فعرفته وأمنت بعالميته، وحاجة الإنسانية إليه.

وهكذا استطاع الإسلام أن يغزو الفكر الإنساني مرة أخرى، وأن يحقق له تياراً قوياً هو: مقدمة أكيدة لتقدير خطير في مجال الإيمان به إزاء أزمة البشرية الضخمة التي تواجهها الآن. وما أصاب الإنسان في العالم كله من قلق واضطراب وتقلب بين المذاهب والدعوات والنظم.

ولا سبيل له إلى حل مشاكله، والوصول إلى الطمأنينة الفكرية والنفسية الحقة إلا عن طريق واحد هو: «الإسلام».

ولكن السؤال الآن الذي يتطلب فتح أبواب النظر الواسعة هو ماذا يمكن أن يعطي الإنسان للتفكير الإنساني ذلك ما يدعونا إلى عقد الفصول التالية وفيه إقرار واضح من علماء الغرب على هذا العطاء، وذلك ما يؤكّد عمق هذا المجرى الجديد الذي حفره الإسلام في الغرب وكيف أصبح هناك من أهل الرأي والعلم من يعترفون بالدور الخطير الذي قام به الإسلام في بناء الحضارة العالمية والتفكير الإنساني وتلك شهادة لها قيمتها الحقيقة ولها أثراً بعيد المدى على المستقبل في الغرب نفسه، وهو ما نوجه إليه أنظار أبنائنا الذين خدعوا بأن مصدر العلم هو الغرب وأن آباءهم لم يخلعوا أثراً حقيقياً يمكن الاعتزاز به والثقة بأنه المنطلق الحقيقي لنهضة الإسلام في القرن الخامس عشر المجري.

ما زال «الإسلام» قادرًا على أن يعطي الفكر الإنساني، ويأخذ منه (مدخل)

ما زال «الإسلام» قادرًا على أن يعطي الفكر الإنساني، ويأخذ منه شأنه دائمًا في مختلف أدواره. وخلال أربعة عشر قرناً. وقد أعطى كل من اتصل به سواء كان اتصال اندماج، أو اتصال خصومة. أعطى هذه الأمم التي امتزجت به، وأخذ منها، واستوعب ثقافات الأمم السابقة له من يونان ورومأن وهنود وفرس. وانتفع بها. واستطاع أن يصبح الحياة في أوروبا بطابعه، منذ بلغت أصواته الأندلس. وأقام فيها جامعته العلمية. التي امتدت آثارها إلى فرنسا وإيطاليا. وشكلت حميرة النهضة الغربية الحديثة في مجال: العلم والفكر والحضارة، كما استطاع أن يد لغته على الأرض كلها. وأن يؤثر في لغات العالم الإسلامي، تأثيراً عضوياً في تركيبها الخاص. وفي مضمونها أيضًا. فقد كانت ثقافة القرآن هي مصدر الثقافة العربية الإسلامية خارج نطاق الأمة العربية. في كل مكان وصل الإسلام إليها. وقد استطاع في أشد أوقاته السياسية وضغط القوى المعادية له: الحروب الصليبية، وغزوات التتار، والاحتلال الغربي أن يفتح آفاقاً جديدة، وقبل أن تنتزعه القوى المتجمعة عليه في الأندلس. كان قد استطاع أن ينفذ إلى أعماق جنوب شرق آسيا. وأن يكسب فيها أتباعاً جددًا. وقبل أن تزول دولته في الامبراطورية العثمانية. كان قد وسع آفاقه في شرق أفريقيا ووسطها.

وهكذا لا يتوقف الإسلام عن الامتداد، ولا يرتبط بناموس الحضارات السابقة له التي يسقط فكرها إذا سقطت، فهو ليس رباطاً سياسياً متغيراً بقدر ما هو رباط اجتماعي مستمر. غير أن ظاهرة جديدة ارتبطت بالنفوذ الاستعماري في خلال قرن وربع قرن تقريباً. كان لها أثراً بعيد المدى. تلك هي ظاهرة الحملة على الإسلام والفكر العربي الإسلامي، وإثارة الشبهات حوله، وإلقاء التهم والشكوك حول مفاهيمه وقيمه.

هذه الظاهرة كانت بعيدة المدى في اتجاه المفكرين والكتاب إلى «الدفاع عن الإسلام» الذي أصبح أشبه ما يكون بالسوق إلى قفص الاتهام. وفي تقدير بعض الباحثين أن هذه الحركة قد عطلت الدعوة إلى الإسلام نفسه، فأصبح المفكرون المسلمون في شغل شاغل بالرد على الهجوم بدلاً منأخذ المبادعة في الدعوة إلى الإسلام نفسه، والحق أن تحليل ما يوجه إلى الإسلام من اتهام والرد عليه، وإزالة الشبهات المثار، وكشفها على نحو علمي عقلي دقيق. دون أن يطغى على ذلك طابع التعصب أو العنف أو الكتابة الحماسية أو العاطفية. هو عمل من صميم «الدعوة إلى الإسلام». ذلك أن هذه الاتهامات والشبهات لم تعد كلمات تلقى أو تذاع. بل أصبحت نصوصاً في دوائر المعارف، ومصادر الدراسات في الجامعات، والمدارس، وهي مثبتة في المراجع الأساسية التي يلجأ إليها الأساتذة والباحثون في العالم الإسلامي، فتجري على أقلامهم دون تنبه إليها، وهي بعد هذا كله سلاح يحمل لواء خصوم العرب والإسلام من أجل القضاء على مقومات هذه الأمة.

* * *

ولذلك كان لا بد من تعقب هذه الشبهات ودراستها والرد عليها، والكشف عن وجوه الخطأ والاضطراب فيها. وهو عمل ترجع أهميته إلى

أن النفوذ الاستعماري يحاول اليوم أن يتخذ مكاناً له عن طريق ثغرة قد يجدها في مجال الفكر العربي، حيث يستطيع أن يهدم عاملأً أو أكثر من العوامل المكونة لقومات هذه الأمة إيماناً منه بأن ذلك سيقتل أو يضعف «القوة النفسية» التي تواجه نفوذه ويقضي عليه، وليس معنى هذا أن «الفكر العربي الإسلامي» يغلق نفسه أبداً، فهو لم يغلق نفسه طوال أربعة عشر قرناً. وقد كان دائماً مفتوحاً على آفاق الفكر يأخذ ويعطي، ويستوعب ويمتص، على قاعدته الأساسية التي لا ينحرف عنها، وهي أن الإسلام: دين ومدنية، وقلب وعقل، ودنيا وأخوة، وروح ومادة. وأن هذه العناصر تتراوح وتتلاقي في تكامل واضح، وأن مصدر الاضطراب إنما يجيء من انفصalamها. ذلك طابع الفكر العربي الإسلامي، الذي بني قاعدته الأولى على أساس «التوحيد»، وسيادة الإنسان على الكون تحت حكم الله. قبل أن يلتقي بالفلسفات اليونانية والرومانية وال الهندية، ومن هنا كان موقفه منها موقف حرية الاقتباس والتضمين. فهو قد رفض كل ما يتعارض مع قاعدة الأساسية، وقبل كل ما يزيده قوة على الحياة، ويشحد أسلحته في سبيل الدفاع عن العقائد. وإذا كان الإسلام في مضمونه الأصلي عصارة الأديان السماوية باعتباره خاتمتها. فإنه في مجال الفكر قد استطاع أن يذيب مختلف الثقافات الإنسانية السابقة عليه في كيانه دون أن يفقد مقوماته الأصلية. ذلك أنه أساساً دين «الإنسانية والعالمية». ومن هنا كانت قدرة الإسلام على الالتقاء بالثقافات والحضارات خلال عمره المتبد، دون أن يصطدم بها. ومن هنا كانت مرونته في مواجهة العصور والثورات والدعوات والمذاهب سواء في داخل نطاقه أم في خارجه، دون أن يقضي عليه منها شيء.

* * *

الواقع أن الإسلام منذ ظهوره إلى اليوم، كان قادراً على الحياة والحركة مؤثراً في مجرى التاريخ، سواء في إبان انتصاراته، أو في خلال فترة

- الضعف التي مرت به، أم في مرحلة اليقظة التي تمر به اليوم، وحتى نصف على أساس ثابت في هذا البحث علينا أن نواجه هذه الحقائق العشر:
- أولاً : إن الإسلام كان مفهومه الصحيح الكامل : ديناً ومدنية.
- ثانياً : إن وثيقة الإسلام الكبرى الخالدة «القرآن» قد حفظت من التحرير.
- ثالثاً : إن الإسلام لم يتوقف عن الانتشار منذ بزورغ فجره حتى في أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار.
- رابعاً : أكد الإسلام أهمية العقل، وفضل العلم، وجمع بين الاتجاهين: المادي والروحي ، ولم يكن عائقاً عن التقدم.
- خامساً : التفسير التاريخي للإسلام يعطي مفهوماً يختلف كل الاختلاف مع مقاييس الأديان والمذاهب المختلفة.
- سادساً : أبرز طوابع الإسلام بعد التوحيد: طابع الشمول.
- سابعاً : استمرار قدرة الإسلام الدائمة المتتجددة على البقاء، ومنح الإنسانية قيئاً جديدة.
- ثامناً : ما تزال اللغة العربية هي لغة الإسلام ثقافة، والأمة العربية قومية.
- تاسعاً : إن دور العرب والمسلمين في العلم والحضارة لا سبيل إلى تجاوزه أو إنكاره.
- عاشرأً : إن الشريعة الإسلامية حية صالحة لكل زمان ومكان، قائمة بذاتها، وليس مأخوذة من غيرها.

* * *

(١) الاسلام دين ومدنية

ولقد واجهت الإسلام شبهة القول بأنه دين روحي، ينظم العلاقة بين الله والإنسان، لا صلة له بالحياة والمجتمع، في هذا محاولة لإنكار مفهوم الشمول في الإسلام على أنه دين ومدنية. وقد واجه هذا كثير من الباحثين المنصفين. يقول «العلامة» الزي لشبيشار: الإسلام ليس ديناً فحسب. ولكنه أسلوب في الحياة. والإسلام كدين له قيم خاصة، وخير دليل على ذلك أن الأديان الأخرى لم يستطع أحداً أن يجد سبيلاً إلى نفوس الأميين والفقراء من المسلمين، أو إلى نفوس المثقفين ثقافة عالية، وإنك لتتجد علماء الذرة والحيوان والرياضية رغم بلوغهم هذه الدرجة العليا ظلوا مخلصين لدينهم الإسلامي، وما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون العلم في أوروبا تحول عن الإسلام إلى دين آخر. وإن كان بعضهم قد استغرب في أممأط حياته. ولم يحدث هذا عن مصادفة. ولكن له دلالته القوية. ذلك أن الإسلام له «قيمه» التي لا ترضي الجاهل فحسب. بل التي تكفي حاجات المتعلمين والمثقفين.

ويقول موريسون: إن الحق الذي لا يماري فيه أحد أن الإسلام أكثر من معتقد ودين، وإنما هو نظام اجتماعي، تام الجهاز، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسقتها وتهذيبها وفنونها.

* * *

ويرى الدكتور بول ركلا: لقد آن لنا أن نعرف ويعرف العالم جوهر هذا الدين، دين يجب أن لا نكتفي بتسميته ديناً ونقف. بل لتعطه اسمه الحقيقي ، ولنسمه فلسفة دينية ، فنكون قد أعطيته مركزه بين الأديان ، ولست بمعالي إذا صرحت علناً . وقلت إن الإسلام مفتوح بابه على مصراعيه ، وهو واسع الأرجاء لتلقي الرقي الحديث الذي أنتجه الأجيال الطويلة ، وليس كما يزعم البعض محدود الأطراف ، ضيق المدخل ، لأن تعاليمه الرفيعة ، وضعت لكرور الدهور ، وستبقى خالدة وضاءة الأنوار ، تكشف كل مدينة تتخض عنها العصور ، وهو الدين الوحيد الذي حل بعدل مشكلة حقوق البنين وواجباتهم باعترافه بالمولود ، ضارباً عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونوماميسها في التفرقة بين الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين . فأعطي بعض الأولاد كل الحقوق ، وحرم الآخرين ، وأن الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفحوج ، ويكفيه فخرًا أنه قدس الإنسال وعظمها ليرغب الرجل بالزواج ، ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً ، وأن الإسلام قد حل بعقلية عالية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغله مشرعي الغرب بمعتقداتها . فالإسلام هو الدين الديمقراطي الوحيد سواء بتعاليمه أم بشرائعه ، أم بعاداته ، فهو لا يعترف مطلقاً بالزعامة الدينية .

* * *

ويقول الدكتور جرمانوس: إن أوروبا لم تعرف الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية. بينما دعا الإسلام إليها وطبقها قبل ثورة فرنسا ب نحو ألف عام ، لقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية من ابتكار «القرآن» عرفتها أوروبا في القرن السابع عشر. بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأته . ولم يعترف حكام أوروبا بالاشتراكية إلا في السنوات الحديثة ، بينما

سبقهم الإسلام إلى المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب (يهود و المسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك النظام الاشتراكي الصحيح . واستمتع في ظل نظامه كافة الناس بكل الحقوق الإنسانية .

(٢) وثيقة الإسلام الخالدة: القرآن

أما «القرآن» فقد ظل قادراً على التأثير في الفكر العربي الإسلامي . وفي الفكر الإنساني عامه ، إذ كانت إجاباته على مختلف القضايا والمعضلات موضع تقدير الباحثين ، على أساس أنها قادرة على حل أزمة الإنسان الحديث .

يقول فيليب دي طرازي : لسنا نعرف كتاباً عربياً أثار هم العلماء والباحثين في أربعة أقطار المسكونة ، كما أثارها القرآن منذ ظهوره . الإسلام إلى اليوم . تلك حقيقة صادقة لا تفتقر إلى برهان يسندها ، أو حجة تدعيمها . ومن المقرر الثابت أنه لو لا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى في الحافقين ، ولو لا القرآن لما أقبل ألف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة وعلى كتابتها و درسها و التعامل بها . فالقرآن عزز الجامعية العربية ، وصان عنصرها ، وضمن سلامتها على توالي الزمان . ذلك أن الإسلام فرض على كل مسلم أن يدرسه ويحفظه ويجد قراءته قبل أي علم من العلوم البشرية ، وهكذا حفظ التفاهم بين الشعوب الإسلامية وغيرها من الشعوب . وقد استعانت اللغة العربية بفضلها على نكبات الدهر ، ورسخت رسوخ الجبال الرواسي خلافاً لما انتاب لغات الأمم الذين اندمجوا في العرب بعد الإسلام . كالروماني ، والسريان ، والأقباط ، والأبطاط ، والصابئة ، واليهود وغيرهم .

* * *

وفي تقدير العلامة «اتيان دينيه» أن القرآن قد حقق معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن اللغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أصحاب الرسول اليوم إلينا لكان ميسوراً لهم أن يتفاهموا قام التفاهم مع أهل اللغة العربية. وهذا عكس ما يتجده مثلاً أحد معاصرى (رابليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم. وأن لغة القرآن وإن كانت تمت في أصولها إلى عصور بعيدة قديمة، فهي مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجده من المكتشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها.

ويقول العلامة فيبني أن القرآن ليس بكتاب ديني فقط. بل كتاب علم الإنطلاقي إلى نهر الكانج بأنه الدستور الأساسي ليس لأصول الدين فقط. بل للأحكام الجنائية والمدنية، والشائع التي عليها مدار حياة نظام النوع الإنساني وترتيب شؤونه.

ويقول العلامة فيبني أن القرآن ليس بكتاب ديني فقط. بل علم وأداب، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية، والأحكام السياسية التي إن لم توجد في القرآن توجد في السنة.

ويدافع السير ريتشارد وود عن القول بأن القرآن حائل دون النهضة فيقول: إن القرآن يتضمن أحكام الدين، وفي نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية، وأن كثيراً من مؤلفي الإفريقي يزعمون أن المسلمين لا يتسمى لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التي يقولون أنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون. وهذا وهم باطل نشاً عن الجهل بمقاصد القرآن، ويكتفي برهاناً على بطلانه

تاریخ صدر الإسلام، وعنایة علماء العرب بالمعارف والفنون، ودرسهم
كتب الحکماء والأقدمین.

وتقول الدكتورة لورا فنيشيا فاليري: إن العجزة التي تفوق كل العجزات، والتي وصلت إلينا أخبارها من مصادر غير مشكوك فيها، صحة فهي «القرآن». فإنه كتاب لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثله. إذ أن كل عبارة من عباراته متزنة منسقة مستحملة على معانٍ كثيرة سهلة المأخذ، فلا هي كثيرة الإيجاز، ولا هي باللغة حد الإسهاب والإطالة، ولما كان أسلوب القرآن فريداً في بابه، ولم يكن له مثيل سابق في الأدب العربي فإنه يقع في النفس البشرية موقعاً صحيحاً لا تصنع فيه، ولا افتراء ولا تمويه ولا استكراه، إذ أن آياته كلها على جانب عظيم من الفصاحة حتى ما كان منها خاصاً بالأوامر والتواهي التي يجب منطقياً أن تكون في أسلوب هادئ، كما أن سير الأنبياء، وأوصاف بدء الخلق ونهايته والأحكام، وخصائص الله وصفاته. كل ذلك يتكرر ذكره في هذا الكتاب العجيب بأشكال وصور متعددة. ولكن دون أن يفقد شيئاً من روعته ومكانته. وكذلك فإن الانتقال من موضوع إلى موضوع في القرآن يحصل كثيراً، ولكن بغير أن ينحط التعبير عن مستوى ودون أن تقل حلاوته، كذلك فإن التعمق وسلامة التعبير، وهما صفتان يندر أن يجتمعان معاً. وقد ظهرتا محليتين في القرآن، وفيما عدا ذلك، فإن كل صور البلاغة تجد تطبيقاً كاملاً في القرآن، فكيف إذن. والحالة هذه يمكن القول بأن هذا الكتاب العجيب من صنع محمد الذي لم ينظم طوال حياته سوى بيتاً واحداً من الشعر وهو:

- * أنا النبي لا كذب.
- * أنا ابن عبد المطلب.

ولقد تحدى النبي قومه أن يأتوا بكتاب مثل القرآن أو بسورة واحدة

منه، ومع أن الفصحاء من العرب كانوا أكثر من رمل الصحراء. فإن أعداء الإسلام لم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن، ولكنهم حاربوه بالسلاح، عندما لم يجرؤوا على محاربته بالكلام.

(٣) انتشار الإسلام

واصل الإسلام انتشاره منذ فجره إلى اليوم، ولم يتوقف عن الانتشار حتى في أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار، وقد انتشر بقوته الذاتية، وبفضل مبادئه التي تحمل عنصري التوحيد، والحرية.

يقول توماس أرنولد^(١): إن كانت دولة الإسلام قد انقسمت وانهارت وحدتها السياسية. فإن فتوح الإسلام الروحية قد بقيت لا تحول دونها الحوائل. حدث هذا برغم إغارة المغول على بغداد، وقيام حكام الأندلس بطرد المسلمين من الأندلس، كان ذلك يجري، والمسلمون يضعون أقدامهم في أرض جديدة، ويدخلون أهلها في دين الله، تلك هي جزيرة سومطرة، ثم كانوا على وشك أن يبدأوا تقدمهم الموفق في جزائر أرخبيل الملايو. وهكذا أقام الإسلام في ساعات أزمته السياسية بطائفة من أعظم غزواته الروحية.

ويقول العلامة مونتيه^(٢): في إفريقيا أناس من المرابطين هم دعاة تبشير حقيقين، وهناك طرق دينية أخذت على نفسها نشر الإسلام، على أن الإسلام ينتشر بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم، لأن كل مسلم في

(١) من كتابه (الدعوة إلى الإسلام).

(٢) من كتابه (حاضر الإسلام ومستقبله).

البلاد الوثنية داعية دين بحد ذاته. وقد أنشأ الدعاة المسلمين قرى يسكنها المهادون إلى دينهم من المحدثين في الإسلام، والمدرسة إحدى العوامل الفعالة لهم على الجملة عندما ينزلون ويستوطنون في بقعة جديدة يصرفون أولى عناءاتهم إلى إنشاء مسجد، و يجعلون بجانبه مدرسة.

وال المسلم ينشر دينه وهو متوفّر على تجارتة أو عامل في صناعته، والإسلام ينتشر من نفسه بواسطة القوافل التي ترحل إلى البلاد الوثنية، ودعاة الإسلام فيها عرّفوا من الغيرة يعمدون إلى ذرائع مختلفة، تناسب كل حال، بحسب الأقطار والشعوب التي يبيّثون دعوّتهم بين أهلها.

لا ينكر باحث ولا مؤرخ صلة الإسلام بالعلم وأثره فيه، وقد اتسعت هذه الظاهرة في إنتاج الباحثين الغربيين في الفترة الأخيرة إلى حد بدا واضحًا لا شبهة فيه. وقد رغبنا في هذا الفصل أن نجمع عصارة ما أثبته الكتاب المبرزون. وخاصة علماء الجامعات، وأساطير الدراسات الكيمائية والفلكلورية.

هذا ما أورده العلامة درابر، والعالمة مسمّر، والدكتور لويجي رينالدي، والأستاذ شاتليه. ومن الباحثين المعاصرين للأحياء جورج سارطون وفرانز ورنفال، والدكتورة سجريد هونكة.

أما العلامة درابر الأستاذ بجامعة هارفرد بنيويورك، فقد كان في مقدمة الباحثين في العصر الحديث الذي أشار إلى جهود العلماء المسلمين في بناء النهج التجريبي، وكتابه «المنازعة بين العلم والدين» كان شاهداً عادلاً لآخذه الباحثون المسلمين في أوائل هذا القرن حجة يردون بها على شبّهات المتعصّبين من الكتاب الغربيين. وقد استشهد بكتاباته: العلامة «فريدي وجدي» في دفاعه عن الإسلام، والشيخ مصطفى الغلاياني وغيرهما من الباحثين المسلمين.

(٤) الاسلام والعلم

وفي مجال الدفاع عن الإسلام: تبدو القضية الكبرى في اتهام الإسلام بإعاقة تقدم الثقافة والعلوم. ولسنا نحن الذين ندافع عن الإسلام، ولكن ندع بعض المنصفين من المفكرين الغربيين الذين فهموا الإسلام فهماً صحيحاً.

يقول إتيان دينيه: إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل الفكر، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر الفكر، ولا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكراً لله. لقد رفع محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات، وأعلى المراتب، وجعله من أول واجبات المسلم. ويقول «يوزن يوم القيمة مداد العلماء بدماء الشهداء، ويرفع فضل العلم على فضل العبادة».

ويرى الدكتور جرمانوس: أستطيع أن أجهر بعنتها الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس، وثقافة الإسلام بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة، أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقدرة.

* * *

ويقول ليوبولد فابس: ما من دين ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل. وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة. ويرى العلامة مسمري: أن بين دين الإسلام، والعلم رابطة قوية، فإن الإسلام لم يزدهر إلا بانتشار العلوم وتقديمها.

ويقول رينيه ميليه: لقد جاء المسلمون بمبدأ في البحث جديد. مبدأ

يتفرع عن الدين نفسه، هو مبدأ التأمل والبحث. وقد مالوا إلى العلوم، وبرعوا فيها. وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء، وقد وجد فيها كبار الأطباء.

ويقول الدكتور فرتنر رونتال: إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يليدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيين، حين يلاحظون ويهصرون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة.

ويقول جوستاف لوبيون: إن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب. وأن جامعات أوروبا عاشت خمسماية سنة بكتب العرب، وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق. وأن الشعوب التي دانت الأرض سلطانها قد عفت الأيام آثارهم، ولم تبق سوى ذكريات ألسنتهم وأديانهم، ولكن أهم عناصر مدنية العرب. وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية، ولا شك أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

(٥) التفسير التاريخي للإسلام

وفي مجال التفسير التاريخي للإسلام، يبدو مدى الفرق بين فهم المسلم للتاريخ وإحساسه به، وتأثره به. فالمسلم^(١) يحس إحساساً جاداً بالتاريخ، إنه يؤمن بتحقيق ملوكوت الله في الأرض، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه، ويحاولون أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره. ومن ثم فالمسلم يعيش دائماً كل عمل

(١) ولفرد كاتنول سميث.

فردي أو اجتماعي، في كل شعور فردي واجتماعي بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض، لأنَّه قابل للتحقيق، والتاريخ في نظر المسلم، سجل المحاولة الدائمة لتحقيق ملوكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديًا كان أو اجتماعيًّا ذو أهمية بالغة، لأنَّ الحاضر هو نتيجة الماضي، والمستقبل متوقف على الحاضر، أما الماركسي فيؤمن باحتمالية التاريخ بمعنى أنَّ كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية، ولكنه لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالذهب الماركسي وحده، وكل شيء عداه باطل، والماركسي يتبع عجلة التاريخ، ولكنه لا يوجهها، ولا يعيشها بأية مقاييس خارجة عنها. وما من دين استطاع أن يوحِي إلى المتدين به شعوراً بالعزَّة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطنان، وأنَّ اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وأنَّ الغربي لا يفهم الإسلام حقَّ فهمه، إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً أو باطنًا.

وإذا أردنا أن نطبق نظرية التفسير المادي للتاريخ على الإسلام. لم نستطع أن نحصل على نتائج واضحة - يقول العلامة تريتون: إذا صح في العقول أنَّ التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض، أو معظم الظواهر التاريخية الكبرى، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإنَّ هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرحب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم، واتساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة. إنها تقع في هذا الشيء الجديد، ألا وهو «الإسلام».

* * *

رأوا أن الإسلام قوة هائلة، فيه حقيقة واقعة، وديناميكية حية، وهو قوام علم العمران وسبيل الحضارة، وهو الطريق إلى جمع الكلمة، ونشر السلام، وتحقيق العدل بما يؤلف القلوب، ويربط بين الشعوب. وقد أنشأ المسلمون مذهبًا في الفقه. جديراً بالموازنة مع القانون الروماني، وأقاموا حضارة لا تقل عن أي حضارة معاصرة في أوروبا. والدين عند المسلمين حقيقة واقعة، وجزء متمنٍ لحياتهم اليومية، وهو ليس رداء يرتديه الأخبار والعلماء. ومن ثم فهو يجعل المسلمين إذا وقعت الواقعة، وأدھم ليل الخطوب ثابتي الإيمان. لا تزعزعهم العواصف والأتوناء، والإسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لا شائبة فيه، فهو فريضة على كل مسلم، وينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق.

(٦) طابع الشمول

وأبرز ما يتسم به الإسلام في نظر الدعاة إلى الإسلام، والمدافعين عنه على السواء «طابع الشمول»: يقول ليوبولد فابس: «إن أهم معطيات الإسلام، تلك المعطيات التي تميزه عن سائر النظم، هي التوفيق العام بين الناحية الخلقية، والناحية المادية من الناحية الإنسانية، وهذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الإسلام في إبان قوته وأينما حل، لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتقار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة. هذه الخاصة الظاهرة في الإسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن النبي محمد كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيها، في المظهر الروحي، والمظهر المادي. ونحن نعد «الإسلام» أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرهَا، إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا

والآخرة، والنفس والجسد والفرد والمجتمع، ونجد الإسلام وحده من بين سائر الأديان، يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحي دقique واحدة. فليس في الإسلام خطيئة أصيلة موروثة، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية. إن كل مسلم رهين بما كسب، والإسلام ينظر إلى الحياة بهدوء واحترام، ولكنه لا يبعدها. إن النجاح المادي مرغوب فيه، ولكن ليس غاية في نفسه، بل يقود الإنسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل، والغاية من جميع نشاطنا العلمي يجب أن يكون خلقياً.

ويرى الدكتور جرمانوس: أن الإسلام يبسط أمام معتقديه طريقاً وسطاً لا يتجرد فيه الروح من البدن، ولا البدن من الروح، بل يكون وسطاً بين الروح والمادة. ويقول إميل درمنجم: لقد وفق الإسلام بين الاتجاهين المتقابلين: المادي والروحي، وقال الرسول: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. وفي القرآن الكريم: «وابتغ فيها أثراك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا».

ويرى العلامة هورتن الحقيقة حين يقول: «في الإسلام وحده، تجد اتحاد الدين والعلم، فهو الدين والعلم، الدين الوحيد الذي يوحد بينهما، فتجد فيه الدين ماثلاً متمكناً في دائرة العلم، وترى وجهة الفلسفة ووجهة الفقه متعانقين، فهما واحدة لا اثنان».

ويقول رينيه ميليه: إن مبدأ التفريق بين عالم المادة، وما وراء المادة قد تنبه المسلمون له فجعلهم يقبلون على علومنا، ولا يرون فيها ما ينافق دينهم المشهور بالتسامح، وأنه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس.

(٧) قدرة الإسلام على الاستمرار

١ - وفي مجال الدعوة إلى الإسلام نجد أن الباحثين النصفين من الغربيين قد توصلوا منذ وقت بعيد إلى أهمية الإسلام بالنسبة للبشرية والحضارة الإنسانية. فالإسلام^(١) سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث، ولكنه لن يدع الحضارة الغربية تغلبه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم منذ مئات الأجيال، بعد أن طبعوا بطاعته، وصاروا جزءاً منه، وهم يمثلونه في سائر بقاع الأرض. وال المسلمين يستمرون في دينهم معاً اخذوا من الثقافة والمدنية الغربيتين، وفي الجامعات الكبرى نجد كثيراً من المسلمين لا يزال مجرب عقولهم إسلامياً. وفي المسلمين ميل قوي إلى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه.

٢ - والإسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق، والتقدم الذي نشاهده منذ قرن، دليل على أن الإسلام يسير مع المدنية جنباً إلى جنب، والإسلام سيظل موجوداً دائماً.

ويعرف «ليون روش»^(٢) أنه وجد في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم:

الأولى: قول القرآن «إنما المؤمنون إخوة» فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية.

الثاني: فرض الزكاة على كل ذي مال، وتحويل الفقراء حق أخذها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً.

ويرى «هاملتون جيب» أن الإسلام ما يزال في قدرته على أن يقدم

(١) كرستان ستوك هيرونجه.

(٢) من كتابه (ثلاثون عاماً في الإسلام).

للإنسانية خدمة سامية جليلة، فليس هناك أية قوة سواه يمكن أن تنجع
نجاحاً باهراً في تأليف الأجناس المتنافرة في جهة واحدة أساسها:
«المساواة». فإذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع
الدرس. فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع.

وما يزال الإسلام يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة. فهو
يقف في مكان وسط بين الرأسمالية والبلشفية.

ويقول الدكتور جرمانوس: إن مستقبل العالم وخلاصه من خطر
الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده، لن يكون إلا في المزاوجة بين الحضارة
الأوروبية بدرسها وعلمها، وبين الروح السامية التي تنطوي عليها عقائد
الدين الإسلامي، وإنني أؤمل أن يكون الإسلام قادرًا مرة أخرى على
تحقيق هذه المعجزة في سبيل وحدة الجماعة الإنسانية.

ويقول العلامة رينيه ميليه: يهمي هنا أن أقول إننا لا نستطيع أن
نحكم على تلك الأمة بالسقوط، لأن الأمة التي أمكنها أن تنهض في وقت
ما، يمكنها أن تعيد نهضتها في المستقبل. لقد أفل نجم المدينة الإسلامية
بعدما أمرت وأبانت فترة طويلة من الزمن، ويكتفي هذه المدينة نفحة من
نسميم الحياة الجديدة ل تسترجع جمالها وعظمتها وجدها. إن تلك الصبغة
العامة اللينة التي اتصف بها مبادئ الإسلام هي التي جعلته يقبل ضروب
المدينة، ولا ينافيها. بل يقابلها بصدر رحب. ويقول بعضهم: إذا كنا
نفرض أن المسلمين يسيرون في طريق المدينة الغربية سيراً حيثشاً. فلماذا
نعتبر أن هناك مدينتين، ولماذا لا تفني المدينة الإسلامية العربية في جسم
المدينة الغربية ما دام المسلمون يأخذون العلوم، والعلوم أساس كل مدينة،
على أني لا أشارك أصحاب هذا الرأي في رأيهما. لأن العلم له دائرة محدودة لا
يتعداها، وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات، ومثل عليا، وقيم
لها تأثير كبير. إن العلم منها اتسعت آفاقه، فلا يزال أمامه عالم غامض،

وأنه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النموis، وعلى ذلك فلا أرى حدًا لبقاء الإسلام، ذلك الدين الذي أتقى بأحسن العقائد ملائمة للفطرة. والذي سعد حظه بأن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية الأديم لم تتبدل بالغيم، فظل نوره متلاًئماً في تلك البلاد الواسعة الأطراف، ولم تستطع الأحداث أن تطفئ ذلك النور الرباني الساطع. إن مبدأ التفريق بين عالم المادة وما وراء المادة قد تباه المسلمين إليه، يجعلهم يقبلون على علومنا. ولا يرون فيها ما ينافي دينهم المشهور بالتسامح.

(٨) اللغة العربية : لغة الإسلام والعرب

لقد كانت اللغة العربية لغة الإسلام ثقافة، والأمة العربية قومية، وقد وصفها جورج سارطون بالعقرية فقال: أتحدث عن عقرية اللغة العربية. ففي المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته، ثم إن الإسلام نزل على الرسول باللغة العربية، وهكذا كانت «العربية» لغة القرآن، ولغة الوحي، ولغة أهل الجنة. ومن ثم أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم، وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى، وهي إلى اليوم لم تزل لغة أمّة موزعة في جميع بقاع الأرض.

وأن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله ﷺ كانت من أعظم اللغات في الوجود، وأن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جداً. ويمكن لتلك المفردات أن تزداد بلا نهاية. ذلك لأن الاشتقاء المتشابك والأنيق، يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة.

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب، كانت بهذا التحديد كاملة، وهذا نحن أيضاً هنا أمام اتفاق عجيب. فإن الرسول مع أنه أميّ كان يملك

ناصية اللغة. إذ أتاه الله بياناً. ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد، وقد جعل القرآن الكريم «من اللغة وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة».

ويقول هنري لاوس: إن اللغة العربية عندي من أهم دواعي وحدة الثقافة بين المسلمين، وأهم أسباب تفوق هذه اللغة. أنها اللغة الرسمية، ولغة الدين، ولا بد لأجل فهم القرآن والحديث النبوى من معرفة اللغة معرفة دقيقة. وقد قام اللغويون والنحاة بجهود عظيم في البصرة والكوفة لخدمة هذه اللغة.

(٩) دور العرب والمسلمين في العلم والحضارة

وهذا دور قد أنكره الغربيون طويلاً، ثم عادوا فاعترفوا به تحت ضغط المنصفين من الباحثين الغربيين المتقدمين أمثال: توماس كارليل، وجوزتاف لوبيون، وأقربها إلينا كتاب «شمس الله تسقط على الغرب» للكاتبة الدكتورة سجريد هونكة التي تقول: لقد نادى النبي العربي بالطموح إلى المعرفة في كل مكان وزمان، لأن المعرفة تنير سبيل الإيمان. وهكذا لم ينصرم القرن الإسلامي الأول حتى ازدهر العالم العربي في سبيل محيط من الظہور، وحين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى، وجهاتها وقف العرب على أبوابها يرتفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون، لشد ما يغبن حقهم من يكتفي بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم بعدما حفظوه من الدمار، فذلك يعني في الواقع التقليل من

قيمتهن، والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري، وجعلهم مجرد وسطاء لا غير. والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الغرب مدموعة بآثارهم. إن قواميس اللغات الأوروبية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بال الحاجات اليومية، أو الأطعمة، أو الألبسة، أو العقاقير. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها، وأصطلاحاتها. وقد أخذ الغرب عن العرب فكرة البريد، كما نقلوا كثيراً من فنون الزراعة. وقد أخذ العرب الأرقام الهندية في أواخر القرن الحادي عشر، ويعود الفضل الأكبر في تعرف الغرب على الأرقام العربية إلى الخوارزمي الذي نقلت كتبه جيئاً إلى اللغة اللاتينية، وكانت مرجعاً هاماً للعلماء الغربيين.

ويقول جورج سارطون: لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته معجزة العلم العربي. وقد أوردت كلمة «معجزة» لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم، مما يخرج تقربياً عن نطاق التصديق.

وليس لذلك شبه في تاريخ العالم كله، ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذي لا يكاد يصدق في العالم العربي، لم يبدأ إلا منذ القرن الثاني للهجرة، ويجاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الإنتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما. وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين. إن هذا الحكم يكشف عن خطأ فادح. فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكاراً صحيحاً أكثر من ذلك الظمآن الذي تملك على القادة العرب حواسهم في سبيل المعرفة على أننا لا نشك أن قسماً من هذه المعرفة، احتاج إليه العرب حاجة مباشرة للإدارة والحكم، وأعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك شيئاً: علم الحساب الجديد، وعلم الثلث الجديد.

(١٠) الشريعة الإسلامية

أما «الشريعة الإسلامية» فقد استطاعت أن تحصل على اعترافات بتقدير العلماء لها. فيقول العلامة ساتينيلانا: أن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشرعهم المدني إن لم نقل أن فيه ما يكفي للإنسانية كلها.

ويرى العلامة «فمبري» أن فقه الإسلام واسع إلى درجة أنني أقضى العجب كلما فكرت في أنكم لم تستتبوا منه الأنظمة والأحكام المواقفة لزمانكم وببلادكم. ويقول العلامة الألماني: «كهرل» على أثر ظهور رسالة الدكتور: محمد فتحي في مذهب «الاعتساف» في استعمال الحق، والخروج عن حدود الحق في غير ما شرع له الحق قال: إن الألمان كانوا يتبعون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية «الاعتساف»، والتشريع لها في القانون المدني الذي وضع ١٧٨٧. أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي، وأفاض في شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامي، وأبان لنا أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا فيه طويلاً ابتداء من القرن الثامن للميلاد. فإنه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعدة قرون، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية.

ويقول العلامة ليفي أومان في مقدمة رسالة الإثبات للدكتور محمد صاق فهمي: أن في هذه الرسالة ما يكفي للاعتقاد بأن التشريع الإسلامي كافٍ (وحده) لأن يكون تشريعاً عاماً، وعلى ضوء كتاب الدكتور صادق فهمي: يجب اعتبار الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدرأً حياً للقانون المصري، ومناطاً للحق في أدواره المختلفة.

ويقول الدكتور هوكنج أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد في كتابه:

روح السياسة العالمية: «إن سبيل تقدم المالك الإسلامية ليس في اتخاذ الأسلوب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً في حياة الفرد اليومية. وعن القانون والنظم السماوية، وإنما يجب أن يجد الماء في الدين مصدرًا للنمو والتقدم، وأحياناً يتسائل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة، وإصدار أحكام مستقلة تتفق، وما تتطلبه الحياة العصرية، فالجواب عن هذه المسألة هو أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة، والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي، وإنما في انعدام الميل إلى استخدامها. وإننيأشعر بكوني على حق. حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ الالزمة للنهوض».

ويقول العلامة هوتنر ندرون وريفي: أنه يوجد في الفقه الإسلامي جميع القواعد الجوهرية التي تتعلق بشرعية الحرب والسلم.

ويقول العلامة الكاثوليكي شيرل عميد كلية الحقوق في فيينا: أن حمدًا الذي تفخر البشرية بانتسابه إليها. استطاع أن يأتي قبل بضعة عشر قرناً بتشريع سنكون نحن الأوروبيون أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام.

بعد هذا الاستعراض السريع للحقائق العشر نقول: لقد حرص النفوذ الغربي أن يجعل دون الدعوة إلى الإسلام بأمررين:

الأول: عزل اللغة العربية في مختلف الأقطار التي احتلها وتحميدها. وإحلال لغته بدلاً منها وإعطائها فرصة النمو.

الثاني: إثارة عديد من الشبهات والشكوك حول الإسلام حتى يظل الإسلام دائمًا في قفص الاتهام، وفي موضع الإيهام، وحتى يظل كتابه

ومفكروه مشغولون دائمًا بالذود عنه، والرد على ما يثار حوله. وفي موقف الدفاع لا موقف المبادرة. وبذلك لا تتاح الفرصة له، لكي يشق طريق الدعوة والتعریف، وکسب مناطق جديدة، وعقلوں جدیدة. حيث يصدر ذلك عن تعصب، ولكنه يصدر عن إيمان أكيد. بأن الإنسانية لو عرفت الإسلام حق المعرفة لما اختارت لها سبيلاً غير سبيله. ولكن هذا العمل من أجل الدفاع عن الإسلام، أتاح لها فرصاً للكشف عن جوهر الإسلام، وإبراز خصائصه، ومکن للذين قرأوا ما وجه إليه من شبہات أن يجدوا ردوداً حاسمة لكل ما عرض لهم، وقد أتاحت هذه الفرصة تحقيق أمرين:

الأول - أن الإسلام قد كشف عن منهج في البحث غایة في الدقة والسمحة، بعيداً عن الغموض و بعيداً عن التعصب، وخالياً من عبارات القبح. أو كلمات الهجاء مع السماحة والأخوة الإنسانية.

الثاني - أنه هز عقول المفكرين المسلمين فأزال عنهم طابع الجمود، وحثهم على البحث والتنصي ، وإبراز جوهر الإسلام في أسلوب جديد، ومنهج عصري ، وكشف في نفس الوقت عن طابع الاجتهاد والتجدد، والحركة وقدرة الإسلام التي لا تختلف عن الالتقاء بالحضارات والثقافات والامتزاج بها، وامتصاص خير ما تقدمه. ومن هنا استطاع جوهر الفكر الإسلامي العربي أن يبرز على حقيقته، بعد أن أزيحت عنه أغشية الجمود والتقليل التي فرضتها ظروف مرحلة «الضعف» التي مر بها الإسلام خلال القرون الأخيرة. وقد كان إبراز هذه القيم على وجهها الصحيح، قادرًا أن يرد بعض خصوم الإسلام عن خطئهم، وأن يکسب إلى صفة كثيرةً من طلاب المعرفة الخالصة لوجه الحق.

ومن هنا التقت الدعوة إلى الإسلام مع الدفاع عنه، وما زال سبيلاً الدفاع عن الإسلام في حاجة إلى مزيد من الجهد، بوصفه أحد سبل التعریف بالإسلام، والدعوة إليه، ذلك أن النفوذ الأجنبي، وحركات

التغريب والشعوبية النابعة من هذا النفوذ. ما زالت تواصل عملها في إثارة الشبهات، وإعادة ترديدها على نحو أو آخر.

* * *

والحق أنه لا يكفي أن نواجه هذه الشبهات بالرد عليها ودحضها على أسلوبنا ومنهجنا العربي الإسلامي، بل إنه كلما وجدت إجابات كتبها مفكرون منصفون من غير المسلمين كان ذلك أبعد أثراً في النفوس. وذلك لعدة أسباب.

- أولاً : أن يكون قد شهد بالحق شاهد من أهل أولئك الخصوم.
- ثانياً : إن كلمة الباحث المسلم هي كلمة «الضرورة» بينما كلمة الباحث غير المسلم إن خلصت فهي كلمة «الإنصاف».
- ثالثاً : تتميز كلمة الباحث الأجنبي عن الإسلام بأنه خروج من النفس والعقائد الأصلية. إذ لا يمكن أن يدافع أحد عن غير دينه إلا بعد أن يكون قد قطع مرحلة طويلة في الدرس والتأمل، حتى يبلغ مرحلة اليقين بما يقول.
- رابعاً : إن الكاتب الأجنبي الذي ولد في غير بيئه الإسلام، وارتبطت مفاهيمه بدين آخر وبيئة غير بيئه العرب، مع ما هو معروف من ارتضاع لبان كراهية الإسلام في أغلب ثقافات الأمم الغربية، يجعل للكلمة أهميتها.
- خامساً : من أهم مميزات الكلمة الكاتب الغربي أنه عاش حياة دينه ومجتمعه. ولذلك فإن كلمته إنما تصدر عن تجربة أصلية. وعن مقارنة أكيدة، وعن تطلع صادق إلى مفهوم الإسلام.
- سادساً : إن الكتابات المنصفة عن الإسلام إنما جاءت تلقائية، وبغير دافع مادي على الإطلاق.
- سابعاً : ما زال كثير من الباحثين يطمئنون إلى الكلمة الكاتب الغربي

ويرونها حجة في البحث. ودليلًا أكيداً على الحقيقة، وقد دفع هؤلاء المنصفون بعض كتابنا العرب إلى اكتشاف الحقيقة التي كانت بين أيديهم أصلاً من قبل، ولم ينبهوا إليها.

ثامناً : إن وجهة النظر الأخرى إذا كانت منصفة ربما تكون أكثر جرأة وحيوية من كلمة صاحب القضية، وفي الكلمات المعروضة هنا تقدير لا حد له لجوانب من الفكر العربي الإسلامي ما نزال نحن نتحامها، ولا يكاد البعض يعرض لها بمثل هذا الإيمان، بينما يؤمن بها هؤلاء الكتاب.

هذا، ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى أن هذا التيار الجديد في الفكر الغربي لإنصاف الإسلام ما زال ضعيفاً إزاء كتابات خصوم الإسلام من المبشرين وبعض المستشرقين، وكتاب الاستعمار والتغريب. ولكن من المعتقد أن يصبح يوماً مصدراً ثابتاً للضوء في مجال الحيرة التي تمر بها الإنسانية اليوم، وتتطلع من خلالها إلى نور جديد.

البُشْرَى

القرآن وثيقة الإسلام الخالدة

لكل دين:نبي وكتاب . ودين الإسلام خاتم الأديان: أرسل الله به رسول الله مُحَمَّداً، وأنزل عليه القرآن نبراًًاً هذه الرسالة العالمية الخاتمة.

فالقرآن كتاب الله الخالد الذي أنزل منجماً في اثنين وعشرين سنة، واثنين وعشرين يوماً، تبتدئ من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد النبي ﷺ، حيث نزل عليه في غار حراء أول ما نزل من القرآن «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» سورة العلق. وتنتهي بناص ذي الحجة يوم الحج الأكبر من السنة الثالثة والستين من ميلاده ﷺ حيث نزلت آية الختام «اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» سورة المائدة.

وقد انظم القرآن الكريم منهج رسالة الإسلام: عقيدةً وعبادةً وتشريعاً وأخلاقاً. ورسم للإنسانية طريقها إلى الحق والعدل والحرية. على ذلك النمط الذي اختاره الحق تبارك وتعالى في أسلوب القرآن. وقد أحيط القرآن منذ نزوله بقدر كبير من التمييز والأفراد. حتى أن الرسول نهى عن أن يكتب حديثه حتى لا يختلط بالقرآن. وقد تم تدوين القرآن كاملاً بإشراف رسول الله، وتحت رقابته، فسلم من كل ما تعرضت له الكتب المقدسة.

نزل القرآن الكريم بلغة قريش، وهي أفعى لهجات العرب، وأبيه البالغة أنه نزل بتراكيب لغة العرب. ولكنه جاء خالفاً لكلامهم في الطريقة والمضمون وإن جانسها في المادة والتركيب. وهذا هو التحدي الذي واجههم، فلما عجزوا عن بلوغ مثاله آمنوا بأنه منزل من عند الله.

وأعظم آثار القرآن على اللغة العربية أنه حفظها من الضياع، وكفل لها الجدة وحرسها عبر الزمان، وكفل لها البقاء، وخاصة في أزمان الغزو، وأبان غلبة اللغات الفارسية والتركية، كما حفظ القرآن اللغة العربية من العجمة حين دخلت في الإسلام الأمم والشعوب، وحين اختلفت لهجات الأمم ظل الإسلام قادرًا على حفظ وحدة اللغة العربية دون أن تتحول إلى لهجات إقليمية. ولقد أتاح القرآن للغة العربية أن تكون لغة الدين ولغة العلم. ولعل اللغة العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي ظلت على مدى أربعة عشر قرناً مرتبطة بمعناها الأساسي دون أن يطرأ عليها أي تغيير. إذ ظلت محفوظة بأسسها من كل تبديل. ومن هنا فإن مقاصد القرآن الكريم ما زالت - وستظل - باقية حية على نفس الصورة التي أنزل بها الوحي.

ولذلك فمن الأهمية بمكانت أن يبحث المفكرون الغربيون في تاريخ القرآن. وفي مضمونه وأن يحاول الكثير من خصوم الإسلام إثارة الشبهات والشكوك حوله. ومن الحق أيضاً أن يقال أن هناك من الباحثين من استطاع أن يهتدى إلى عظمة القرآن، وأن يقدر حق قدره، وأمامنا ثلاثة من المفكرين الغربيين الذين استطاعوا أن يتناولوا مباحث القرآن بشيء من الإنصاف يكشف عن تيار واضح دخل إلى الفكر الغربي وأثر فيه.

فالمعروف أن القرآن الكريم قد ترجم منذ أكثر من ستة قرون إلى اللغات الأوروبية المختلفة وأن ترجمته كانت تهدف إلى الكشف عن عقلية المسلمين وجوهر تفكيرهم، وكان يصاحب هذا العمل الكثير من التحiz

والخصوصة، وقد من هذا الدور وانتهى إلى دور آخر يتمثل في كتاب أتيح لهم أن يجدوا في أنفسهم القدرة على أن يقولوا الحقيقة.

وهذا «فيليب دي طرازي» في بحثه التاريخي عن القرآن الكريم يحاول الكشف عن عظمة القرآن الكريم، وتميزه دون سائر الكتب المنزلة الأخرى، ويرسم علاقته باللغة العربية وأثره فيها. وعنده ليس هناك كتاب عربي أثار هم العلماء والباحثين. مسلمين وغير مسلمين في جميع أنحاء العالم. كما أثارها القرآن منذ صدور الإسلام إلى اليوم.

يقول تناول كثير من الباحثين الغربيين والمستغربين والمستشرقين القرآن الكريم بالدراسة والبحث، وأجريت عشرات الدراسات حول تاريخه ومضمونه، كما أجريت ترجمته إلى عديد من اللغات، وقام البعض بتبييب آياته على أبواب وفنون. أما هذا البحث الذي نعرضه. فقد حاول كاتبه أن يكشف في وضوح عن عظمة هذا الكتاب في مجال كونه مصدر اللغة العالمية لل المسلمين والعالم الإسلامي.

يقول «القرآن الكريم هو الكتاب الذي يقدسه المسلمون في مشارق الأرض ومحاربها ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه أنزل على النبي (محمد بن عبد الله) وأنه آخر الكتب السماوية نزولاً، وسمى القرآن الكريم: كتاباً وفرقاً على أساس ما ورد في سورة آل عمران. وقد ضبطه الخليفة عثمان. وكتب منه أربع نسخ بعث بها إلى الأمصار. وأمر الناس أن يجعلوها أساس مصافحهم، ومن المقرر ثابت أن للقرآن فضلاً عظيماً في تأليف شتات العرب. وجع كلمتهم، مع الأمم المغلوبة المتباينة في لغاتها وأجناسها وأوطانها. فكون من مجموعها عنصراً جديداً مستقلاً. ومن المقرر أنه لو لا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى في الخافقين، ولو لا القرآن لما أقبل ألف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة، وكتابتها ودرسها والتعامل بها.

وعنده أن القرآن عزز الجامعة العربية، وصان عنصرها، وضمن سلامتها على توالي الزمان. ذلك أن الإسلام فرض كفاية على كل مسلم أن يدرسه ويحيد قراءته. قبل أي علم من العلوم البشرية. هكذا حفظ التفاهم بالعربية بين الشعوب الإسلامية وغيرها من الشعوب.

وما أن تقهقرت الدول العربية، وتقهقرت معها الحضارة الإسلامية القديمة. خيف أن تندثر لغة تلك الدول، وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على أمرها. ذلك أن اللغة العربية استعانت على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الروسي خلافاً لما انتاب لغات الأقوام الذين اندمجوا في العرب بعد الإسلام كالروم والسريان والأقباط والأبطاط والصابئة واليهود وغيرهم من الدول والشعوب.

ويقول: ومن روائع تأثير القرآن أن أئمة المسلمين من غير العرب يرتلونه بلغته العربية ويحافظون على تحويده، ويشرحون أساليبه. وإذا أمعنا الفكرة في أولئك المسلمين غير العرب ألفيناهم متشردين في أغلب الأقطار شرقاً وغرباً. أعني في تركيا وإيران والكردستان وأفغانستان وبلوختستان. وفي روسيا والبلقان وجادوا والصين واليابان. وبعض أنحاء أوروبا وأمريكا واستراليا.

وتلك مزية افرد بها القرآن دون سواه من الكتب المنزلة. فالتوراة مثلاً لا يقرأها بلغتها العربية إلا أحبار اليهود، ونفر من تفرغوا لدراستها. أما سائر اليهود. فإن كلا منهم لا يقرأ التوراة إلا بلغة سكان البلاد التي يعيش فيها.

وكذلك المسيحيون في أنحاء العالم بأسره. فإنهم يقرأون كتابهم الإنجيل مترجماً إلى اللغة الجارية الاستعمال لدى كل شعب. ومن هذا يتضح أن القرآن وحده هو الكتاب الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأوطانهم، وأحدث انتشاره تأثيراً كبيراً في أخلاق

الشعوب التي دانت بالإسلام وعقولها وأرائها وميولها.

ويرى طرازي أن الصفة القرآنية تتجلّى دائمًا في كتاب الإسلام ومؤلفاتهم، حتى إذا كتبوا في موضوعات لا صلة لها بالدين، تشهد على ذلك مصنفاتهم في الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكميات والطب والفلسفة والتاريخ وغيره حتى الصرف والنحو.

وخلاله القول عنده أن «القرآن» في لغته العربية البجعة له تأثير عميق، فقد حرص المسلمون بقوة القرآن الكريم، وما برحوا يحرصون على سنن الإسلام وفرائضه في كلّياتها وجزئياتها، وأولوا غاية الاعتناء بضبط سوره وأياته وأجزاءه وألفاظه وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته، وتوفروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصاريفه وكنياته ودقائقه، كما أقبل فريق كبير من أمّة الإسلام وعلمائه ومفكريه في بلاد المشرق منذ العصور الغابرة على دراسة القرآن، وأمعنوا النظر فيه، وتعلّمـوا نواميسه وشرائعه. ثم كتبوا عنه الكثير في تصانيفهم وفتاويمـ الشرعية، واتخذوه دستوراً في بعض القضايا والفرائض المدنية.

* * *

وقد تفرّغ بعض كبار رجال الدين من النساطرة من إنشاء قوانين مدنية للتمهّم من أحكام القرآن وسنته، وتصدّى غير واحد من قدماء مؤرخي النساطرة لذكر القرآن وتأثيره في القبائل العربية، وفي الشعوب المجاورة لها، وليخائيل الكبير بطريق السريان (١٢٠٠ م) عدة أحكام مدنية استخلصها من القرآن الكريم. وعمل أبناء ملته بموجبها، وجاء بعده أبو الفرج بن العبري (١٢٨٦ م) فخلف فصولاً ممتعة في الشرائع والفرائض اقتبسها من القرآن الكريم، وخصص المؤرخ الرهاوي السرياني فصولاً جمة في مؤلفه (تاريخ الأزمنة) لذكر القرآن ونواميسه وأحكامه، ونبغ في الملتين اليهودية والقبطية طائفـة معتبرة من الكتاب والأعلام.

هؤلاء الأعلام والكتاب تصدوا لدراسة القرآن الكريم في المشرق. وإذا انتقلنا من الشرق إلى الغرب رأينا رهطاً من نواعي المستشرقين ينافسون المسلمين في دراسة القرآن وشرحه وتحليله، ويعتنون بتدوين تواريخته، واكتنال خطوطاته، ومن ذلك أن المستغرب بابا غاتيني الذي قام بطبع (القرآن) في مطبعة البندقية منذ القرن السادس عشر، ولم يقتصر علماء الاستشراق على طبع نصوص القرآن فقط. بل وضعوا تأليف ضافيه وافية في تفسيره وتعديل مزاياه.

ولستنا نعرف كتاباً عربياً آثار هم العلماء والباحثين في أربعة أقطار المسكونة، كما آثارها مصحف القرآن منذ صدور الإسلام إلى اليوم.

تلك حقيقة صادقة لا تفتقر إلى برهان يسندها أو حجة تدعمها، ولستنا نعرف كتاباً عربياً آثار هذه الهمم التي شملت المسلمين وغيرهم على السواء. فأكباوا على تلاوته، وبالغوا في دراسته، مثل القرآن.

١ - وفي بحث للكاتب الفرنسي مارسيل كابي قام بترجمته العلامة: فريد وجدي: يشهد الكاتب بأن القرآن كتاب موحى به، وأنه يفوق ما عرف من هذا النوع كثيراً «إن العقيدة التي بثها تصلح أن ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية. وهذا هو سر قوة الإسلام وسماته ووحدته». وهو ينفذ إلى رأيه في وضوح فيقول: إن القرآن يحمل إلى الناس أصول العدالة في النظام الاجتماعي الذي يقوم بين الأفراد والجماعات. وهو - أي القرآن - يفرض على الجماعة حماية الأفراد. وهو بهذا الأسلوب يوافق في جوهره أحدث المناهج الاجتماعية العصرية.

ومن حق أن يقول مارسيل كابي: إن القرآن سبق المناهج الاجتماعية العصرية حين أقر أسلام الأنظمة وأصلاحها لقيام الروابط بين الأفراد والجماعات.

ويتلفت كابي إلى ميزة الإسلام الكبرى فيقول: ليس في الإسلام رهبان، ولكن فيه شراح ومفسرون لكتابه، ثم يعود مرة أخرى إلى مفاهيم القرآن، كما استطاع أن يفهمها فيقول: نظم القرآن حياة كل فرد وحياة المجتمع، ودعا إلى الحق والواجب، واحتفظ بالحب لله وحده.

ثم يقول: «إن القرآن لا يرى وجود طائفة موضوعة فوق الواجبات في المجتمع، وطائفة أخرى ملفوظة خارج دائرة الحقوق» وعندى أن هذا هو سر بقائه ونفاذته إلى اليوم، بالرغم من تقلبات التاريخ.

ثم يصور حياة المسلمين في ظل الروح الاجتماعية التي فرضها الإسلام على أهله فيقول: تأمل هذه الملايين من المسلمين تدعى خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة، فيجيئون داعيها ويتوجهون صوب الكعبة، وينتظمون في صلاة واحدة، يركعون ويسجدون جمِيعاً على نحو واحد، ويدينون جمِيعاً بعقيدة واحدة وشريعة واحدة، معترفين جمِيعاً بالعقد الاجتماعي الذي يربطهم خلال هذه الحركة اليومية الهائلة يشعر كل واحد أنه تحت نظر الجميع، لأن حارس العقيدة والشريعة والعقد الاجتماعي هو الرأي العام في الإسلام. ثم يقول: أنه لا يوجد في العالم رأي عام له مثل هذا السلطان الذي يسري في المجال الأدبي والاجتماعي على حد سواء.

فالإسلام ليس وقفاً على نظامه السياسي. ولكنه عقيدة وشريعة ووحدة اجتماعية.

٢ - أما الباحث الفرنسي. ل. أ. سيديو مؤلف كتاب «تاريخ العرب العام» فإنه حين يتناول في كتابه أثر القرآن في حياة المسلمين يصل إلى بعض الحقائق الجديرة بالتسجيل. فيقول: الحق أنك لا تستطيع أن تدعى أن محمداً ترك واحدة من الحقائق الكبرى دون أن يعلّمنا على رؤوس الأشهاد. الحق أنك لا تجد في القرآن من العقائد والمبادئ والشعائر ما هو غير منسجم مع ميول الأمة العربية.

ويحيط المسلمون القرآن بأعظم تقدیس، فلا يفتحون المصحف إلا بعد الرضوء. ومن القرآن يستبطن المسلمون قسماً كبيراً من عبادتهم، ويزين المسلمين جدار مساجدهم وأعلامهم ومبانيهم بالأيات، فتذكّرهم بما هو واجب عليهم نحو الله، ونحو بني ملتهم، ونحو أنفسهم.

ويتسم الإسلام ببساطة هي مقتضى العجب، فقد بني الإسلام على قواعد خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان. ويشير سيديو إلى أن التوحيد هو أبرز مبادئ الإسلام، وإليه أشار القرآن في عديد من الموضع. وإليه دعا الرسول الناس، وإليه يرجع سبب سمو الإسلام على جميع الأديان ويقول:

وقد أعلن محمد صحة كتب النصارى واليهود. وأشار إلى أن (القرآن) جاء متتماً لما تقدمه، ومحمد إذ كان رسول الله الخالق، بلغ أن الله لا ولد له. وإن الله الكون واحد. وأن الله مصدر كل قوة، وصحف القرآن توحّي بمحبة شديدة لله. ويودّ محمد لو أن يجتذب الناس إلى عبادة خالق كل شيء بغير واسطة، فلم يأل جهداً في الدلالة على قدرته داعياً إلى النظر في عجائب الخلق.

ويرى سيديو أن مفهوم القدر في الإسلام مختلف عن مفهوم الجبرية. وأن ليس في القدر الإسلامي ما يبيت شجاعة المسلم، أو يؤدي إلى فتور همه. فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على جميع الناس، وتensus حدّاً لأعمالنا، ويرد على القائلين بأن القرآن ينكر حرية الإنسان وإرادته، وأنه يحصر الإنسان ضمن دائرة من عدم الاقتراح سلبية فيقول: ونحن لا نرى ذلك من الحق، ونرى أن القرآن الكريم يذهب إلى حرية الإنسان، وتأثير إرادته في عمل الخير والشر، ويجب أن نعترف بأن محمداً أثبت خلود الروح. ومن بؤس الحياة ألا يفكر الإنسان في المستقبل، ومبدأ المستقبل

من أقوم مبادئ الأخلاق. ومن مفاخر محمد أن أظهره قوياً أكثر مما أظهره أي مشروع آخر.

ويستطرد سيديو في الحديث عن فضائل القرآن «وفي القرآن حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي ، وفي القرآن دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم. وفي القرآن مقت للعجب والغضب. وقد دعا القرآن في صراحة إلى تحريم الخمر والميسر. وعرض سيديو لموقف القرآن من المرأة وعارض الرأي القائل بأن ما تتسم به حياة المرأة في عصور الضعف التي مرت بالعالم الإسلامي هو: من أثر الإسلام. وأعلن سيديو أن الإسلام قد عالج مسألة تعدد الزوجات بحكمة بالغة. وقد كان عدد الزوجات قبل الإسلام لا حدّ له. وأشار إلى أن القرآن قد رفع شأن المرأة، وجعل حصة الأنثى في الميراث تعد نصف حصة الذكر. مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية. وإذا كان القرآن قد جعل الرجال قوامين على النساء، فإنه قد أعطى للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها.

* * *

وأشار سيديو إلى عناية القرآن بالأبناء فقال: لا شيء أدعى لراحة النفس من عناية القرآن بالأولاد. فقد حرم عادة «الوأد» واهتم بحال اليتامي. وكان «محمد» يجد في ملاحظة صغار الأولاد أعظم لذة وأشار إلى أن الزواج في الإسلام لا تحوطه طقوس معقدة، ويكتفي لإتمامه «إيجاب وقبول من الزوجين أمام شاهدين». وقال إن القرآن حرم الزواج من الأمهات والبنات والأخوات والعمات وال الحالات». وأشار سيديو إلى أن الإسلام أحل الطلاق، ولكنه جعل ذلك مشروطاً ببعض القيود حتى يمكن الرجوع فيه عند الطيش والتهور - وجاء الزنا صارم في القرآن. وللقرآن نصائح غالبة في سورة النور. وقال: وأمر القرآن بأن تكتب العقود أمام

شهدوا. وأعلن فساد البيوع التي تم بغير تغيير. وحضر الاحتكار، وحبس الأقواء، ولم ينظم القرآن صلات المسلمين بعضهم ببعض فقط. بل نظم صلاتهم بغير المسلمين.

وما تقدم نرى أن القرآن أبصر كل شيء، وأنه لم يهمل أمراً دينياً أو مدنياً أو حربياً، وترى السلطة الروحية في قبضة رجل واحد، ولا ترى سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية، ولا طبقات ذات امتيازات.

وعارض سيديو ما جاء في دعاوي بعض المؤرخين من أن القصص القرآنية مقتبسة من التوراة وقال إن منهج القرآن في عرض هذه القصص مختلف وبعيد عن طابع الاقتباس.

وأشار إلى أن القرآن كان عاملاً هاماً في ربط جميع المسلمين بقاعدة مشتركة، وأنه وحدها تحت لواء واحد، وجعل بينها تضامناً قوياً، حملها على أن تقلع عما تعودته من الأثراء، وألزمها الامتثال لنظم واحدة عادلة، فترع من صدورها الأحقاد، مما جعلها تتضافر على بناء حضارتها وقال: ومن هنا يبدو الاختلاف الواضح بين القرآن وبين التوراة التي أريد قياسها إليها، ودافع سيديو عن الرسول، وعن اتهام الغربيين له بالقصوة. وقال إن ذلك من التجني على حقائق التاريخ. فإن الرجل الذي ألغى عادة الثأر الموروثة الكريهة، وعاده وأد البنات الفظيعة لا يمكن أن يوصف بالقصوة فضلاً عن العفو الكريم الذي شمل به أعداءه بعد فتح مكة والرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل في الحروب

وقال: إن محمدًا لم يسيء استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، ولم يأل جهداً في تقويم من يجور من أصحابه، وأنه رفض قتل الأسرى في بدر، وعفا عن قاتل حمزة، حينما حل وقت مجازاةبني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لخليفهم القديم سعد بن أبي معاذ. وأنه لم يرفض

قط ما طلب إليه من اللطف . والبسماح ، وأنه تبرأ مما صنع خالد حين أثخن في جذعه .

وليس من الصواب ما ادعى بعض الكتاب من أن محمدًا قد أصابته رجفة قبل معركة بدر، فما أكثر ما عرض في حياته للخطر انتصاراً لدعونه في عهده الأول بمكة ، وهو لم ينفك عن القتال في واقعة أحد حتى بعد أن جرح جبيه وخده ، وسقطت ثيتيه ، ووقع في حفرة عن ظهر فرسه . فقد حافظ على اعتدال دمه حتى بعد أن كب مرة أخرى على وجهه ، فشقت وجنته بحلق مفغرة ، فنفع بكلامه روح الشجاعة في أصحابه ، فنجا بذلك من الموت ، وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله في معركة (حنين) ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيي قوة إرادته ، ومتانة خلقه وفصاحته وبعقربيته وبساطته . ومن يجهل أنه لم يعدل إلى آخر عمره عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش ، وهو لم يتخل أوضاع النساء قط ، مع ما ناله من غنى وجاه عريض .

* * *

وكان محمدًا حليماً معتدلاً وكان يأني بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه . وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله . وكان لا يضجر من طول الحديث ، وكان لا يتكلم إلا قليلاً . فلا يتم ما يقول على كبراء أو استعلاء ، وقد دل محمد على أنه سياسي محنك .

٣ - ويقول المؤرخ إميل درمنجم في معرض حديثه عن القرآن الكريم في كتابه «حياة محمد» لا يزال القرآن معجزة محمد الوحيدة ، فهو يشير إلى الآن ساكن من يتلوه ، ولو لم يكن من الأتقياء العابدين ، فأسلوبه المعجزة ، وقوة أبحاثه لا تزال لغزاً ، لقد كان محمد يتحدى الإنس والجن ، أن يأتوا بمثله ، وكان هذا التحدي أقوى دليل على صدق رسالته . وقد

أجمع معاصروه على أن ما في القرآن من تعاليم، ليست من صنع محمد. هذه التعاليم التي رقت عقول الملائكة من البشر، ولا تزال ترقى كل يوم شعوباً متأخرة بإشرابها الحقائق الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية.

وفي مجال استعراض رأي المفكرين الغربيين المثقفين: نجد البحث يتطرق إلى علاقة القرآن باللغة العربية، وفي هذا يتساءل الدكتور ستنجاس.

* * *

ماذا كان مصير هذه اللغة العربية لو لم يكن القرآن؟
ويجيب: نحن لا ننكر أن اللغة العربية انتجت قبل القرآن ألواناً عديدة من الشعر. هي غاية في الحسن والرقى. إلا أنها كانت كلها محفوظة في أذهان الناس، وغير مكتوبة. زد على ذلك أن الشعر ليس هو الأدب كله، وكان العرب منقسمين إلى قبائل متفرقة مختلفين فيما بينهم. وفي ظروف طاحنة دائمًا مما أثر على كيانهم، وعلى أستتهم المختلفة، ولو لا القرآن لذهبوا وذهب معهم لسانهم وشعرهم، ولكن للسائح المجازف مجال للبحث والمخاطرة في سبيل جمع ما باد من هذا الكنز وزال بسبب شحنهائهم وقتاهم.

ولما جاء القرآن أبقى بطبيعته على هذا التراث، وأوجد من مختلف اللهجات العربية لغة موحدة مكتوبة هي لغة الأدب العربي إلى اليوم، وزاد على ما كان موجوداً من الشعر شيئاً كثيراً. وجعل له أساساً يرتكز عليه. بل إنه نظم الحياة الخاصة وال العامة للمسلمين في صور كلها أدب وحكمة ونثر عذب لا يزال حتى يومنا هذا نبراساً للأدب العربي في أعلى صوره.

من خلال هذه النظارات المختلفة لعقول وأفكار غير عربية، ولا مسلمة، نجد ضوءاً جديداً يرسّله القرآن الكريم في قلوب المتصلين به. حتى من غير قارئيه باللغة العربية: «لغة القرآن» فكيف لو أتيح لهم ذلك عن طريقها.

* * *

اللَّبَسُ لِلَّهِ أَنِي

محمد رسول الله ﷺ

كانت حياة الرسول ﷺ مصدراً غنياً لدراسات عشرات الباحثين والمؤلفين والكتاب في كل اللغات. وقد حظيت بقدر بالغ من النظر في القرون الأخيرة، وواجهها كتاب الغرب على أنحاء مختلفة، ولكن عدداً كبيراً من المنصفين قد أفضوا في التقدير والإعجاب. وفي مقدمتهم الكاتب توماس كارليل الذي كان من أوائل كتاب أوروبا الذين أنصفوا الإسلام والنبي «وقد عاش كارليل بين ١٧٩٥ - ١٨٨١» وألف كتابه الأبطال وعبادة الأبطال باللغة الفرنسية، وترجم على عدد كبير من اللغات. وقد تناول فيه عدداً من البطولات في مختلف الصور. واختار محمدًا ﷺ لفصله الحافل «البطل في صورة النبي» وقد ترجم هذا الفصل عام ١٩١١ المرحوم محمد السباعي في مجلة البيان التي كان يصدرها الأستاذ عبد الرحمن محمد كما تناول رسول الله بالتقدير كثير من الباحثين في مقدمتهم: جوستاف لوبيون، وإيتان دينيه، وإميل درمنجم، وكانت لبرناردشو، ولين بول، وبوسورث سميث، ولامرتين، كلمات مضيئة في تقدير الرسول الكريم، وكذلك تناولته باحترام كبير الكاتبة الإنجليزية آني نيرنت.

أما «توماس كارليل» فإنه يبدأ من حيث انتهى سابقوه من خصوم الإسلام، فأنهى عليهم باللائمة وشك في أقوالهم، وعرض لما نسبوه - كذباً وبهتاناً - إلى الرسول الكريم بنقد منطقي منصف.

يقول: لقد أصبح من أكبر العار على أبناء عصره أن يصغوا إلى ما تردد من اتهامات كاذبة. وجاء الأوان لكي تحارب الأقلام المصفة مثل هذه الافتراءات، وترد الحق في نصبه.

ويقول: إن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً نحو مائتي مليون من الناس أمثلهم: خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الخصر والإحصاء. كذبة، وخدعة.

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول. فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأصلولة. كان الأولى بها ألا تخلق.

وعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً ثبتة من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر. وموت الأرواح في حياة الأبدان. ولعل العالم لم يرقط رأياً أكفر من هذا والأم، وهل رأيت معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجيباً، والله أن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب، فهو إذا لم يكن عليه بخصائص الجير والجص والتراب، وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه بيتاً، وإنما هو تل من الأنفاس وكثيب من أخلاط المواد، نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه، فينهم فكأنه لم يكن، وإنني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة، وإنما أبت أن تخيب طلبه، وتعطيه بغية.

أما الرجل الكبير خاصة، فإني أقول عنه يقيناً أنه من المحال أن

يكون كاذباً، فأنما أرى الصدق أساسه. وأساس كل ما به من فضل
ومحمدة.

* * *

وعندي أنه ما من رجل كبير «ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كرومبل»
كفاء للقيام بعمل ما، وإنما وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول
باعته على محاولة ما يحاول. أعني أنه رجل صادق النية، جاد خلص قبل
كل شيء.

بل أقول إن الإخلاص - أعني الإخلاص الحر العميق العظيم الكبير
- هو أولى خواص الرجل العظيم كيما كان، وإخلاص الرجل الكبير هو
ما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه، كلا ولا يشعر به.
ولما شب محمد ﷺ، وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارتة.
وفي الثامنة من عمره نراه فارساً مقاتلاً، يتبع عمه في الحروب، غير أن
أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببعض سنين إلى
مشارف الشام. إذ وجد الفتى نفسه هناك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية
عظيمة الأهمية جداً في نظره.

ولست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراحل سرجياس «بحيرا» الذي
يزعم أن أبي طالب ومحمدًا سكنا معه في دار، ولا ماذا يتعلم غلام في
هذه السنّ الصغيرة من أي راهب ما. فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك
الرابعة عشر من عمره، ولم يكن يعرف إلا لغته، ثم لا ننسى أنه لم يتلق
دروساً على أستاذ أبداً.

* * *

وتظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة،
وكل ما أمكنه تعلمه هو عيشة الصحراء وأحوالها، وكل ما وفق إلى معرفته
هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه، ويتلقي بفؤاده من هذا الكون.

ويقول توماس كارليل أن بيان محمد وأحاديثه ليست مقتبسة من فكر إنسان آخر. فهو لم يعترف من مناهل غيره. وقد لوحظ عليه ذلك منذ كان شاباً مفكراً. وقد سماه رفقاؤه بالأمين، وإنني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، فإذا نطق بما شئت من لب وفضل وإخلاص، لا يتناول غرضاً إلا وقد أثار شبهته، وكشف ظلمته، وأبان حجته، وقد رأينا طوال حياته رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهمة، كريماً بِرْأَ رؤوماً فاضلاً، رجلاً شديد الجد. مخلصاً. وهو مع ذلك سهل الجانب، لين العريكة، جم البشر والطلاقة حميد العشرة، حلو الإيناس.

ويحضر كارليل الرعم الباطل الذي يردد بعضاً كتاب الغرب من أنه قام بدعوته ابتغاء عرض الحياة، والسلطان ويقول: كلا وأيم الله. لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار. والفلوات المتقد المقلتين العظيم النفس أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور.

ولقد كان سر الوجود يسطع لعينيه، ولم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب عنه، وأهم خصائص البطل، وأول صفاته وأخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن. فقد سطعت لعينيه الحقيقة المائلة: تضحية النفس في سبيل الله، وهذا أشرف ما نزل من السماء على نبي الأرض، نعم هو نور الله قد سطع في روح هذا الرجل. فأثار ظلماتها. ولا شك أن العلم والنفاذ إلى صميم الأمور، وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار.

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه. فشدّ ما أخطلوا وجاروا فهم يقولون: «ما كان الدين ليتشر لولا السيف».

* * *

وأرى أن الحق ينشر نفسه، ولندع الحقائق تنشر نفسها وسلطانها، لندعها تكافح وتحايد بأيديها وأرجلها وأظافرها، لأنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم، وليس في طاقتها قط أن تفني ما هو خير منها. بل ما هو أخط وأدنى، فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها. علينا أن ننظر إلى ما كان من سرعة الإسلام إلى القلوب، وشدة امتصاصه بالنفوس، واختلاطه بالدماء والعروق، إذن لأيقنا أنه كان خيراً مما كان هناك. لقد جاء الإسلام على تلك الملل وإن حل فابتليها. ويطرق كارليل إلى نظرة منصفة للقرآن فيقول:

أما «القرآن» فإن فرط إعجاب المسلمين وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة. هذا وإن لترجمته تذهب بأكثراً جمال الصنعة، وحسن الصياغة. ولقد رأى العرب من العجائب، وأعطوه من التمجيل ما لم يعطه أحد لكتاب سماوي.

وقد زعم برادييه وأمثاله أن «القرآن» طائفة من الأخاديع والتذاويات لفقها حمد لتكون إعذاراً له، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال، فإني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الأكاذيب، وما كان ذو نظر صادق لا يرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل.

«والقرآن» لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات، الإخلاص المحسن الصراح يظهر لي أن فضيلة القرآن التي حبيته إلى العربي المتواحسن، وهي أولى فضائل الكتاب أيّاً كان، وهي منشأ فضائل غيرها. بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى. ومن العجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجري فيه من بدايته إلى نهايته، ثم يتخلله نظارات نافذات.

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً، وشد ما

نجير ونخطيء إذا حسبناه، ولا هم له إلا قضاء مأربه من الملاذ. كلا. فما
بعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت.

لقد كان زاهداً متقيشاً في مسكنه وماكله ومشربه وملبسه وسائر
أموره وأحواله. وكان طعامه عادة الخبز والماء. وأنهم ليذكرون أنه كان
يصلح ويرفو ثوبه بيده. فهل بعد هذا مكرمة ومفخرة، فحبذا محاماً من
رجل خشن اللباس، خشن الطعام، متبتل في الله، قائم النهار، ساهر
الليل، دائم في نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمع إليه أصاغر الرجال
من رتبة أو سلطان، غير متطلع إلى ذكر أو شهوة، كيما كان رجل عظيم،
وإلا فما كان ملائياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً. وما كان
يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم ثلاثة وعشرين حجة، وهم ملتفون به،
يقاتلون بين يديه، ويجهدون من حوله، وأيم الله بطل كبير، ولو لا ما
أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا، وقد كانوا
أطوع له من بناته.

* * *

وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد. قيسراً من القياصرة، بتاجه
وصوبلحانه لما كان مصبياً في طاعته، مقدراً لما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده
فكذلك تكون العظمة. وهكذا تكون الأبطال.

ثم يصور كارليل مشاعره الذاتية إزاء النبي ﷺ فيقول:
وإني لأحب حمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن
القفار هذا رجلاً مستقل الرأي، لا يعول إلا على نفسه، ولا يدعى ما
ليس فيه، ولم يكن متكبراً. ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً، فهو قائم في ثوبه
المرقع، كما أوجده الله، وكما أراد. يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم،
وقياصرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم هذه الحياة وللحياة الآخرة.
ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأيقظ به

من العرب هامدة، وأرضاها مدة. فإذا الخمول قد استحال شهرة.
والغموض نهاية، والضفة رفعة، والضعف قوة، ووسع نوره الأنحاء،
وعم ضوء الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب،
وما هو إلا قرن بعد هذا ، حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند،
ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة، ودهوراً مديدة
بنور الفضل والنبل والمرودة والبأس والنجد، ورونق الحق والمدى على
نصف المعمورة.

* * *

وكذلك الإيان العظيم، وما زال للأمة رقي في درج الفضل،
وتعريج إلى ذرى المجد، أستم ترون كأنما وقعت شارة على تلك الرمال،
إذا هي بارود سريع الانفجار. وإذا هي قد تأججت واشتعلت واتصلت
نارها بين غرناطة ودلبي .

ولطالما قلت أن الرجل العظيم كالشهاب من السماء، وسائل الناس
في إنتظاره كالخطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتاججوا ويلتهبوا.

وعلى كل حال فهذا الدين فيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية
وأعلاها، فاعرفوا له قدره، ولا تخسسو حقه، وهو الدين القويم،
والصراط المستقيم لخمس العالم، وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من
حيات أفتديهم، ولا أحسب أن أمّة من الأمم قد اعتمدت بدينها اعتقاداً
 المسلمين بإسلامهم. فهم يؤمنون به كل اليقين، ويواجهون به الدهر
 والأبد.

وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة: من «السائر»
 فيجيئه السائر «لا إله إلا الله» وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل ترن في
 آناء الليل وأطراف النهار في تلك الملائين الكثيفة.

أما الدكتورة آني بيزنت الكاتبة الإنجليزية فإنها قد اهتدت إلى عظمة الإسلام ورسوله حين راحت تقارن بين الأديان. وتراجع ما كتب عنها. وكانت آني بيزنت قد وقفت حياتها على دراسات العلم والفلسفة، وقامت بتأليف بضعة وعشرين مؤلفاً لها شهرة عالمية، وترجم بعضها إلى لغات عديدة، وتوفيت عام ١٩٣٣.

أما كتابها «الديانات الموجودة في الهند» فقد أفردت فيه فصلاً عن النبي محمد ﷺ تناولت فيه بالتحليل شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام تقول:

توجد أربع مسائل تحب دراستها في كل دين وهي :

- ١ - حياة مؤسسها الذي لا بد من أن تتطبع صورة روحه وأخلاقه عليها.
- ٢ - الناحية العامة لذلك الدين .
- ٣ - فلسفة الدين .

٤ - ناحيته القلبية ، وهي مظهر الحاجة الخالدة للنفس البشرية التي لا تفتأ تنزع إلى الاتصال بمصدرها الأول ، فلندرس الإسلام تحت ضوء هذه التفاصيم .

اتبعني أيها القارئ إلى سوريا وبلاد العرب في القرن السادس الميلادي ، وانظر في حالة بلاد العرب الجميلة ، وسوريا. فإنك تجد الحرب الدينية يتاجج سعيرها في كل مكان ، تهدم البلدان ، وتفرق بين الناس. معارك وحشية دموية ، وأحقاد توارث من جيل إلى جيل ، غارسة بذور الشقاقي بين الأجيال والقبائل والشعوب. وانظر إلى بلاد العرب. تلك البقعة التي تسود فيها وثنية وحشية قاسية تسمح بالتضحيه بالنفوس البشرية لمرضاة الأواثان. حيث كان عباد الله يقيمون الولائم بأجساد الموق . وحيث كانت الشهوات قد حللت محل الحب الإنساني ، والإباحة محل الحياة البوذية ، وحيث كانت الحروب الطاحنة التي لا تخمد نارها تشتب لأتهه الأسباب ،

وحيث كان الرجل يقتل قريبه، والجار يهلك جاره، حيث كانت الحياة على وجه الإجمال قد فسدت إلى حد لا يمكن أن يصفه الإنسان.

في معمان هذا السعير المحرق من الشهوات وسفك الدماء، والإباحة الحيوانية، والقسوة البهيمية، ولد طفل فاتحاً عينيه البريئتين للنور، وكان ذلك في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ في مدينة مكة من قبيلة قريش، وكان أبوه قد مات قبل ميلاده ببضعة أسابيع، ولحقت أمه بأبيه بعد بضع سنين، كبر هذا الطفل وتترعرع في بيت جده هادي النفس، كثير الصمت، ذا طبع جذاب لطيف، صبوراً، محباً إلى قلوب الناس، ولم تمض إلا بضع سنين حتى مات جده، فكفله عمه أبو طالب، وهو أتبيل جميع أقاربه طبعاً وأحناهم عليه نفساً، كفله بعد أن داقد مرارة اليتم مرتين. بل ثلاثة، فلبث عند عمه حتى بلغ سنّ الشباب، فسافر إلى الشام لزاولة الأعمال التجارية متاماً في كل ما هو حوله من مشاهد بنظر ثاقب نفاذ، فلما بلغ الرابعة والعشرين سافر إلى الشام في تجارة «خديجة» ولما عاد وجدته من الأمانة والقناعة والطهر والاستقامة بحيث ارتضته زوجاً لها، ولم يكن محمد قد أُوقي النبوة بعد، وقد سعدا بزواجهما، وعاشا معاً عيشة تعتبر مثلاً أعلى في هذه الحياة إلى اليوم الذي توفيت فيه خديجة تاركة زوجها في الخمسين من عمره.

كان حمداً إذا سار في طرقات مكة احتفت به الصبية، وتعلقوا بركتيه، فكان يقابلهم بكلمات طيبة، وملاطفات تناسب طفولتهم، ولم يعهد عليه قط أنه أخلف وعداً أو تحفهم فقيراً أو مخزوناً، ولكنه كان عندها لها من النصح ما يخفف ما بها، وقد لقبه جيرانه بالأمين الجدير بالركون إليه، وهو أجمل لقب يمكن أن يحصل إنسان عليه.

وكان محمد يفزع إلى الصحراء، شهوراً تليها شهور، حتى بلغت خمسة عشر سنة، فكان يأوي إلى غارٍ في وسط الصحراء وحيداً ساكناً

متأنلاً راجياً الله سائلاً نفسه عن معنى الرسالة التي يتوقعها. ويقول: وقد حدث ذات ليلة صافية الأديم. بينما كان مستلقياً على الأرض أن غشه نور نزل إليه من السماء. وإذا بملك كريم واقف أمامه، وهو يقول: «قم إنك رسول الله» وأخذ الملك يلقنه ما يجب أن يعرفه من تكوين للعوالم، وخلق الإنسان، وتوحيد الله. ومن ثم أصبح هذا الرجل الذي كان أشد الناس اعتزاً. أصبح مصدراً لحياة أمّة برمتها.

وكانت زوجته أولى أتباعه - واستطاع أن يبني دولة مهيبة، ويحمل خلفاؤه إلى أوروبا «مشكاة العلم» بعد أن انطفأت فيها. ويقومون أمام الله بعبادة لم يعهد لها مثيل في آية دولة أخرى.

نعم، فإنه يجب عليكم معاشر الدين لا يتبعون ديانة هذا النبي العربي أن تتحققوا بأنه لا يوجد في جميع الديانات ديانة توحى إلى الآخذ بها عقيدة أبين صحة، وأعلق بنفس صاحبها من الديانة التي خرجت من فم النبي العربي.

ويقول: وإذا كان الأمر كما يقول الفيلسوف (تين): أن العقيدة ثبت صحتها متمثلة في سيرة أهلها، فتأمل في اتباع محمد، وانظر كيف تتحكم أقواله إلى اليوم في أعمال الناس.

لا يوجد مسلم في الأرض يخجل من السجود في الصلاة، وانظر إلى أي مدى قهرت العبادة عند أتباعه كل خوف من الموت. إن مثل هذا الإيمان لا بد من أن يكون له مستقبل باهر في هذا العالم، ويجب أن يرفع هذا الإيمان إلى كل مكان أرفع من المكان الذي هو فيه اليوم.

مكث محمد يعمل ثلاث سنوات في هدوء، فلم يزد أتباعه بعد انقضائها على الثلاثين، فاضطر أن يعلن الدعوة لأول مرة. فتكلم عن «وحدة الله» ونعي على عادة القربان البشري، والانهماك في الشهوات،

فاجتمع إليه عدد آخر من الأشياع مأخوذين في تيار الكلمات التي تبعت من شفتيه. ولكن بقدر ما أصبح كثير الأنصار أخذ المضطهاد يشتد عليه، وشرعوا في تعذيب أصحابه بقسوة يكاد يكون من المحال أن يتحملها الجسم البشري. فكانوا يمزقون أجسامهم، ويطعنونهم بالرماح، ويلقون بهم على الرمضاء المحرقة، ثم يأمر وهم بأن يكفروا بالله ورسوله فيأبون، ويموتون وهم يقولون «لا إله إلا الله - محمد رسول الله».

وكان يوجد بين هؤلاء المضطهدين رجل قطعوا لحمه قطعة قطعة، فسألوه الذين يتولون تعذيبه وهم يضحكون. لا تخف أن يكون محمد مكانك، وأن تكون أنت في دارك آمناً فيقول: الله شهيد على ما أقول، «أنا لا أحب أن أكون في بيتي، ومحمد تشوكه شوكه واحدة».

هذا مثال من الحب الذي كان يبئه محمد في قلوب الذين يموتون من أجله. أي صنف من صنوف الرجال كان محمد.

أما المصور الفرنسي العالمي (اتيان دينيه) الذي أسلم في الجزائر عام ١٩٢٧. وأعلن اعتناق الإسلام أمام جمهور كبير من الجزائريين والعلماء وأشهرهم على أنه اختار الإسلام ديناً قبل سنوات، ولم يجهر به إلا في ذلك اليوم. فقد ألف كتاباً ضخماً باللغة الفرنسية أطلق عليه اسم المحمدية. وشاركه في إعداده صديقه العربي المسلم سليمان بن إبراهيم الجزائري. وقد ترجمه الدكتور عبد الحليم محمود إلى اللغة العربية. وقد تسمى هذا الفنان الفرنسي بعد إسلامه «ناصر الدين دينيه» وألف كتاباً آخر هو (أشعة من نور الإسلام) ترجمه العلامة (راشد رستم) ولهذا الباحث نظرة صائبة في تقدير رسول الله وشمائله فيقول: إن دراسات المبدعات التي دخلت في تاريخ النبي قد أتاها نكشف عن أنها كانت أحياناً وليدة كراهية شديدة للإسلام يصعب التوفيق بينها وبين العلم، كما أنها نظرية بحثة تسجل على مؤلفيها جهلاً عجبياً بعبادات العرب، وأنها على

تناقض بحيث ينسخ بعضها بعضاً. وأخيراً فإنهم غلوا في الخيال فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية، ليظهر بأجل بياني صدق تلك الآثار المأخوذة بها.

والحق أننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات أن «محمدًا» هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق. والمعجزات المادية معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلهية، وأن في استغناه محمد مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق. ومع ذلك فقد أتى (محمد) بمعجزة، أنها المعجزة الوحيدة التي منحت، ولكنها مدبرة أقامت مضاجع المشركين، وأعني بها (آيات القرآن).

إن معجزات الأنبياء الذين سبقوه محمدًا - ﷺ - كانت في الواقع معجزات وقية، وبالتالي كانت معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآيات القرآنية: «المعجزة الخالدة» ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر. ومن اليسير على المؤمن في كل زمان ومكان أن يرى هذه المعجزة مجرد تلاوة كتاب الله تعالى، وفي هذه المعجزة تجد التعليل الشافي للانتشار الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون، لأنهم يجهلون القرآن الكريم، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة، فضلاً عن أنها غير دقيقة.

إن الجاذبية الساحرة التي يتمتع بها الكتاب الكريم عن أي كتاب آخر لا تحتاج منا نحن المسلمين إلى تعليل، ذلك لأننا نؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله ﷺ.

وقال العلامة: اتيان دينيه: أن اللغة العربية (لغة القرآن) لا يوجد على ظهر البسيطة، ما يضارعها غنى وانسجاماً، وعن طريق هذه اللغة

خاطب القرآن الناس جميعاً، وأملَّ محمد ﷺ تعاليمه وأحاديثه بكل ما فيها من بلاغة.

ويقول استانلي لين بول: إن أسلوب القرآن - وقد عرفناه عن طريق الترجمات - قد هزّ نفوسنا، وأن كلماته العميقه قد أثارت فكرنا. وإذا كان أسلوب القرآن قد أحدث مثل هذا التأثير في نفوسنا - نحن الذين لسنا عرباً، ولا مسلمين - فماذا ترى تكون قوته وأثره في نفوس العرب. وهو الذي نزل بلغتهم، لا يستطيع أن يكون أحد لنفسه فكرة مقاربة. وإن كانت مصغرة، إلا أولئك المسافرون. حينما تناح لهم الفرصة لمشاهدة التأثير الذي يمتلك قلوب قوم ينصنون إلى إمامهم في الصلاة. وهو يرتل الآيات المقدسة. لقد رأينا الإعراب فور وصولهم من أسفارهم المجيدة، وقد كستهم رمال الصحراء يتسابقون إلى المسجد يجذبهم إليه كالغماتيس، صوت الإمام، لا يسمعون القرآن إلا ومتلك قلوبهم انفعالات هائلة. هذه الآيات الخارقة، من المستحيل أن تصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير الذي أملَّ تلك الآيات البينات.

ويقول: لقد حاول بعض كتاب الغرب الغض من قدر النبي، ولقد قضى كارليل في كتابه الأبطال على هذا التعصب الذميم، وتلك الحماقة العميماء. حين قال: أيسستطيع رجل مخادع أن يؤسس ديناً. كلا ورببي أن رجالاً مخادعاً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر.

وروى الكاتب كيف أن المشركين من أهل مكة عجزوا عن مقاومة الأثر القاهر الذي تحدثه تلاوة القرآن في صفوفهم، فقرروا أن يمنعوا الناس عن الإنصات إلى الرسول، وهو يتلو الكتاب المنزّل كعادته على باب الكعبة، كانوا يجعلون أصحابهم في آذانهم، لكي لا يسمعوا ترتيله، ولكن هل تدري ماذا كانت النتيجة الغريبة؟ لقد أحس هؤلاء الذين حرموا الإنصات إلى القرآن، أحسوا هم بالرغبة الملحة تعتمل في نفوسهم، فخرج

أبو سفيان وأبو جهل والأخنس من بيوتهم، ليذهبوا خفية إلى بيت الرسول. وهناك ألقوا آذانهم بالحائط. وراحوا يستمعون إلى تلاوة النبي، وشملهم ظلام الليل، فلم ير أحد منهم الآخر، ولكنهم في طريق عودتهم، عندما أشراق الفجر جمعهم وجهاً لوجه، فتلاوموا وقال كل منهم للآخر.

- لا تعودوا ولو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في أنفسهم شيئاً! .
فقطعوا على أنفسهم عهداً غليظاً لا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه الحماقة .

ولكن ليلة الغد وليلة اليوم الذي تلها شهدتا نفس الحادث، ونفس التراجع والتلاوم .

ويضي إتيان دينيه في وصف رسول الله ﷺ فيقول: كان رسول الله وسطاً بين الطول والقصر، قوي الجسم، ضخم الرأس، أبيض مشرباً بحمرة، طيب الخلق، وكانت المعاني تتدفق غزيرة من ألفاظه المحكمة الموجزة التي تعبر عن مراده خير تعبر. أما سحر بيانه فكان شيئاً إلهياً، يغزو القلب ويأسر اللب.

لا يقوى أحد على مقاومته، وكان الرسول لا يغرق أبداً في الضحك، فإذا اشتد به المرح حجب وجهه بيده، هاديء الخلق، حليم الطبع، لا تكبر فيه ولا خشونة، لا يدعو أحداً إلا أجابه، يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم إلى صدره، سواء في ذلك الأشراف والعبيد، وكانت طبيعته محبة وحناناً .

وكان إذا سمع بكاء طفل، وهو في صلاة الجماعة. أسرع في صلاته من أجل أن يسمع للأم ياسكات طفلها. وقد حرم أول ما حرم «وأد البنات»، تلك العادة القبيحة القاسية، ثم وضع حدّاً لتعدد الزوجات، ومن أحاديثه: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». وبفضل تشرعاته

أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجهما، وتنح المرأة حق الطلاق إذا لم يوف الرجل بواجباته الزوجية، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها، ومنع الرسول أيضاً المرأة حق الميراث، وحقها فيه نصف حق الذكر، ذلك لأن المرأة لا تدفع مهراً كالرجل: وليست مكلفة بمحاجات البيت. وكان الرسول يحب الطيب لأن الطيب يكمل طهارة المؤمن، وكان محمد يتطيب بالمسك، ويحرق في بيته الصندل والكافور والمسك. ويدهن شعره بالدهون، ويقص لحيته وشاربه ويمشطها.

وكان له نمط من التألق غاية البساطة، ولكنه على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان يحرم التغالي في الملبس، وعلى الخصوص لبس الحرير، وكان عدله ورحمته من الشمول بحيث يتناول الحيوان الأعجم، فضلاً عن الإنسان، وكان يقوم بأعماله بنفسه، يخلب شاته، وينصف نعله، وكان يحمل بنفسه ما يشتريه من السوق.

والحق أن الإسلام الذي جاء به محمد ملائم لجميع الأجناس البشرية. فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام. بل كان من ضمنهم من هو فارسي كسلمان، ومن النصارى كورقة، ومن اليهود كعبد الله بن سلام، ومن الأحباش كبلال، فدين محمد قد أكد من الساعات الأولى لظهوره. وفي حياة النبي أنه «دين عام صالح لكل زمان ومكان». وإذا كان صالحًا بالضرورة لكل جنس، كان صالحًا بالضرورة لكل عقل. إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة، وهو على ما فيه من تسامح، وبساطة سواء بالنظر لمذهب المعتزلة أو بالنسبة لمذهب المتصوفة، يؤدي للعالم هداية وتوفيقاً، سواء في ذلك الأوروبي المتحضر أو الزنجي الأسود، من غير أن يعوق حرية الفكر عند أحدهما، ثم يزيد على هذا بالنسبة للزنجي انتشاله من عبادة الأولئان، ثم هو لا يعوق الرجل العملي، الذي يرى حياته في

العمل ويعتبر الوقت من ذهب، ولا يعوق الرجل الصوفي والشرقي التأمل في بدائع الصنع. فإذا ما دخل الإسلام في الحضارة الغربية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث، سيتضح سناه الحقيقي، وستعرف الأمم حقيقته التي حجبت زماناً، وسيمد الكل أيديهم لمحالفته، ولو نهض أتباع محمد لرجع لهم عزهم السالف، فصاروا أمّة لا تعرف الجور، وتبعوا مكانتهم الذي يليق بمجدهم.

ويصور جورج برنارد شو: الرسول في كلمات واضحة الدلالة. وكان برنارد شو الفيلسوف الإيرلندي الأشهر قد طاف بالعالم بالإسلامي، واقترب شيئاً من دراسات الإسلام، وقد عبر عن رأيه في الإسلام.

يقول برنارد شو: لقد وضع دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته العظيمة فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل زمان ومكان.

لا مشاحة في أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال. لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا في الغد القريب. وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم. لقد صور أكليروس القرون الوسطى (الإسلام) بأحلل الألوان. إما بسبب الجهل أو التعصب. ولقد درست حمداً باعتباره رجلاً عظيماً، فرأيته بعيداً عن مخاصة المسيح. بل يجب أن يدعى «منقذ الإنسانية» وإنني لأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى حكم العالم الحديث لننجح في حل مشكلاته بطريقة تحيل إلى العالم «السلام والسعادة» اللذين هو أشد الحاجة إليها. وأشار برناردشو إلى التحول الواضح في الفكر الأوروبي عن طريق بعض المنصفين من الكتاب لقول كلمة الحق يقول:

ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارليل.

وجوت، وجيرون «القيمة الذاتية» لدين محمد. وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام - ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيراً، فبدأت تعشق عقيدة محمد، وعنده أن أوروبا قد تذهب الأيام القادمة. إلى بعد من ذلك، فتعرف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها بهذه الروح، يجب أن تفهموا نوعي.

وفي الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في دين محمد، حتى ليتمكن أن يقال أن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ. لقد بدأت أوروبا الآن تعشق الإسلام، ولن يمضي القرن الحادي والعشرون حتى تكون أوروبا قد بدأت تستعين به في حل مشاكلها.

يمتد الإسلام الآن من مراكش إلى أنقرة، ومن زنجبار إلى الصين، وينخطو في داخل إفريقيا خطوات كثيرة، وتعتنقه أمم كثيرة. وقد خطط بنفسه، وثبت قدمه في الكونغو التي صارت بلاداً إسلامية بأجمعها: أما في الهند فإن التمدن الغربي الذي كان يهدم أركان الوطنية، فإنه يهدى الطريق للإسلام لا غير. لقد أفاد الإسلام التمدن ونشر راية المساواة والأخوة. وهذه الأدلة نذكرها نقلأً عن تقارير الموظفين الإنجليز، وعما كتبه أغلب السياح عن التنتائج الحسنة التي نتجت من الدين الإسلامي، وظهرت آياتها. فإنه عندما تدين به أمم من أمم إفريقيا تختفي من بينها في الحال عبادة الأواثان، وتحرم أكل لحم الإنسان، وقتل الرجال، ووأد الأطفال، وتضرب عن الكهانة، وتأخذ أهلها بأسباب الإصلاح، وحب الطهارة، واجتناب الخبائث والرجس، والسعى نحو إحراز المعالي، وشرف النفس، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية. أما الغلو في الحرية والجري وراء الشهوات، فلا تجيزه الشريعة الإسلامية، والإسلام هو الدين الذي يعمم النظام بين الورى، ويقمع النفس عن الهوى، ويحرم إراقة الدماء والقسوة في معاملة الحيوان والأرقاء ويوحي بالإنسانية، ويحضر على

الخير، ويقول بالاعتدال، وإنني لأعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه لتم التجاج في حكمه ولقاده إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة.

* * *

أما الباحث الغربي بورسوث سميث: فإنه يصور في كلمات قليلة عظمة محمد ﷺ حين يقول: كان محمد في وقت واحد مؤسساً لأمة، ومقيناً لامبراطورية، وبنانياً للدين. وقد أقى بكتاب يحوي أدباً وقانوناً وأخلاقاً عامة، وهو كتاب يقدسه إلى يومنا هذا سدس مجموع الجنس البشري لأنّه معجزة في دقة الأسلوب، وسمو الحكمة، وجلال الحق.

* * *

وفي كتاب بعنوان: محمد والدين المحمدي: بقلم لين بول يقول: إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه في هذه المسألة لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد. بدليل معاملته للأسرى بعد موقعة «بدر» وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم، وعطفه على الأطفال المرضى، وحقنه للدماء، وغفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربته ثمانية عشر عاماً. ولا استتب له الأمر، وجاءه نصارى نجران اليمانيون لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام، وأنهم على مواههم وأرواحهم، وأمر إلا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم أو طقوسهم الدينية، بل أكثر من ذلك، لم يفرض عليهم أي ضرورة أو جزية.

يقول الشاعر لامرتين: أي رجل قيس بجميع المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية أعظم منه، أعظم من محمد، لو كان مقاييس العظمة، هو إصلاح شعب متدهور. فمن ذا يتطاول إلى مكان محمد لقد سما بأمة متدهورة، ورفعها إلى قمة المجد، وجعلها مشعلاً للمدنية، وموربداً للعلم والعرفان. لو كان مقاييس العظمة هو توحيد البشرية المفككة

الأوصال. فمن أجرد بهذه العظمة من «محمد» الذي جمع شمل العرب وجعلهم أمة واحدة، وأمبراطورية شاسعة، لو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء في الأرض، فمن ذا الذي ينافس محمدًا. وقد معاً مظاهر الوثنية لتصبح عبادة الخالق وحده، لو كان مقياس العظمة هو الأثر الذي يخلده في النفوس على مر الأجيال، فها هو «محمد» يمجده مئات الملايين من الناس من مختلف البقاع مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم.

ويقول إميل درمنجم في كتابه حياة محمد: لا يزال القرآن وهو معجزة محمد الوحيدة يثير إلى الآن ساكن من يتلوه، ولو لم يكن من الأتقياء العابدين، فأسلوبه المعجز، وقوة أبحاثه لا تزال لغزاً. كان محمد يتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوى دليل على صدق رسالته، ولا يستطيع أحد يشك في إخلاص محمد. فحياة محمد شاهدة على الاعتقاد بصدقه في حمل أمانته الثقيلة ببطولة: وأن قوة إبداعه وعمريته الواسعة وذكائه العظيم، وبصره النافذ، وقدرته على ضبط نفسه، وعزم المكين، وحذره، وحسن تدبيره، وطراز عيشه كلها شاهدة على عظمته.

ويقول (واشنطن أرفنج) أن حياة محمد تعتمد على الإخلاص، ولم يكن هناك ما يدفعه إلى خوض هذه المصاعب والعقبات التي صادفته منذ إعلان دعوته، لو لم يكن الإيمان الخالص لرب العالمين يملأ فراغ عقله وقلبه. ومن مظاهر عظمته تسامحه مع خصومه ومعارضيه. وهل وجدنا في تاريخ العالم تسامحاً كالذي رأينا من هذا الرسول الكريم. لقد كان هذا التسامح سلاحاً فعالاً من أسلحة المسلمين، فقد أثرت سماحة النبي تسامحاً في نفوس العرب، فلانت قلوبهم، ورقت نفوسهم، فأقبلوا نحوه في نفوس آمنة، وقلوب واعية.

أما جنرال (ر. ف. بودلي) فيقول: لقد ظلت أخلاق محمد ثابتة لا

تبدل أيا كان العمل الذي يعمله، سواء أكان يرعى غنمه في سكون الbadie، أم يبيع عطوروه أو أنماطه في الشام، ولم تبدل أمانته، ولم يتغير صدقه، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام، وكان حاضر الـbadie، عذب الحديث، معنـاً بملابسـه وهندـامـه، وما كان ثـرثـارـاً، وإن كان صادق الترحـابـ من يقبل عليه.

ويقول الكـونـتـ ليـونـ تـولـسـتـوـيـ: لا رـيبـ أنـ هـذـاـ النـيـ منـ كـبـارـ المـصـلـحـينـ الـذـيـنـ خـدـمـواـ الـهـيـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ خـدـمـةـ جـلـيلـةـ، وـيـكـفـيهـ فـخـراـ أـنـ هـذـىـ أـمـةـ بـرـمـتـهاـ إـلـىـ نـورـ الـحـقـ، وـجـعـلـهـاـ تـجـنـجـ لـلـسـلـامـ، وـيـكـفـيهـ فـخـراـ أـنـ فـتـحـ هـاـ طـرـيقـ الرـقـيـ وـالـتـقـدـمـ.

ويقول (سير ولـيمـ مـيـورـ): أنـ مـنـ صـفـاتـ مـحـمـدـ الـجـديـرـ بـالـتـنـوـيـ: الرـقـةـ وـالـاحـتـرـامـ الـذـيـنـ يـعـاـمـلـ بـهـاـ أـتـبـاعـهـ حـتـىـ أـقـلـهـمـ شـأـنـاـ. فالـرـقـةـ وـالـتـوـاضـعـ، وـإـنـكـارـ الـذـاتـ وـالـرـأـفـةـ وـالـأـنـاءـ وـالـسـمـاـحةـ وـالـسـخـاءـ تـغـلـغـلـتـ فـيـ نـفـسـهـ فـأـحـبـهـ كـلـ مـنـ حـوـلـهـ، وـكـانـ يـكـرهـ أـنـ يـقـولـ «ـلـاـ»ـ إـلـاـ لـمـ يـتـمـكـنـ مـنـ يـحـبـ طـالـبـهـ فـضـلـ السـكـوتـ.

ومن جـمـعـ هـذـهـ الـكـلـمـاتـ الـيـ أـورـدـهـاـ كـتـابـ غـرـبيـونـ فـيـ عـدـيدـ مـنـ أـبـحـاثـهـمـ وـمـقـالـاتـهـمـ يـتـكـشـفـ ذـلـكـ التـيـارـ الـجـديـدـ الـذـيـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهـ، وـالـذـيـ يـفـرـضـ نـفـسـهـ رـغـمـ كـلـ مـاـ يـقـومـ بـهـ الـمـشـرـونـ، وـكـتـابـ الـغـرـبـ الـمـغـرـضـونـ مـنـ كـتـابـاتـ مـلـيـةـ بـالـشـبـهـاتـ. وـعـنـدـنـاـ أـنـ هـذـاـ التـيـارـ سـوـفـ يـعـمـقـ، وـبـسـوـفـ يـهـدـيـ الـكـثـيرـينـ إـلـىـ الـخـيـرـ وـالـحـقـ: إـلـىـ جـوـهـرـ إـلـسـلـامـ.

الباب السادس

جوهر الاسلام

تناولت عشرات الأبحاث التي كتبها المفكرون الغربيون «جوهر الإسلام» واستطاع كثير من المنصفين أن يصلوا إلى فهم عميق لروح الإسلام ومقاصده. وقد هدتهم إليها كتابات المسلمين والعرب التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية المختلفة، وفي مقدمتها مؤلفات الأستاذ الشيخ محمد عبده، وما كتبه بالإنجليزية الكاتب الهندي المسلم: أمير علي، وخاصة كتابه الضخم «روح الإسلام».

وقد استطاع أغلب هؤلاء الكتاب المنصفين أن يصلوا إلى الحق، ويهتدوا بنور الرسالة عن طريق اكتناع وإنصاف من النفس دفهم عليه ما درسوه، وما قارنوه بينه وبين كتابات خصوم الإسلام، ولكن أغلب المنصفين كانت هدايتهم إلى الحق نتيجة لقربهم من أرض الإسلام.

وقد كانت رحلات بعض الباحثين الغربيين إلى المغرب والجزائر، وإلى القاهرة والجزيرة العربية عاملاً فعالاً في كشف الحقائق الخافية.

١ - وإميل درمنجم وهو في مقدمة الباحثين قد عرف باتصاله بال المسلمين في المغرب، واكتنأه أسرار حياتهم، وهو صاحب كتاب: «حياة محمد». وكان قد بدأ بحثه بترجمة فصول درمنجم، ثم استقل بالبحث، وقد أصدر درمنجم كتابه هذا عام ١٩٢٩ في باريس. وأعجب به شباب العرب

ومثقفيه هناك، وكتب عنه الأستاذ أحمد عبد السلام بلافريج في مجلة الفتح وقال: إن درمنجم أقام بالغرب أيام الحركة الوطنية بالريف «في المغرب الأقصى» مراسلاً لجريدة الأنفور ماسيون، فتعرف بالشباب العربي المسلم، وخالطهم. وقال: بلافريج أن درمنجم مسيحي، ولكنه معجب بالإسلام، وأن كتابه بالنسبة للغة التي ظهر فيها يحسب له حساب. ذلك أن أوروبا لم تعرف في الزمن الماضي، ولا الزمان الحاضر التي عمت فيه روح العلم والتحقيق إلا صورة للإسلام مشوهة كاذبة. وهذا يعتقد أنه سيكون له أثر في تصحيح بعض ما كانوا يتخيلونه في سيرة النبي.

يقول درمنجم في بحث مستقل له تحت عنوان: «القيم الخالدة في الإسلام»: لكل حضارة أو دولة في التاريخ، بل لكل جنس أو مجتمع بشري «شخصية» متميزة بخواصها وصفاتها الملازمة.. وقيمة الأمة الإسلامية. ليست فقط في أثرها التاريخي، وهو تصفية تركيبة العالم القديم، وتغيير نظم الحكم على ضفاف البحر المتوسط، فتلك أمة في صميم تركيبها تشتمل على تعاليم ونظم ما زالت إلى يومنا هذا حية قوية. بل قد كتب لها الخلود. وحضارة الإسلام لا تختقر الأمور الدينية، ولكنها تعتمد أيضاً على الروحية، وترمي إلى مثل أعلى رفيع، فهي تجمع بين الدين والدنيا، وهي لذلك بعيدة عن الفقاعة وعن الرهابية على حد سواء، ورسالة «الإسلام» تطرق مسائل متنوعة خطيرة، فهي قد جاءتنا بدرس فذة في ميدان الحرية الفردية، وعلاقة الفرد بالمجتمع، ونظام الطبقات وفي العدل والمساواة بين القوي والضعيف والتسامح. حتى خلال شدائ드 الحرب، وفي الزهد وسط مغريات العصر والكرامة، والآباء عند الفقر والعوز، وهي فوق ذلك تعلم الفرد كيف يكون السمو والطهارة في العبادة. وثبت في نفسه الإيمان بأن لا قيمة لشيء إذا قيس به «المطلق» وأن لا وجود لشيء إلا بمشاركة في هذا «المطلق».

وحيثما يهتف المؤمن بقلبه، وليس فقط بلسانه «الله أكبر» فهو يهتف بالحرية الصحيحة الفعلية، وعبد الله لا يمكن أن يكون عبداً لكائناً آخر، وبمقدار تفانيه في عبادة الله تكون حريته بالنسبة للغير. وهذا المبدأ الرفيع ليس فقط منبعاً للحرية الحقة. بل إن منه تفرغ مبادئ الإخاء والمساواة. فالإسلام قد سوى بين بني الإنسان في إنسانيتهم، وأخى بين الرجال من كل الطبقات، وحقق احترام الأفراد بعضهم البعض، مما اختلفت أحواهم، وتبينت ألوان معيشتهم. وبفضل عبادة الناس للإله المطلق أصبحوا مجتمعاً واحداً متربطاً لا أفراداً يتفرقون شيئاً حسب الأهواء والعادات والنظم المختلفة.

وليس إذن لأمة أن تسيطر على أمّة غيرها، وليس جنس أن يتحكم في غيره من الأجناس، الكل سواسية أمام الله الذي خلق الإنسان على صورته، وجعل من البشر أهله.

فلا عجب أن يكتسب الإنسان من هذا التشابه، ومن هذه القرابة قيمة سامية في شخصية وكرامة ذاتية تحول بينه وبين الخضوع لكائن من كان.

وينتقل إميل درمنجم إلى الحديث عن تعاليم الإسلام فيقول: وفي العدل والرحمة تجد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية تؤكد أن خير عمل للإنسان بعد الإيمان بالله. هو: أن يرحم أخاه في الإنسانية، وأن من أراد رحمة الله فليرحم غيره من الخلق، والرحمة هي التي تشمل الكائنات كلها بما فيها الدواب، وما أبعد هذه النصائح السامية من مبادئ نيتشه أو ميكافيلي، أو أنصار «إرادة القوة».

إن تعاليم الإسلام لا تحمد عمل من يسعى إلى السيطرة والنفوذ، وتهزا من هؤلاء الذين يظلمونخلق يرون أنهم بذلك إنما يظلمون

أنفسهم. ومن الأحاديث المشهورة: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتفوي». فـالله قد أرسل رحمته إلى البشرية كلها. والناس جميعاً في هذه الرحمة سواسية كأسنان المشط، ويرى أن رجلاً قال يوماً لبلال: يا ابن السوداء، فلامه الرسول.

* * *

وأن نظم «الحرب» نفسها في تعاليم الإسلام تخضع للقيم الإنسانية، ولمثل العدل والشرف. فالمفروض أن الحرب «جهاد» مقدس في سبيل الدين والحق. وبهذا التسامي على الأغراض الدينية، وضع الإسلام حدّاً لفوضى الحرب وأثامها، وفتحات العرب الأولى تمتاز بجو من الرحمة والإنصاف. يختلف كل الاختلاف عن أجواء الحروب الأخرى في العصور القديمة والحديثة.

والنبي «محمد» في القرن السابع الميلادي: كان يعلم القبائل العربية البدائية. كيف تكون الحرب الصحيحة فيلقي عليهم بنصائح لم نسمعها قط من قائد قبله، فهو يوصيهم بتجنب السرقة أو الغش، وبالمحافظة على حياة الأطفال والنساء، والشيخوخ، وبالإنصاف حتى بين الأعداء، وبعدم تخريب البيوت، أو نهب الحقول، أو قطع النخيل.

وال الخليفة الأول (أبو بكر الصديق) يأمر جنده باحترام العهود والوفاء بالمواثيق التي يعطونها للأعداء، ان هذه التعاليم الرفيعة جديرة حقاً بالإعجاب، وخاصة إذا علمنا كيف كانت الحرب بين بلدان الغرب في ذلك العصر.

ودعوة الناس إلى «الجهاد» تکثر في القرآن. ولكنها محددة بقوانين وقواعد صارمة واضحة ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعنتوا إن الله لا يحب المعنتين﴾.

* * *

«والسلم» في الإسلام هو الحالة الطبيعية للإنسانية. بل هو خير الحالات، وليست الحرب في الحقيقة إلا جهاداً بسيطاً. إنها «الجهاد الأصغر» أما «الجهاد الأكبر» فهو «جهاد النفس». ذلك الجهاد المقدس العنيف الذي يقوم به الإنسان مستعيناً بسيف العزيمة لمقاومة أثانية النفس الأمارة بالسوء، وللسيطرة على الرغبات الدنيئة، وللسماو بالروح نحو أرفع مراتب الكمال.

فما أبعد الشوط الذي قطعه الإسلام للوصول بالإنسانية إلى غايتها الصحيحة، وما أبعد الفرق بين تعاليمه الرحيمة، وبين ما سواه، ولن يجد الباحث بين مفكري الإسلام من بنى مذهبأ له في السياسة، والحكم على دعامة غير العقل السليم والعدل.

ولقد وفق الإسلام بين الاتجاهين المتقابلين: المادي والروحي. وقال الرسول ﷺ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وفي القرآن الكريم ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ وأن حضارة تعتمد قبل كل شيء على القيم الروحية للإنسان لا يمكن أن يحرفها التيار المادي البحث، وكان محمد عليه السلام كثيراً ما يقول لأصحابه أنه يخشى عليهم الغنى والإسراف. وأن المال لا شيء يطهره سوى الزكاة. ثم الإنفاق لوجه الخير والزكاة. وهي ركن من أركان الإسلام الخمسة، وتمثل نظاماً طيباً للتعاون. «والإسلام يفرض للقير حقاً معلوماً في مال الغني».

٢ - ونتقل من إميل درمنجم إلى (إيتان دينيه) والفرق بينهما أن الأول يتحدث عن الإسلام حديث الاعجاب. أما الثاني: فإنه يتحدث عنه حديث معرفة عميقة دفعته أن يتخاطر كل الأوضاع، وأن يعتنق الإسلام. وقد خصص كتابه «أشعة خاصة بنور الإسلام» في سبيل تصوير مفهومه للإسلام: يقول: الشخصية التي حملها محمد عليه السلام كانت

خارقة للعادة، وذات أثر عظيم جدًا حتى أنها طبعت شريعته بطبع قوي
جعل لها روح الإبداع. وأعطتها صفة الشيء الجديد.

إن للإسلام عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادئ السامية
الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات، جاء بذلك الدين الحنيف
الذي لم ينفك يزداد أنصاره كل يوم منذ ثلاثة عشر قرناً. وقد حرص محمد
على ألا تنسب إليه المعجزات غير «القرآن» حتى أنه لما مات ابنه إبراهيم
حزن عليه، وحدث أن كسفت الشمس ساعة دفنه. فقال الذين من حوله
إ أنها لمعجزة يا محمد. فقد شاركتك الشمس في حزنك على ولدك. فقال
النبي : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسقان لموت أحد ولا
لحياته».

وأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يأمر بالرفق والإحسان في
الدين، وال المسلمين يحملون عيسى في نفوسهم التمجيل والتعظيم. وقد رفع
محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات. وأعلى المراتب، وجعله من أول
واجبات المسلم ويقول: «يوزن يوم القيمة مداد العلماء بدم الشهداء»
«وفضل العلم خير من فضل العبادة». وقد أحس محمد بالأثر السيء
الشديد للخمر في النفوس، فحاربه حتى حرمه تحريراً تاماً. وذلك هو الداء
الفتاك في عصرنا الحاضر. «والوسيلة» هي إحدى كبريات المسائل التي فاق
بها الإسلام جميع الأديان. إذ ليس بين الله وعبده وسيط. وليس في
الإسلام وسطاء. وقد حرم الإسلام نظام القداسة، وحما الولاية. فنفي
بذلك الخرافات الضارة، وأزال آثارها ونتائجها. وليس للمسلم أن يدعوا
الرسول. وإنما له أن يدعوا الله وحده لا شريك له. وقد يكون للمسلم أن
يدعو الله للرسول، ولكن لا يدعو الرسول الله ولا لذاته. والدين
الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخد فيه الإله شكلاً بشرياً، ولم
يجرؤ مصور أو نحات أن تجري ريشته، أو ينحته إزميل. ذلك لأن «الله»

لم تكن له صورة مخصوصة. وهو الواحد الأحد. الفرد الصمد، لم يكن له كفواً أحد. وأبرز معالم الإسلام.

(١)

علو الهمة

ولما كانت الشريعة الغراء قد ساوت بين الناس، ولما كان لا بد للناس من مراتب لم تجعل لأحد منهم فضل على أحد إلا بعلو الهمة في مكارم الأخلاق.

(٢)

المساواة

لقد حقق الإسلام نظرية المساواة بين هذه القبائل والشعوب. وهي النظرية التي لم تأت أخيراً إلا على يد الثورة الفرنسية.

(٣)

الفروسيّة

إن الفروسيّة وبنالت مقصدتها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومانيين. ولكنها كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، ثم هذبها الإسلام وظهرها تطهيراً. وعلى يده دخلت أوروبا ووصلت إلينا نحن الغربيين، ولم يبق أحد ينكر نسبتها إلى المسلمين والعرب، وقد ذكر العالم المسيحي المتدين (بارتلي سان هيلار) في سياق حديثه عن القرآن: «أن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوروبا وفرسانها في

القرون الوسطى في تعديل عاداتهم الخشنة، وتلطيفها، ثم تعليمهم رقة العاطفة، وتهذيب نفوسهم، والرقة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة. وكل ذلك دون أن يصيّبهم ضعف يفقد من فروسيتهم شيئاً» وقد حفظ التاريخ في سجلاته عن فروسية المسلمين وروحها العالية جميع أدلة العظمة المورثة بالرقابة والتهذيب.

(٤)

مسايرة الطبيعة

لا يتمرسد الإنسان على الطبيعة التي تغلب، وإنما هو يساير قوانينها، ويزامل أزمانها. وليس يكفي الإسلام أن يساير الطبيعة. إنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً. وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور والأمثلة عديدة لا تعوزنا.

(٥)

لغة القرآن

لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم الماجماع العلمية، أن تقوم بها، أنه مكن اللغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أصحاب الرسول إلينا اليوم لكان ميسوراً أن نتفاهم تمام التفاهم مع أهل اللغة العربية. وهذا عكس ما يجد مثلاً أحد معاصرى (رابليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم. وأن لغة القرآن الكريم وإن كانت تمت في أصولها إلى عصور بعيدة قديمة، فهي مرنة طيبة تسع التعبير عن كل ما يجد من المكتشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها.

(٦)

بساطة الصلاة والنظافة

إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هما ذات بساطة ولطافة، ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها. كما أنها لا تدعو الوجوه بالظهور والتکلف حقا. وأن الصلاة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة، وهي ذات دلالة على الرزانة والمدودة والاطمئنان، وهي خالية من مبالغات الورع وتکلفات الخضوع والظهور بذلك وهي فضلاً عن ذلك تقدم للجسم أعظم مزايا الحركات الرياضية. أضعف إلى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق كل صلاة، ففيها للبدن انتعاش صحية ونظافة، والنظافة من الإيمان.

ويتميز الإسلام في الدعوة إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذي يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة. وأن صوت الإنسان صوت طبيعي، وهو أدعى إلى حل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين للقيام بأهم أركان الإسلام.

(٧)

طابع الإسلام

إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر الفكر، أو لا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكراً، وكما أن الإسلام منذ نشأته هو لجميع الشعوب، والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات، وجميع درجات المدنيات، وللإسلام على النفوس طابع لا يمحى، فهو يهيج في نفس الرجل العملي في أسواق لندن، حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو

يأخذ بلب الفيلسوف الروحاني، وكما يتقبله عن رضى ذلك الشرقي ذو التأملات، ورب الخيال. إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن وتملّكه الشعر، وهو الدين الذي ليس له مرتدون. هذا ولو أردنا أن نعرف الأثر الحقيقي والطابع الكبير للإسلام على الأفغنة والنفسos أوجب دراسة القرآن دراسة تحليلية حتى يظهر قدر العظمة والتأمل في روح العقيدة الإسلامية فيها يتعلق بالله سبحانه وتعالى.

* * *

وبعد فهذه محاولة لتقديم عصارة موجزة لرسالة مسيو إيتان دينيه من أكبر رجال أهل الفن والتصوير الفرنسيين، وصاحب اللوحات النفيسة القيمة التي تزدان بها جدران المتاحف الفرنسية الكبرى، وله في متحف لوسمبرج بباريس عدة صور منها: الصورة المشهورة باسم (فداء وغداة رمضان). وكان قد درس الإسلام واعتنقه عام ١٩٢٧ - وسمى نفسه ناصر، وله عدة مؤلفات منها: حياة العرب - وحياة الصحراء - وكتاب الشرق كما يراه الغرب. ومن أهم كتبه تاريخ الرسول، وضعه بالفرنسية، وزينه بالصور الملونة الرائعة من ريشته الخاصة، وقدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى. وقد توفي إلى رحمة الله في الأعوام الأخيرة، وقام بترجمة بعض آثاره: راشد رستم. ومن بينها رسالة (أشعة خاصة بنور الإسلام). التي قدمنا خلاصة لها في هذا الفصل القصير، والذي بدأه بقوله: «إن الشخصية التي حملها بين برديه كانت خارقة للعادة. وكانت ذات أثر عظيم جدًا حتى أنها طبعت شريعته بطبع قوي جعل لها روح الإبداع، وأعطتها صفة الشيء الجديد. وتلك هي الأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطبعه الواضح المحسوس. بل إن آثاره لا تزال باقية في أهل إسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون».

٣ - أما الدكتورة (لورا فيشيا فاليري) الكاتبة الإيطالية، وأستاذة اللغة العربية، وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابولي بإيطاليا، فإنها تتميز في عرضها للإسلام بطابع مختلف، فهي متوقفة دفعها إيمانها بتحرير الأبحاث الدينية إلى مراجعة ما كتب عن الإسلام في المراجع الموجودة في جامعة نابولي. فلما لم تجد ما يشفي غلتها أو يدها على الحقيقة، تطلعت إلى مؤلفات المسلمين باللغة العربية، فاستحضرت مؤلفات العزالي وابن تيمية ومحمد عبده، ولم تلبث أن كتبت بحثاً مطولاً تحت عنوان (محاسن الإسلام) ترجمه في أوائل الثلاثينيات (طه فوزي) بمحكمة استئناف مصر عام ١٩٣٤ - ثم أعاد ترجمته تحت عنوان آخر هو: «دفاع عن الإسلام»: منير البعلبي وطبعه في لبنان عام ١٩٦١ - والكتاب يروي قصة إيمان حقيقي للكاتبة بالإسلام. وقد لقيت الكاتبة - كما تروي في تصاعيف كتابها - متابعاً جمّاً من جراء التصريح برأيها في الإسلام من بعض الدوائر الثقافية الغربية. ويبدو في عرضها طابع الشاعرية التي تتسم به كتابات المرأة ذات الثقافة اللاتينية تقول:

تفجر ينبوع ماء سلس عذب منعش في وادٍ غير ذي زرع. ذلك الينبوع هو: (الإسلام) الذي تدفق بغزاره، واتخذ سبيلاً في الأرض سرباً. فكان نهيراً استحال بعده إلى نهر عظيم سرعان ما تفرّعت منه آلاف الجداول والأنهار التي تغلغلت في البلاد طولاً وعرضًا، ولم يلبث الناس أن تذوقوا هذا الشراب العجيب، وشفوا منه أمراضهم الاجتماعية، واستحال هذا الماء المقدس سيلًا جارفًا اكتسح بقوته الساحرة بلاداً عظيمة، فتغلب عليها واكتسحها اكتساحاً وأيقظ بصيحته العقول الغافلة التي كانت تعط في سبات عميق. وتقول:

لم يشهد التاريخ حدثاً ماثلاً لهذا الحادث الخطير، لأن السرعة العظيمة التي أتم بها (الإسلام) فتوحاته كان لها أبلغ الأثر في حياته. إذ

أصبح ديناً لعدة ملايين من الناس - ليت شعري كيف تأق هؤلاء المجاهدين غير المدربين أن ينتصروا على شعوب تفوقهم مدنية وثروة. ويزيدون عليهم دربة ومراساً للحروب، وكيف استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على بلاد متعددة الأرجاء، وأن يحتفظوا بفتحاتهم هذه، ويوطدوا هذا الصرح الضخم الذي ثبت أمام حروب شديدة استمرت قرونًا عديدة. فلم تقو على هدمه ونقض بنائه الشامخ المتين، وكيف أمكن هذا الدين أن يوطد في نفوس أولئك المهددين به أقوى الأسس. وكيف تسنى له أن يحتفظ بحيويته العظيمة التي لم تعرف مثلها ديانة أخرى من قبل حتى بعد ثلاثة عشر قرناً خلت من حياة مؤسسه، وتقول:

بعد أن زالت مدينتا الدولتين: الفارسية والرومانية، وتهدمت ديانتيهما سرى في عروق الشعوب تيار جديد، وانتشرت بينها ديانة جديدة بسيطة تتحدث إلى العقل وإلى القلب معاً كما ظهر نظام جديد للحكم يفضل كثيراً تلك النظم التي كانت متبعة هناك في ذلك الوقت. نظراً لمبادئه الخلقيّة الكريمة. كذلك انتقل المال المحبوس في خزائن الأشراف إلى أيدي الفقراء وعامة الشعب. وأخذت تتناوله الأيدي مرة ثانية، وتستفيد من ثمراته. وبعد أن هدأت الفتوحات. بدأ عهد جديد عهد نجاح وثراء لم تره القارة الآسيوية منذ قرون بعيدة. كما أن مختلف الطوائف كانت تجد في حكامها الجدد كل ضمان لطمأنيتها، ويتمتعون بكلّة حقوقهم المشروعة - كما أن أرواحهم وأملاكهم كانت مكفولة. وبالجملة كانوا يعاملون معاملة إخوانهم المسلمين سواء بسواء.

* * *

أما الذين دهشوا لهذا الانقلاب الاجتماعي الديني السياسي فإنهم لم يدركون أن القوة الإلهية هي التي أعطت الإشارة الأولى لهذه الحركة الواسعة النطاق، ولم يشعروا أن الحكمـة الإلهية هي التي اقتضت أن

يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وسجلت له إلى الآن رسائل عامة إلى الناس أجمعين بغير تمييز بين جنس وجنس، أو بين بلد وبلد.

ولقد كان محمد كثير التسامح، وبخاصة مع أهل الكتاب، كما أنه أخذ غير المسلمين بالكثير من الصبر والأناة، لأنه كان يتوقع هدايتهم مع الزمن، وكما كان النبي يعقد المعاهدات مع خصومه المغلوبين على أمرهم. فكذلك فعل الخلفاء، ولما كانت تعاليم النبي وخلفائه الأوائل تعتبر بمثابة قانون للمسلمين، فإنه يمكن القول بحق أن الإسلام لم يقتصر على التوصية بالتسامح. بل إنه قد أدرجها في قانونه السماوي بحيث صارت قاعدة أصيلة من أصول الدين.

وتقول: ولقد كان محمد - كرسول يدعو إلى الله - رجلاً رحيمًا لين الجانب حتى لأعدائه الشخصيين. وبذلك اجتمعت فيه فضilitan كل تأثيرها أكبر الفضائل التي يتصورها العقل البشري، وهو «الرحمة والعدل». وقد انهدمت الوثنية بفضل الإسلام، وتحررت المدارك، ونشطت العقائد، وخلصت الحياة الاجتماعية من مظاهر الوحشية، وانقضت الأوهام التي كانت تسسيطر على النفوس وبخلوص النفس البشرية من أوهامها. تحررت إرادة الإنسان من الروابط التي كانت تقيدها بإرادة الآخرين، أو بسلطات خفية، وسقط كل الذين كانوا يزعمون لأنفسهم الوساطة بين المرء وربه، فصار الإنسان بفضل الإسلام عبداً لإله واحد، وصار الناس سواسية كأسنان المشط، ورفع الإنسان النقاب الذي أسدل من قبل عن الكتب المقدسة للحيلولة دون فهمها، ولم يعترف الإسلام لكاين من كان من أتباعه بحق الحكم على إيمان أحد من إخوانه في الدين، وإذا كان أتباع المذاهب المختلفة في الأزمنة السابقة. قد اتهم بعضهم بعضاً. فإن الإمام الغزالي حجة الإسلام أعلن في الإسلام المذهب القائل: بأن الإجماع على العقائد الأساسية للدين هو أساس الاعتراف بإيمان الناس. وبأن

الاختلافات حول التفاصيل في الاعتقاد والمذاهب لا يؤدي إلى المروق من الدين. وفي صدر نظرية العدالة الإلهية يؤكّد القرآن في غير موضع أنّ أعمال الإنسان سواء كانت طيبة أم سيئة، هي مما كسبت يداه «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى» ولن يغلق الله الباب في وجه واحد من عباده، حتى الأشرار منهم. بل يسر لهم المقدرة والكافية لعمل الخير، وأن رحمة الله هي إحدى المسائل التي تكرر ذكرها في القرآن، وأن تسميتها بالرحمن التي تبدأ بها كل سورة من سور القرآن، لتدل دلالة واضحة على أهمية هذه المسألة.

وتقول: على أن المعجزة التي تفوق كل المعجزات، والتي وصلت إلينا أخبارها من مصادر غير مشكوك في صحتها. فهي (القرآن) فإنه كتاب لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثله. إذ أن كل عبارة من عباراته منسقة متزنة. مشتملة على معانٍ كثيرة سهلة المأخذ، فلا هي كثيرة الإيجاز، ولا هي بالغة حد الإسهاب والإطالة، ولما كان أسلوب (القرآن) فريداً في بابه، ولم يكن له مثيل سابق في الأدب العربي، فإنه يقع من النفس البشرية موقعًا صحيحاً لا تصنع فيه ولا افتراء ولا تمويه ولا استكراه. إذ أن آياته كلها على جانب عظيم من الفصاحة، حتى ما كان منها خاصاً بالأوامر والتواهي التي يجب منطقياً أن تكون في أسلوب هادئ، كما أن سير الأنبياء، وأوصاف بدء الخلق ونهايته، والأحكام وخصائص الله وصفاته. كل ذلك يتكرر ذكره في هذا الكتاب العجيب بأشكال وصور متعلقة، ولكن دون أن يفقد شيئاً من روعته ومكانته، وكذلك فإن الانتقال من موضوع إلى موضوع في القرآن يحصل كثيراً، ولكن بغير أن ينحط التعبير عن مستواه ودون أن تقل حلاوته. وكذلك فإن التعمق وسلامة التعبير، وهمما صفتان يندر أن يجتمعان معاً. وقد ظهرتا متجلتين في القرآن، وفيما عدا ذلك، وأن كل صور البلاغة تجد تطبيقاً كاملاً في القرآن، فكيف إذن والحالة هذه

يمكن القول بأن هذا الكتاب العجيب من عمل محمد الذي لم ينظم طوال أيام حياته بيتاً واحداً من الشعر سوى قوله: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولقد تحدى النبي قومه أن يأتوا بكتاب مثل القرآن أو بسورة واحدة منه، ومع أن الفصحاء بين العرب كانوا أكثر من رمل الصحراء، فإن أعداء الإسلام لم يستطعوا أن يعارضوا القرآن، ولكنهم حاربوه بالسلاح عندما لم يجرؤوا على محاربته بالكلام، وفضلاً عن روعة الشكل، وجمال الأسلوب اللذين اختص بها القرآن، فإنه لا يشبه كتاباً آخر في مادته، فإننا نقرأ فيه نبوءات بحوادث مستقلة، وقصصاً عن حوادث مجهرة، وقعت منذ أجيال بعيدة، كما أنه حوى إشارات إلى العلوم المختلفة من دينيه ودنيوته.

واجتمعت فيه كذلك حكمة لا يستطيع إدراك كنها ذكي الناس فهما وأطول الفلاسفة باعاً وأعظم السياسيين حنكة. فلكل هذه الأسباب لم يكن من المعقول أن يكون بعيداً عن الأوساط العلمية ورجال الدين، رجل كان يرى نفسه كسائر الناس بعيداً عن الأوساط العلمية ورجال الدين، رجل كان يرى نفسه كسائر الناس غير جدير بالإتيان بالمعجزات. اللهم إلا إذا كان بعون من الله القدير، ولم يكن مثل هذا الكتاب ليصدر إلا عن من وسع كرسيه السموات والأرض، وأحاط بكل شيء علمًا. على أن هناك دليلاً آخر على قدسيّة القرآن، وهو أنه بقي طوال هذه القرون العديدة التي مضت منذ نزوله إلى يومنا هذا. دون أن تزال منه يد تغيير ولا تبديل، وسيبقى هكذا إلى ما شاء الله.

* * *

وتقول: ولقد حاول أعداء الإسلام أن يظهروا النبي في صورة رجل رغبة بأن اتخذوا من زيجاته العديدة حجة لاتهامه. فاتهم أمراء هام لم يحسدوا له حساباً. وهو أن النبي أيام فتوته، وعنهوان شبابه لم يتزوج إلا من امرأة

واحدة هي: السيدة «خديجة» وحِفَظَ لها في أثناء الخمس والعشرين سنة كل محبة وإخلاص، ولما فقدها وكانت سنه حين ذاك خمسين سنة. تزوج من أخرى، كما عقد زيجاته المختلفة التي كانت في أغلب الأحيان لدواع اجتماعية أو سياسية.

وتقول: أما المرأة فقد أعطاها الإسلام حقوقاً، وكرمها تكريماً، وإذا كانت المرأة في أوروبا قد بلغت شأواً في السنين الأخيرة. فإن مركزها قانوناً كان إلى وقت قريب في كثير من البلاد أقل استقلالاً من مركز المرأة المسلمة في العالم الإسلامي. فإن المرأة المسلمة فضلاً عن تعمتها بحق مشاركة أخواتها في الميراث، ولو بنسبة أقل، وعدم زواجهها بأحد بغير رضائها، وعدم إكراهها على معاشرة زوج يسيء معاملتها، فإن لها الحق في قبض مهر من زوجها. وأن يقوم الزوج بالإتفاق عليها حتى ولو كانت موسرة، وأن تتمتع بكل استقلالها وحريتها في إدارة ممتلكاتها.

وبعد: فإن الأهمية التي يضفيها الإسلام على العقل. هي في نظر معظم المسلمين بحيث أنه إذا جاء ما يوهم ظاهرة أنه غير متmesh مع العقل وجب الاعتقاد بأن الظاهر هو غير المراد. هذا الإيمان الذي أساسه الاقتناع الفكري والذي يفرض على الرجل أن يستعمل مواهبه الفطرية، وأخصها الفكر في تفهم أصول الدين، كيف يستطيع أن يكون هذا الإيمان عائقاً للعلم والفلسفة.

ولكن هل منع الإسلام تقدم الثقافة والعلوم في الأجيال السالفة. عندما كانت مدارس العرب وقصور أمرائهم ينبعث منها النور إلى أوروبا، التي كانت غارقة في ظلمات القرون الوسطى، وعندما كان فكر فلاسفة العرب قد بلغ أسمى علاه حتى صار مناراً تهتدى به عقول الغربيين. لم يمارس العرب الطريقة التجريبية قبل أن يعلن عنها العلامة «بيكون» ألم يكن للعرب الفضل الأول في تقديم علم الكيمياء والفلك. وفي نشر العلوم

اليونانية ومتابعة الأبحاث الطبية، وفي اكتشاف الكثير من القوانين الطبيعية. وهل بعد هذا يمكن أن يقال أن «الدين الإسلامي» من طبيعته إعاقة تقدم العلوم والثقافة؟ من الحق أن يقال أنه لا يوجد في الإسلام أي أسس للاعتقاد بأن النبي أو وارثي تعاليمه قد نصحوا يوماً بترك الحياة الدينية والاشغال عنها بالعبادة.

٤ - أما العلامة سنكس الفرنسي فإنه يحاول على قدر استطاعته تصوير الإسلام، ويخلص أساساً إلى حقيقتين هامتين:

الأولى: أن الإسلام خلص الإنسان والفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى الخشنة. واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه، وأن يبحث عن خالقه في صميم روحه.

الثانية: أن الإسلام أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة.

يقول: حمل مهمة ترقية العقول البشرية، وإيصالها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة. وبعد أن أمضى محمد عدة سنين في الحياة التأملية أعلن للأفراد المخلصين له بأنه سيقوم بنشر دين الله، ويحمل إلى الناس سعادة هذه الحياة، وسعادة ما وراءها من الوجود الثاني. فتصدأه قومه في مكة، وهددوه بالقتل، فلجأ إلى المدينة (مدينة النبي) ومن تاريخ الهجرة يؤرخ المسلمون.

ولم يمض إلا بعض قرن بعد وفاة النبي ﷺ، حتى كانت جميع شعوب البلاد العربية وشمال إفريقيا من أول مضيق هرمز إلى شواطئ المحيط الاطلنطي خاضعة للراية الإسلامية.

وكانت إسبانيا قد تم فتحها. ومنها زحف المسلمون على فرنسا، ولم يصدهم عنها إلا أن الشعوب اليونانية والرومانية كانت لا تزال متأثرة

بأساطير الوثنية الشعرية، فلم تستطع أن تفهم ديانة غاية في البساطة والصراحة. ولما وقف الشرق في فتوحاته دخل في عهد جديد من الحياة الفكرية، فارتفعت الآداب والصنائع والعلوم ارتفاعاً عجيباً. في بينما كانت أوروبا تتخبط في غياب القرون الوسطى. كان المسلمون قد وصلوا إلى درجة من المدنية عالية بالنسبة لما كان موجوداً منها. وأكب العرب المتعلمون على ترجمة كتابات الفلاسفة الأقدمين، وأسسوا جامعات في بغداد وقرطبة، فحفظوا بذلك المعارف الإنسانية وزادوها.

ثم مضى العلامة سنكس فداعع عن الإسلام اتهام خصومه، ووصفه بالتعصب. وقال: وقد ظلمه من عابه من هذه الوجهة، فلم يقل محمد قط «لا خلاص إلا بالإسلام» بل قال عكس ذلك. فظهر أعظم روح للتسامح في عدد كبير من سور القرآن.

وقد أمر النبي بعدم إيذاء الناس من أجل عقائدهم، وبعدم إكراههم على الإسلام. وقد عابوا على القرآن بشه في أتباعه الاعتقاد بالقضاء والقدر. أي عقيدة عدم استخدام الإرادة أمام الحوادث التي قدرها الله قبل وقوعها. وقالوا: إن ذلك جعلهم في حالة من الجمود العقلي والجسدي ينافي كل تقدم مدني.

وقد غالى عائبه في ذلك، فإن القرآن ككل الأديان أوصى بالخضوع المطلق لإرادة الله، ثم أن القرآن لم يجعل الإيمان بالقضاء أصلاً مطلقاً، كما جعله لوثر وكالفان (مؤسس البروتستانتية) نعم أن عدداً عظيماً من سور القرآن تذكر القضاء والقدر، ولكن منطق الإسلام يقرر أن الإنسان حر، وأنه مسؤول وحده عن نجاته وهلاكه، وأنه يستطيع أن يكون باراً، وأن يكون فاجراً بإرادته.

وقد أظهر محمد في عهد نبوته نشاطاً وعزماً وقوة لا تدل فقط على

ثقته بالله ، ولكن تدل على ثقته بنفسه ، وعلى حريته في الأغراض التي يرمي إليها . وقد ظهرت في المسلمين قوى وصفات لا يمكن لشعب جامد على عقيدة القدر أن يظهرها .

ويتحدث العلامة سنكس عن مفهومه للقرآن فيقول : «والقرآن» هو مجموع ما سبّه الإسلام ، وقد وصفه (بارتلمي سانهلي) وقال : ولم أر ما يشبهه في جميع ما ضم التاريخ الديني للعالم الإنساني . وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذي أحدثه ذلك الكتاب في العرب الدين اعتقادوا بأن محمداً لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وأنه لا بد من أن يكون قد أملأه عليه «الملك جبريل». وقد كان محمد يؤكد أنه يتلقى معارفه عن الملايين الأعلى ، وقد أجمع معاصروه بأن ما في القرآن الكريم من تعاليم ، ليست من صنع محمد ، هذه التعاليم التي رقت عقول الملايين من الناس ، ولا تزال ترقى كل يوم شعوباً متاخرة بإشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية ، والاجتماعية والأخلاقية والبيئية ، ولن تمضي سنوات حتى تصبح إفريقيا كلها دائنة للإسلام والمسلمون يزدادون كل يوم عدا . وكل دليل على حيوية وعظمته ديانة الله .

ولم يأت محمد لمكافحة التوراة والإنجيل ، فهو يعترف بأن هذين الكتابين قد أنزلَا من السماء مثل القرآن لهداية الناس إلى الحق .

وأن تعاليم القرآن جاءت مصدقة لها ، ولكنه - أي القرآن - يزيد على ذلك ، وقد رفض جميع الرموز ، ودعا المؤمنين به لعبادة الله واحد قادر .

وأمر بخمس صلوات في اليوم ليتخلّى الإنسان عن اشتغالاته المادية لحيطات في اليوم ، يرفع خلالها إلى مولاه ، وأمر بأن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية ، وأوجب على المسلم : أن يتصدق بحصة من

إيراده، وتلك غير الصدقة الاختيارية، وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البيتية التي كان غير معترف بها إلى عهده، كما هذب مبدأ تعدد الزوجات، وحمى الأطفال بتحريم قتلهم تخلصاً من إعالتهم، ورعى حق الرقيق، فأمر بمعاملته باعتباره عضواً في البيت، وكان أول من قرر مبدأ المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين من أغني الناس وأقواهم إلى أفقهم وأضعفهم وحرم السرقة والقتل والإكراه. وأعلن محمد بأن للإنسان حياة مستقبله فيها عقاب وثواب.

وعبادة المسلمين لا ترى واسطة بين الإنسان وربه. فالإنسان يستطيع أن ينادي ربه مباشرة دون واسطة، والله واحد أبدى لا يتغير ولا يرى.

* * *

وينتقل الباحث إلى أثر الإسلام في العقول والمجتمعات فيقول: وقد أحدث الإسلام رقياً عظيماً جدًا في تدرج العاطفة الدينية. فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد بين أيدي الكهنة، من ذوي الأديان المختلفة، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة، يجازى فيها على أعماله، وبإله واحد يمكنه أن يعبده ويرتفع بروحه إليه دون وسيط. ثم إن أمر محمد بتحريم الصور في المساجد، وكل ما يمثل الله، قد خلص الفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى الخشنة، واضطر العالم بهذه الصورة أن يرجع إلى نفسه، وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه. وأن يرتفع إليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام والحب.

ويقول: إن الناس لم يلتفتوا للترقي العظيم الذي أوجده الإسلام من الوجهة الأدبية. فإن ذلك الترقى تحقق بعيداً عنا في أمم اعتدنا أن نصفها بالبربرية، لأنه ليس لديهم مثل أفكارنا وعقائidنا، ولأنهم متاخرون عنا من الوجهة العملية والعقلية. ولكن مع هذا يجب الاعتراف بأن هذه

الحركة قد ساعدت بقوة، وتساعد كل يوم لإثارة عقول الأمم. والإسلام الحالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة. ومن كل الشروح الصالحة يظهر لنا أنه أعظم المدراكات على العلاقات التي يجب أن توجد بين الإنسان وخالقه. وأكثرها انتباهاً على الطبيعة والمنطق.

٥ - ويحاول العلّامة الفرنسي «هنري لاوس» أن يتحدث عن أثر الإسلام في الثقافة. وكيف وحدت العقول على مفاهيم شاملة متكاملة ذات طابع استقلالي عن ثقافات اليونان والفرس وغيرهم من سبقوا عصر الإسلام الأول. يقول: إن وحدة الثقافة الإسلامية، تقوم بوحدة العقائد الإسلامية، وما كان الانقسام عند المسلمين إلا في الفروع، ومهما يكن من تأثير العنصر الديني في الثقافة الإسلامية، فليس في الإسلام ما يمنع البحث العلمي، وقد قامت عند المسلمين مدارس مهمة للطبع والعلوم.

ويتساءل هنري لاوس: ما هي الثقافة؟ .

ويجيب بأنها مجموع الأفكار والعادات والmorphes التي يتكون منها مبدأ «خلقي» لأمة ما. ويؤمن أصحابها، بصحتها، وتنشأ عنها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها. وجميع الثقافات تتكون وتطور بعوامل داخلية وتتأثر ببعض المؤثرات الأجنبية، وب يأتي عليها زمان تكون فيه القمة العليا من النشاط والظهور، ويعترضها الوهن في بعض الأحيان، ثم يعقب انحطاطها نهوض تنتعش به. وبهذا المعنى أمكن القول بوجود ثقافة إسلامية عامة ابتدأت في التاريخ بالدعوة الإسلامية في عهد النبوة، ثم تكونت في زمن الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية ثم في عهد العباسين ببغداد، وانتشرت في مختلف الأقطار الإسلامية من الشرق إلى الغرب.

ويقول: تكون الثقافة الإسلامية من الأدب الجاهلي، وهو العنصر الأول الذي يمثل الأقطار، ووصف الحياة في الصحراء ويتجل في «المروعة» التي كان يمتاز بها عرب الجahiliyah، والعنصر الثاني هو العنصر الديني

المحض. وفي مقدمته «القرآن والحديث» منه ما نزل من السور في مكة، وما نزل في المدينة، ويتناول القرآن التكوين السياسي والاجتماعي للأمة الإسلامية، ولا غنى للمستشرقين عن دراسة القرآن. أما الذين لا يفعلون ذلك ولا سيما الذين يظنون أن الإسلام قد زال نشاطه فإنهم يعنون بدراسة المسلمين أكثر ما يعنون بدراسة الإسلام نفسه. والقرآن ما زال يفسر بالسنة التي جاءت مبينة لمشاكله، ومفصلة لمجمله، وهي تتناول التشريع في العبادات وغيرها. وجميع ما يتصل بالحياة اليومية. ولما انتشر الصحابة في البلاد بعد الفتوح أخذ الناس عنهم الحديث، وتناوله القصاص، فوضع بعضهم أحاديث وقصصاً. فانبرى لهم من العلماء رجال ميزوا بين الصحيح والموضوع. وردوا ما دسه الوضاعون. وكانت نتيجة ذلك تدوين كتب «السنة» المعتمدة. وأقول أن التمسك بالسنة أقوى ما يوجه الإسلام. وأن الإمام أحمد بن حنبل وأتباع مذهبه من أشد المتمسكون بالسنة. والعنصر الثالث في الثقافة الإسلامية، هو «المؤثرات» الأجنبية، ومن أهمها ثقافة اليونان. لأن المسلمين ترجموا طائفة من كتب الفلسفة، وبذل بعض المسلمين أموالاً طائلة في هذا السبيل.

وتساءل هنري لاوس مرة أخرى عما إذا كان المسلمين قد اقتدوا أفكاره، وحضارته الأمة السابقة. أم كانت لهم ثقافة متميزة، وإن استعانا بتراث الحضارات من قبلهم، ونموه وزادوا عليه؟

وأجاب: أن الذي أراه أن الثقافة الإسلامية لها طابعها المتميز، ثم عرض لفنون الثقافة الإسلامية وفي مقدمتها التاريخ فقال:

وجميع المؤرخين في الإسلام على نمط واحد في إيراد الحوادث والواقع. لا كما نفعل الآن بتحويل البيئات والمؤثرات والظروف ما خلا (ولي الله عبد الرحمن بن خلدون) فإنه طبق قواعد النقد على التاريخ بكل

معاني الكلمة، وحاول أن يعلل الحوادث التاريخية على ضوء نظرياته الاجتماعية.

ومن مظاهر وحدة الثقافة الإسلامية من جهة الأدب «الشعر»: فإن جميع المسلمين في المشرق والمغرب يتخدون من دراسة الشعر العربي قاسماً مشتركاً لهم. ومن أوّل الروابط بين الأقطار الإسلامية ما رأيته بنفسي في المغرب من عناية المغاربة بـ«شعر شوقي» وحافظ. فهذا كله مما تترتب عليه وحدة الثقافة.

وعندي أن «اللغة العربية» من أهم دواعي الوحدة الثقافية بين المسلمين، وأهم أسباب تفوق هذه اللغة أنها اللغة الرسمية، ولغة الدين. ولا بد لأجل فهم القرآن والحديث النبوي من معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة. وقد قام اللغويون والنحاة بجهود عظيم في البصرة والكوفة لخدمة هذه اللغة.

إذا أضفنا إلى ذلك ما قام به الباحثون علمانا إلى أي حد أصبحت اللغة العربية: لغة العلم والفلسفة في العالم وقال:

ومن مميزات هذه الأيام الإلحاد في البحث عما اقتبسه الأمم الغربية من ثقافة الإسلام. ولقد كان ملتقى الأديبين في الأندلس وصقلية، وبعض المدن الإيطالية كالبنديقية وجنة، وفي الحروب الصليبية أيضاً حدث احتكاك في الأقطار بين الشرق والغرب. وقد كان لتأثير الإسلام في الأمم الغربية في القرون الوسطى أشكالاً مختلفة، ويجب علينا الرجوع إلى تاريخ العلوم لنقدر ما كان لل المسلمين من التأثير على الحركة العلمية في مدارس الافرنج في القرون الوسطى، وأن لغتنا الفرنسية لا تزال إلى اليوم تحافظ على كلمات اقتبسها من لغة العرب. وفي ذلك لمحات دالة على ما وراء ذلك من تأثير.

ويقضي هنري لاوس في عرضه فيقول: ثم لاحت مبادئ النهضة

الإسلامية في العصور الأخيرة، وللثقافة الإسلامية عدة اتجاهات. أهمها الحركة «السلفية» التي يراد بها الرجوع إلى بساطة الإسلام الأولى، وتبتدئ هذه الحركة بابن تيمية، وبتلמידه ابن القيم. وأظن أن في الشرق الأدنى طوائف من المسلمين تميل إلى هذه الطريقة. وقد لاحظت أنا بنفسي اتجاهًا نحو ذلك في المغرب. وهناك تيار تفكيري آخر ينتمي إلى السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وهو أقرب تناولًا من الأول. وقد شاهدت ميلًا عظيمًا إلى هذا التيار في مختلف بلاد الإسلام في الشرق والغرب.

وهناك تيار تفكيري ثالث يقوم به فريق يريدون أن يأخذوا من الغرب كل شيء بلا تمييز ولا نقد، وهم يريدون أن يتبعوا سنتن الغرب في الآداب.

وأقول بغير دهان ولا خوف ولا إفراط أن مصر ستكون عاصمة التفكير للعالم الإسلامي الممتد من بلاد جاوة إلى أسواق الحاليات العربية والإسلامية في أمريكا. وسبب ذلك أن مصر سبقت غيرها من الأمم الإسلامية عن طريق الرقي والتقدم، وللأزهر مركز جغرافي يجعله المدرسة الأدبية الجديدة للأمم الإسلامية المختلفة.

ليس الإسلام عدواً للنصرانية

يقول القس البريطاني إسحاق تيلور، وقد شهد له الباحثون بإنصاف في النظرة إلى الإسلام وأهله: «لما كان الإسلام داعياً إلى نفسه، انتشر في قسم كبير من الدنيا، وفاق غيره في النجاح، ليس تفوق الإسلام منحصرًا في أن الداخلين إليه أكثر عدداً. بل إنه يكسب أقاليم يتقهقر فيها غيره، فقد امتد دين الإسلام من المغرب إلى جاوة. ومن زنجبار إلى الصين، ثم هو ينتشر في إفريقيا بخطوات العباءة، فمتي دخلت قبيلة إفريقية في

الإسلام اختفت عنها في الحين الوثنية وعبادة الشيطان وعبادة البشر؟ وأكل لحم الإنسان، وتقديم الضحايا البشرية، وقتل الأولاد والسحر، وصاروا يرتدون الثياب، وحلت بهم النظافة، وشعروا بالعظمية، واحترام النفس، وصار قري الضيوف عندهم من الواجبات الدينية، مع نبذ شرب المسكرات، وتحريم القمار، وفرضي اختلاط الجنسين، وصارت طهارة العرض من أعظم الفرائض، وذهبت البطالة والكسل، وحل العمل والكد محلهما. وأبدلت الدعاية والانهماك بالانقياد للشرع. وتغلب النظام والرزانة على الشقاق، وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد، وتعلموا الشعور بالإنسانية واللطف والأخوة، ودخل الرق، وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويخففه.

ليس الأهم أن نوضح انتشار الدعاية الإسلامية. بل أهم منه أن الإسلام متى وقع في كفه أحد قبض عليه بيد من حديد فلا يغلبه، وفوق ذلك كله. فالإسلام أقوى وأجمل دين اجتماعي في القناعة والاعتدال في تناول اللذات. وإن اتصلت الرذيلة بالتجارة الغربية الزاحفة على العالم الإسلامي.

أما الإسلام فإن تمدنه خالٍ من غمط الناس، واحتقارهم، وهو يحصن على تعلم الكتابة والقراءة، ولبس الثياب اللائقة والنظافة البدنية، والصدق وعزّة النفس. والحق أن تمدين الإسلام وتقويته للنفوس لعجب.

وبعد فليس الإسلام عدواً للنصرانية. بل هو أنصف النصرانية. والإسلام دين عام لجميع الأقوام، ليس منحصرًا مثل اليهودية في شعب واحد. بل عام شامل لجميع أهل الأرض، والمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء السابقين. وفي مقدمتهم إبراهيم وموسى وعيسى. ليس في تعاليم محمد شيء يعادى النصرانية أو يضادها. ويستطرد القس تيلور فيقول: جاء الإسلام فجرف الخرافات الفاسدة. وكان خصمه شديداً للتبتل

الذى يزعم أنه تاج التقوى. وجاء بعقيدة الدين الأصلية القائمة على توحيد الله وتعظيمه. وإبدال التبتل والرهبة بالرجلة، كما فتح باب أمل للرقيق، وباب أخوة للنوع الإنساني كله، واعترف بالحقائق الجوهرية للطبيعة البشرية، والفضائل التي يعلمها الإسلام هي التي يمكن للشعوب البشرية النامية أن تفهمها، الاعتدال في التمتع بالملذات والنظافة والعدل. والصبر والشجاعة والإحسان والضيافة والصدق والرضا بالقضاء، فأمكنهم أن يعلموا أصول الفضائل الأربع، وأن يجتنبوا السيئات المهلكات.

ويتفوق الإسلام غيره من الأديان في أن الأخوة التي يدعوا إليها عملية. وأن المساواة الاجتماعية تامة بين جميع المسلمين، فمتى دخل شخص في الإسلام انتظم في سلك الأخوة الإسلامية، وصار عضواً في جمعية يبلغ تعدادها (كذا) مليوناً. ولقد أبطل الإسلام عادة قتل البنات. وجعل لكل امرأة حياة شرعية.

٦ - أما العلامة المؤرخ البريطاني (أرنولد تويني) فقد عرض للإسلام في مواضع مختلفة في دائرة معارفه التاريخية. وقد حاول في بحثه هذا الذي نوره ملخصاً له أن يستكشف موقع الإسلام تاريخياً على قدر غير قليل من الإنصاف. ويرى تويني أن الإسلام بدأ كديانة قومية للعرب. وفي نفس الوقت ديانة عالمية لكل البشرية. ويقول عن الرسول ﷺ: هناك بطبيعة الحال تأصيل بمقتضاه لا يمكن أن يترك رجل عظيم جداً العالم من بعده كما وجده أولاً، وإنما هو يصنع أثراً كبيراً على التاريخ اللاحق. وهذا هو عين الحق بالنسبة إلى النبي محمد.

ويقارن العالم تويني بين انتشار الإسلام في منطلقه الأول، وبين انتشار المسيحية. وعنده أن المسيحية لم تستطع أن تصبح دولة خلال عمر المسيح أو بولس، ويرجع ذلك إلى أنها نشأت داخل تخوم دولة عالمية موجودة آنذاك هي «الإمبراطورية الرومانية» واستغرق تمسح الإمبراطورية

الرومانية مدة ثلاثة عشر سنة. أما الإسلام فقد استطاع أن يقيم دولة في حياة الرسول. ولقد انبسطت هذه الدولة بعد وفاته حتى أصبحت دولة عالمية.

ثم أشار تويني إلى مظاهر اتساع الإسلام بحسبانه ديانة عالمية. وأرجع السر في انتشاره إلى أن الفاتحين العرب لم يكونوا دعاة قساة. بل كانوا سمحاء رحماء. فضلاً عما ضمن لغير المسلمين من أهل الكتاب من حياة طيبة، وحرية في العبادة.

ويستطرد تويني فيقول: على أن دخول الناس إلى الإسلام بأعداد ضخمة، داخل الممتلكات السابقة للخلافة، ودخولهم إليه خارج الحدود السابقة لها، لم يبدأ إلا بعد سقوط الخلافة في بغداد، ولقد حللت الأزمة الكبرى حين ذاك بالنسبة للإسلام حين بلغت الغزوات المجنومية ذروتها. الغزو المغولي في القرن الثالث عشر من التاريخ المسيحي، وكانت خراسان وال العراق تعانيان من انخفاض في السكان. ولقد كانت هناك مفاتحات بقصد القضاء على الإسلام بين المغول الذين وصلوا إلى الفرات، والصليبيين والعربين الذين ما فتئوا ملتصقين ببعض القلاع على طول ساحل سوريا. بيد أن الإسلام تغلب على هذه الأزمة. فقد حافظ الإسلام على قلعتين عسكريتين وسياسيتين، أولهما تمثل في قوة المماليك الأتراك في مصر وسوريا، وثانيةهما تمثل في قوة تركية أخرى في شبه القارة الهندية. وكان المماليك هم الجنود الوحيدون في القرن الثالث عشر الذين كانوا أكثر من مجرد نذل للمغول. ولقد أغارت المغول على غرب الفرات. وشرق نهر الهندوس، ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من أن يقيموا استحكامات دائمة خلف النهرتين. ثم إن الإسلام قهر المغول آخر الأمر في إيران والعراق. وكذلك فقد هزم الإسلام المسيحية النسطورية في المنافسة على هداية المغول.

ويضي تويني فيقول: لقد حرر العرب المسلمين سلسلة - من البلدان الشرقية من سلطان إغريقي - روماني - مسيحي - من سوريا إلى إسبانيا عبر شمال إفريقيا. وقد كانت تلك البلدان تحت الحكم الإغريقي أو الروماني نحو ألف من السنين، منذ فتح الإسكندرية الأكبر للإمبراطورية الفارسية، وإسقاط الرومانين لقرطاجه. وذلك بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر.

* * *

وواصل المسلمون فتحهم للهند على مراحل، فنجحوا في الاستيلاء عليها كلها تقربياً. وفوق ذلك سار دينهم «سلماً لا حرباً» إلى أبعد من تلك الأنحاء. فتوغل في أندونيسيا والصين في الشرق وفي إفريقيا الاستوائية وفي الجنوب الغربي، وكانت روسيا قد خضعت زمناً في العصور الوسطى المتأخرة للتتر الذين أصبحوا مسلمين واقتصر العثمانيون المسلمين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ما بقي من المسيحية الأرثوذكسية الشرقية في آسيا الصغرى، وفي جنوب أوروبا الشرقي، وحاصر هؤلاء الأتراك «فيينا» للمرة الثانية في زمن لا يتعدي - ١٦٨٢ - ١٦٨٣ . ومع أن إخفاق ذلك الحصار كان بداية هبوب الرياح في صالح الغرب في معركته مع الإمبراطورية العثمانية. فإن «راية الهلال» كانت ولم تزل ترى خفافة على ساحل الادرياتيك الشرقي مقابل ساحل إيطاليا حتى سنة ١٩١٢ .

ويقول: إن عقيدة التوحيد - التي جاء بها «الإسلام» هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم. فنقول: إن المهم فيها ليس ما يؤدى من مناسك. وإنما هي رمز للإخاء الذي يربط المسلمين بعضهم بعض دون تفرقة لونية أو عنصرية. وما دام الأمر كذلك. فمن الخطر على الإسلام تعطيل هذه الشعيرة.

إن المجتمع الإسلامي هب ظافراً منصوراً في مراحلتين من مراحل

التاريخ أولاهما - عندما حرر مصر وسورية من السيطرة الهملنية التي ظلت جائمة على صدر البلدين طوال ألف عام، وثانيتها عندما وقف «عماد الدين زنكي» ونور الدين، وصلاح الدين، والمماليك صامدين في وجه العدوان الصليبي في الغرب والتellar في الشرق.

* * *

إن آفة المدنية المعاصرة هي الصراع الطبقي والعنصرية. وإن الإسلام قد قضى على التزعة العنصرية. والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي، والمساواة المطلقة بين المسلمين. إنني أدعو العالم إلى الأخذ بهذا المبدأ الإسلامي. وأدعوك إلى نبذ معاداة العرب. وبذلك تنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر الفناء.

عندما كانت حضارة الغرب الرومانية تنحدر إلى الهاوية في القرن السابع المسيحي، وظهرت الحضارة الإسلامية الفتية أصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخط الجديد. وأشد ما خشيته الغرب من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المادة لا ينفع في دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية.

إن الإسلام قد استنكر الوثنية، والشرك وعبادة الأصنام، واسترد عبادة الإله الواحد الذي دعا إبراهيم إلى عبادته من قبل.

* * *

٧ - وحين نراجع ما كتبه الدكتور (بول دي ركلا) نجد أنه يعرض جانب آخر من علاقة الإسلام بالغرب وكلامه متوجه بالإنصاف إلى حد كبير. ومن ذلك قوله:

آن لنا أن نعرف ويعرف العالم أجمع جوهر هذا الدين. لأن معلوماتنا عنه ليست قليلة فحسب. بل هي سيئة جدًا، وأرى من جهة ثانية أنني

أكون أسديت إلى قومي الفرنسيس خدمة إذا ما أوقفتهم على حقيقة دين جاء بمبادئه فيها كل الفوائد لأعمالهم. اللهم إذا انقادوا للحق واتبعوا أوامره الجلية.

دين يجب ألا نكتفي بتسميته ديناً ونقف. بل لنعطيه اسمه الحقيقي ولنسميه فلسفة حياة. وبذلك تكون قد أعطيناه مركزه بين الأديان.

ولست بغالٍ إذا صرحت علناً، وقلت إن الإسلام مفتوح بابه على مصراعيه، وهو أوسع الأرجاء ليتلقى الرقي الحديث الذي أنتجه الأجيال الطويلة، وليس كما يزعم التعصب بمحدود الأطراف. وضيق المدخل، لأن تعاليمه الرفيعة وضعت لكرور الدهر. وستبقى خالدة وضاءة الأنوار تكشف كل مدينة تمحض عنها العصور.

ويكفيه فخراً أنه لا يقر مطلقاً بالقاعدة الشاملة (الإسلام خارج الكنيسة) التي يتبعها كثير من الناس. وقد أظهرت لنا الأيام أنه هو الدين الوحيد الذي حل بعدل مشكلة حقوق البنين وواجباتهم باعترافه بالمولود ضارباً عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونواتيسها الذي أوجده الدين الكاثوليكي بحق الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين. إذ فرق الدين الكاثوليكي بينهم. فأعطى الأول كل الحقوق، وحرم الآخر من كل الحقوق، فعمل كهذا منافي لسنن الطبيعة وجريمة كبرى نقترفها بحق الأولاد غير الشرعيين.

وإن الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفحotor، ويكتفي فخراً أنه قدس الأنسال وعظمها ليرغب الرجل بالزواج ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً.

وإن الإسلام قد حل بعقلية عالية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغلي مشارعي الغرب بتعقيداتها.

فالإسلام هو الدين الديمقراطي الوحيد سواء أكان بتعاليمه أم بشرائعه أو بعاداته فهو لا يعترف مطلقاً بالزعامة الدينية. وما الرتب والألقاب سوى نعوت شرقية تعطى لبعض الأشخاص الذين هم مركز بّين في الهيئة الاجتماعية ولا تورث للأعقاب.

فالإسلام وهو في ترقي مستمر يستحق، ولا ريب أن تدرس تعاليمه من قبل عظماء رجالنا الموكول إليهم أمر نشر نفوذنا. ومع الأسف قد أساءوا العمل بالإغصاء عنه، لأنهم يجهلون جوهره الشمين، مساقون في ذلك إلى اتباع خطى أسلافهم فهم مقلدون ليس إلا.

٨- أما المؤرخ العلّامة روم لاندو الذي طاف بالعالم الإسلامي، واتصل بال المسلمين والعرب في مختلف البقاع. فيقول في كتابه: الإسلام والعرب أن الإسلام رسالة اجتماعية تتمتع فيها مصلحة المجتمع الكلية بالأهمية الرئيسية ويضيّ فيقول:

نشأ محمد يتيمًا في كنف أحد أعمامه «أبي طالب» منفقةً ساعات طوالاً متواحداً في مكة، أو في ضواحيها يرعى الغنم. وفي إمكان المرء أن يتخيّل في يسر ما استشعره الشاب الحساس من وحدة وانفراد. والأثر الذي كان لا بد لهذا الوضع أن يتركه في تكوينه العقلي. والواقع أن ما نزل عليه بعد من وحي لم يهبط في فراغ بل هبط في جو من الاستيطران المحظوم، والتساؤل الروحي. وكان محمد في أوائل العقد الثالث من عمره عندما عهدت إليه «خدیجۃ» في قيادة قوافلها التجارية. وكان في خدماته المخلصة لها، وفي أمانته ما جذب مستخدمته إليه، فإذا بها تمسي زوجاً له.

ولم ينسب محمد في أي يوم من الأيام إلى نفسه صفة الوهية، أو قوى أعموية. ولقد كان حريصاً على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس. كان مهماً تقىً بالفطرة. وكان من غير ريب مهياً لحمل رسالة الإصلاح التي تلقاها، وبالإضافة إلى طبيعته الروحية كان في جوهره رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف، ومواطن القوة في الخلق العربي، وفي نفس الوقت كان محمد يملأ إيماناً لا يلين بفكرة (الإله الواحد) وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنين العرب.

وكانت مهمة محمد هائلة، كانت مهمة ليس في ميسور «دجال» تحدوه دوافع أناانية. وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربي أن يرجو النجاح في تحقيقها بجهوده الشخصي، والزعم القائل بأن فترات تلقيه الوحي كانت في الواقع نوبات صرع خطيرة على نحو جلي، وذلك بأن من يتعرض لمثل هذه النوبات لا يمكن أن يكون مالكاً وعيه ومنطقه إلى حد القدرة على النطق بمثل المقاطع العميقية من وجهة النظر الفكرية التي تقع على كثير منها في القرآن. وأن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد في أداء رسالته. وما كان لأتباعه من إيمان كامل فيما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون «كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأي ضرب من الخداع المتمعد، ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق «ديني» متعمد - حتى ولو كان صاحبه دجالاً عقرياً - استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن على ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة. وحسب بل إنه لا يزال يكسب في كل عام أتباعاً جدداً، وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحداً على محتال كان لرسالته فعل في خلق امبراطورية من امبراطوريات العالم، وحضارة من أكثر الحضارات نبلًا. إن الشكل المكتوب للوحي الذي تلقاه محمد مثبت

وفقاً للاعتقاد الإسلامي، كما أنزله الله تماماً عن طريق جبريل. فقد دون أصدقاء الرسول كلماته على أي سطح تيسر لهم الوقع عليه، ولكن هذه المدونات لم تجمع كلها في كتاب واحد إلا برعاية عثمان الخليفة الثالث.

* * *

ويجد المسلمون الهدى والإلهام في المقام الثاني بعد القرآن في السنة، وهي مجموعة أقوال محمد، وما ثبت صحته من أفعاله، ولقد جمع «الحديث» وهو الاسم الذي يطلق على هذه المجموعة في كتب متعددة. ومن بلاد العرب الوثنية اقتبس بعض العادات والأعراف. ولكنه ظهرها من صبغتها الوثنية. لقد احتفظ بالحج إلى مكة، ولكن بعد أن حطم مئات الأصنام التي سادت الكعبة.

وفي المقام الثاني في الأهمية بعد الإيمان بالله، أكد الإسلام على حياة المؤمن المقبلة في الجنة. وفي ذلك الحج الذي كان مشحوناً بالريبة الكاملة. أعلن محمد عقيدة جعلت جميع المؤمنين أكثر من أخوة. لقد كانت مهمة «الإسلام» أن يجعل قانون الشرف والوحدة القبلي الضارى إلى عقيدة دينية منظمة خلائق بها أن تشمل البدوى والمدنى في آن واحد.

هذه العقيدة الداعية إلى تساوى الناس أمام الله، ووحدة المؤمنين في الله أحذت تغييراً عميقاً في تفكير العربي وسلوكه. ولقد كان ثمة تعبير أصيل عن المساواة في صدر الإسلام الأول، تجلى في الطريقة الديقراطية التي اختير بها خلفاء محمد الأولون، وانعدام التمييز العرفي ونظام الطبقات الاجتماعية. وبعض الكتاب يطلق على المسلمين اسم «المحمديين» وهذا خطأ يوهم السامع بأن المسلمين يعبدون أو يؤلهون الرسول.

إن «الإسلام» تطبيق يطلق على ذلك النظام الإيماني المبني على القرآن، وهو مشتق من لفظة «أسلم» أي «أذعن» العربية ولفظة «أسلم» تعنى من أسلم نفسه لله.

وأن ورح المفهوم القرآني لله هو البساطة بعينها «الله لا إله إلا هو». وقد أنشأ المسلمون مفهوماً لوحدة الله لا يعرف اللين البينة. الواقع أن هذا المفهوم قد مثل خطوة جباره يخطوها الرجل العربي برغم ما كان يكتنفه من مئات الآلهة التي غصت بها الكعبة. والقرآن يؤكّد على أنه ليس ثمة إثم أشنع من الإيمان بأن الله شركاء. وذلك حين يقول: «أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء». ويمكن تلخيص وجهة النظر السنّية بهذه الكلمات: «الله واحد. أحد. فرد صمد. لم يتخذ صاحبة ولا ولد» فالله عند المسلمين هو خالق الكون وسكناته. وقدرة الله أهم في نظر المسلمين من محبة الله بكثير. وليس عجياً أن تكون فكرة قدرة الله وقوته أقرب إلى فؤاد العربي العائش في محيط عسير قاس، من فكرة المحبة وثمة مفهوم آخر «للله» كان ذا شأن عظيم. ولا يزال عند الكثرة الكاثرة من المسلمين. أعني المفهوم القائل بأن الله موجود في كل مكان، وأن وجوده ليس مقصوراً على أي مكان أو حيز أو زمن بعينه.

وواجبات المسلم الدينية الرئيسية تدعى في بعض الأحيان «أركان الإسلام الخمسة» هي التي تؤلف شعائر الإسلام بالنسبة إلى المسلم العادي.

وقد مزج الإسلام ما بين الاصلاح الأخلاقي، والعبادة الدينية مزجاً ينسجم انسجاماً رائعاً مع أمزجة العرب وحاجاتهم.

ولم يكُد الإسلام يولد حتى واكب النجاح والفتح. فالإسلام في أساسه دين علمي. فالقواعد التي ينص عليها القرآن الكريم ليست جامدة. ولقد كيّفت وفقاً لما قبضت به الأحوال والظروف.

وفي شكل المصلي المسلم المتقوس، وفي شكل الكعبة المکعب، وفي مستطيل الجامع المقبب ينعكس الشعور الإسلامي بالاستقلال الذاتي. إن

المسلم لا يستشعر أن الله هو «هناك فوق» بل يستشعر أنه موجود في ذات نفسه.

ويضي روم لاندو فيقول: والقواعد الأساسية التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية هي «الحرية» التي هي هبة من هبات الله، وقد نصّ الرسول على هدفها بقوله: «يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِرُوا». لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ومن المهم أن نشير هنا إلى الشريعة التي برغم هيمنتها الكاملة على الجماعة الإسلامية لا تلزم غير المسلمين.

والحق أن اهتمام الإسلام الرئيسي لينصب على المجتمع أكثر من انصبابه على الفرد. ومن أجل ذلك تعني الشريعة على الجملة بالظاهر الاجتماعي من القانون.

إن الإسلام رسالة اجتماعية تتمتع فيه مصلحة المجتمع الكلية بالأهمية الرئيسية. فالفرد بما هو فرد محجوب دائمًا بالمجموع. وأن التوكيد الأساسي في الإسلام منصب على قوة الله وقدرته. ومن هنا يذعن المسلم التقى له تعالى من غير تردد ولا مناقشة.

وكان محمد قد أبلغ الناس رسالة لا تقر أي وساطة بين الله وعبداته، ولا ترضى القول بأي تجسد.

ويختتم روم لاندو بحثه الذي خصناه في هذه السطور فيقول: الواقع أن إلقاء نظرة على أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين لتعطينا فكرة عما يعتبره أهل السنة أساسياً في مفهوم لطبيعة الله. وإذا أردنا الإجمال استطعنا القول أن في الإسلام إيماناً بوحدانية الله وقدرته الكاملة، ووجوده في كل مكان، وعلمه بكل شيء، ووعيه ذاته، وطبعاً بجميع الصفات التي تعددت أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين.

الباب الرابع

الاسلام والعلم

اعترف بدور الإسلام في بناء المنهج العلمي التجريبي كثيرون وقد أصبحت هذه الحقيقة عالية الذرى فوق كل راية وقد عرض درابر لنظريات النشوء والارتقاء عند المسلمين فقال: ولما ولّي الخليفة أبو جعفر المنصور: نقل تحف الملك إلى بغداد، وجعلها عاصمة فخيمة، فلم يأل جهداً في بذل الوسع في درس العلوم، وتأسيس مدارس الطب والشريعة. واتبع هارون الرشيد جده في هذه الفتوحات العلمية، وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد، ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوية، لم يشرق إلا في خلافة المؤمنون، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى، وجمع إليها كتاباً لا تُحصى، وقرب إلىه العلماء، وبالغ في الحفاوة بهم.

* * *

ذاق العرب من الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القرحة ويشهد الذهن. وقد افتخرموا فيما بعد بأنهم أنجعوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة. أما في العلوم فقد كان توفقاً لهم فيها ناشئة من الأسلوب الذي توخلوه في المباحث، فإنهم قد تحققاً أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم. وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها. ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العلمي والحسي.

ويلاحظ المطالع لكتبهم العديدة في الميكانيكا، والأيدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والأبصار بأنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائل عن طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات. هذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمكتشفين لحملة آلات للتفطير والتلصيع والاسالة (اسالة الجوامد) والتصفية الخ. وهذا بعينه هو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة، والسطوح المعلمة، والاسطربلات: وهي آلات لقياس أبعاد الكواكب. وهذا أيضاً الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيماوية. وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته، وهو أيضاً الذي أرشدتهم لعمل الجداول على الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية (جداؤل تعرف منها الكواكب) مثل الذي كانت في بغداد وقرطبة وسمرقند. وهو الذي أيضاً أوجب لهم هذا الترقى الباهر في الهندسة وحساب المثلثات، وهو الذي هم بهم لاكتشاف علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية.

ولقد دأبوا على جميع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصلا إلى تكوين المكتبات. وقد قيل أن المؤمن نقل إلى بغداد مائة حمل بغير من الكتب، وقد كان أحد شروط معايدة الصلح بينه وبين الامبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكاتب القدسية التي كان فيها بين الذخائر الشمية الأخرى كتاب بطليموس عن الرياضيات السماوية. فأمر المؤمن بترجمته للعربية وسماه (المجسطي).

وقد حصلت العناية بأمر هذه المكاتب، حتى أن مكتبة القاهرة كان بها نحو من مائة ألف كتاب معنٍ بكتابتها. وتجليدها غاية الاعتناء. وكان يوجد من بين هذه الكتب ستة آلاف مجلد في الطب والعلوم الفلكية فقط. وكان من نظام هذه المكتبة أنها تغير كتبها للطلبة الساكنين في القاهرة. وكان

بتلك المكتبة كرتان أرضيتان إحداهما من الفضة، والأخرى من البرونز، قيل إن الأولى صنعتها بطليموس الفلكي نفسه. وأنها استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقد يونانية) من الذهب. وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد. وكان جدول أسمائها وحده محتوياً على أربعة وأربعين جزءاً، وغير هذا فقد كان في الأندلس سبعون مكتبة عامة. وكثير من المكتبات الخاصة. وما يحكي أن أحد الدكاترة العرب رفض دعوة سلطان بخارى له محتاجاً بأن كتبه لا يمكن نقلها إلا على أربعمائة بعير.

لقد كان يوجد في كل مكتبة كبيرة سجل خاص للنسخ والترجمة. وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك. وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه، وكل المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة أو حجر.

١ - وكان الملك الإسلامي العربي ملوءاً بالمدارس والكليات. وكانت بلاد المغول ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها. من طرف من أطراف المملكة الواسعة التي فاقت المملكة الرومانية كثيراً، مرصد في سمرقند لرصد الكواكب، وكان يقابلها في الطرف الآخر مرصد جيراك في الأندلس، قال جيرون: كان أمراء المسلمين في الأقاليم يناظرون الملوك في حماية العلم والعلماء. وكان من نتيجة تشجيعهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة، ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية في بغداد، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً. وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف، لا فرق بين غني وفقير، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة.

* * *

ولقد اهتم الفلكيون العرب بتحسين آلات الإرصاد وتهذيبها،

وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة، والأشكال وال ساعات المائية، والسطوح المدرجة الشمسية وهم أول من استعمل البندول «الرقص». أما في عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء، وبعضاً من محللاتها الشهيرة بحمض الكبريتيك وحمض التريك والكحول (الاسبرتو) واستخدم العرب علم الكيمياء في الطب لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والأقربادينات، واستخراج الجواهر المعdenية. أما في علم الميكانيكا فإنهم عرروا وحددوا قوانين سقوط الأجسام، وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركات.

أما في الأيدروستاتيك (علم موازنة السوائل) فقد كانوا أول من عمل الجداول المبنية لأنواع الأوزان النوعية، وكتبوا أبحاثاً عن الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء.

أما في نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الفرض اليوناني الذي يقول بأن الابصار يحصل بوصول الشعاع من المرئي إلى العين، وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها. وقد اكتشف «الحسن بن الهيثم» الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق، وكذلك في الغرب نراهما قليلاً بعد أن يغيبا.

إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلّاً بالتقدم الباهر الذي ناله الصنائع في عصرهم. فقد استفادت منها فنون الزراعة، وانتشرت معامل الصنائع لكل أنواع النسوجات، وكانوا يذيبون المعادن، وكانوا يحررون في عملها على ما حسنوه وهذبوا من صنعها وسبكها.

وكان العرب من عشاق الموسيقى والشعر، وقد وهبوا وقتاً كبيراً

وبحبهم مكانة من أفقدهم، وهم الذين علموا الأوروبيون لعب الشطرنج، وبثوا فيهم ذوق مطالعة الأفاصيص.

وكان للعرب لذات روحية حتى في مجالات الأدبيات الفلسفية. فكان لديهم مؤلفات عالية جدًا في تقلب الأحوال الإنسانية، وعلى نتائج عدم التدين، وعلى زوال النعم، وعلى أصل العالم وبقائه وأخرته، وأنا ندهش أحياناً حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية، وما كانا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر، من ذلك أن مذهب التشوه والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهبًا حديثًا كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا وصلوا به إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه. وذلك بتطبيقه على المواد الجامدة، والمعدنية أيضًا.

وقد احتفروا الناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والرئيسي والحديد والذهب. ويرعوا في صناعة الصباغة، ومهروا في سقي الفولاذ مهارة بعيدة المدى، حتى أن صفاح (طليطلة) أصدق البراهين على ذلك، ونعرف أنه كان لنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود، ولورقهم شهرة عامة. وأنهم في كثير من فنون الصنائع برعوا ببراعة لم يلحق لهم شاؤ فيها للآن.

وإذا كانت لهم معلومات عالية في الطبيعة النظرية خصوصاً في نظريات الضوء والابصار. فقد حفظت عنهم اختراعاتهم لأجهزة ميكانيكية من أدق ما يعرف من نوعها، واكتشافهم للجواهر التي تعد من أعظم أراكيين علم الكيمياء مثل الكحول، ومحض النيتريل. وقد سجلت لهم أكبر العمليات الأساسية مثل التقطر، وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة.

٢ - ويضي العلامة شاتليه أستاذ العلوم الاجتماعية والإسلامية في

الكوليج فرنس في أوائل القرن فيصور العلاقة بين التوحيد الإسلامي . وبين العلم فيقول :

إن اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن أهم رابطة وأوثق عروة بين أعضاء العائلة الإسلامية الكبرى . لأنه إذا كان لا يتكلم بهذا اللسان في المعاملات اليومية الجارية سوى الآسيويين والافريقيين بين نهري الفرات والنيلجر ، فمما لا مشاحة فيه أن النطق به جار على السنة المسلمين كافة فيها يرتلونه من الآيات القرآنية في بلاد الصين وإفريقيا الجنوبية من جهة ، وبين جزائر الفلبين ومراكش من جهة أخرى . فضلاً عن أن الكتابة بها عامة بين سائر المسلمين الذين يقرؤون كتاب الله . وإذا وجد بين الأمم المسلمة أمّا لم تتخذه لساناً لها في معاملاتها اليومية . فمما لا ريب فيه أن لغاتهم هي قد تأثرت تأثراً محسوساً بذلك اللسان ، فإنها استخدمت الحروف العربية في تدوين لغاتها . ومن هذا الفريق الأتراك والفارسيون ، والماليزيون ، واستعارت كثيراً من الألفاظ والكلمات العربية حتى أنك لتجد هذه الكلمات شائعة ومتفشية ، في لغة الأورد والهندية ، ولغة السواحلية وغيرهم من ببر إفريقيا .

ثم إن أساس الدين الإسلامي هو التوحيد ، وعماده وحدة التعاليم ، وإن يكن ثمة اختلاف في مذاهبه وطريقه . ولكن المسلم فيها بين شمال آسيا ، وجنوب إفريقيا . وبين سواحل المحيط الهادئ ، وشطوط الأقيانوس الهندي ، وبين البحر الأبيض المتوسط والأقيانوس الاطلاني . وبالجملة حيثما يوجد مسلم يلقى أقواماً يفهمون مراميه ، ويبادرون إلى معونته .

* * *

وال المسلمين منذ نهض بهم الإسلام لم يروا أمامهم من السبل ما يجدر بهم أن يتسابقوا فيه شوطاً طويلاً سوى الانكباب على العلم ، والعكوف على العمل لما فيه خير الإنسانية . وقد ورثوا علوم اليونان المستفيدة ، ولم

يكتفوا بأن يحرصوا عليها. بل مدوا في أطرافها، ووسعوا في نطاقها، وأتوا فيها بالعجب العجاب. وقد استبقوا ثمار هذه الأعمال الجليلة، دانية القطوف بما شادوا من المؤسسات الضخمة، ودور الكتب والمدارس الأهلية بالطلاب، وقد بلغ من تعهدهم معاهد العلم بالرعاية أنهم أنشأوا في بغداد مدرسة للمترجمين والمعربين، وجامعة تضم بين جدرانها ستة آلاف طالب من جميع الطبقات. كانوا يتلقون العلم مجاناً، وأقاموا المراصد الشاغحة البناء لرصد كواكب السماء، وأينعت ثمار العلوم الرياضية وأبرزوا من حيز العدم العلوم الكيميية، وشادوا المستشفيات والملاجئ. وتنفسوا في أساليب الابنية، واستبطوا لها كل ما راق الناظر، ووافق الذوق والخاطر، وبرعوا في علم الحيل (الميكانيكا) براعة لم يسبقهم إليها سابق، ولم ينافسهم فيها منافس، وكفى ما صنعوا من ساعات ضبط الوقت، وما مهروا فيه من الدقة في نسيج المنسوجات الفاخرة. والطنافس الثمينة، برهاناً على حوزهم قصب السبق في ميادين العلوم والفنون.

٣ - أما الدكتور جورج سارطون. فقد عرض لنهج الإسلام في البحث العلمي عرضاً وافياً منصفاً. وسارطون عالم بلجيكي الأصل. ولد عام ١٨٨٤ وأحرز عام ١٩٠٦ درجة دكتور في العلوم، وأتيح له عام ١٩٣١ أن يزور بلاد الشرق العربي حيث تعمق في دراسة العربية والإسلام.

وفي كلية المقاصد الإسلامية في بيروت ألقى محاضرة تحدث فيها عن مقام العرب في العلوم الطبيعية، فكشف صفحة زاهرة من صفحات الحضارة الإسلامية.

وأبرز مؤلفاته، «مقدمة لتاريخ العلم» وفيه أنصف حضارة العرب والإسلام وقد أصدر منه ثلاثة أجزاء. وقد أثرنا أن نلخص مفهومه لتراث العلم ومشاركة المسلمين فيه:

يقول: ينتهي بعض عمالقة العصور الوسطى إلى الحضارة الغربية. فكان منهم الرياضيون والفلكيون. أمثال: الخوارزمي والفرغاني والباتاني. وكان فيهم الفلاسفة أمثال الفارابي، والغزالى. وابن رشد، وابن خلدون. كما كان فيهم الأطباء أمثال: الرازي وعلي بن عباس وأبو القاسم وابن سيناء. ويتفوق حصر الكل هذا بكثير. ولم يقنع العرب بالعلم الإغريقي والهندي. هم أعجبوا بالكنوز التي وقعت بين أيديهم واحترموها. إلا أنهم كانوا عصريين ومهتمين بالعلم. مثلما نحن اليوم، فرغبوا في المزيد، هم نقدوا أثيليدس وأرشميدس، وناقشو بطليموس وحاولوا تحسين الجداول الكلية، وحذف مواطن الخطأ المستترة في النظريات المقبولة، وساعدوا على تطور الجبر، وحساب المثلثات، وهيأوا الطريق أمام علماء الجبر في أوروبا في القرن السادس عشر، كما أتيحت لهم الفرصة لتحديد مفاهيم جديدة، ووضع مشكلات جديدة، وإضافة إضافات جديدة إلى التراث السابق.

وللحضارة العربية أهمية خاصة عند دارسي التراث الإنساني بصفة عامة، ولهؤلاء الذين يهتمون بإظهار تكامل الجهد الإنسانية مرة أخرى في وجه الأقطار الوطنية والعالمية، وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة غربية، والحضارة الصينية حضارة شرقية، وكانت الحضارة العربية غربية شرقية معاً بسبب امتدادها على طول الطريق من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى، وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة البحر المتوسط، والمحيط الاطلنطي، وكانت الحضارة الهندية حضارة المحيط الهندي، وكانت حضارة الشرق الأقصى حضارة المحيط الباسيفيكي بآفاق البحارة العرب كانوا يملأون كل محيطات العصور الوسطى، وعلى حين كانت الحضارتان اللاتينية واليونانية مسيحيتين. والحضارة العبرية يهودية، وحضارة شرق آسيا بوذية. فإن الحضارة العربية كانت إسلامية في محل

الأول، وإن لم تكن إسلامية تماماً، ممتدة بين مسيحية الغرب وبوذية الشرق، مجاورة لها في آن واحد منها.

وقد ظهر الدين المسيحي في الشرق الأدنى، فحمله القديس بولس إلى الغرب، حيث تطور هناك باعتباره ديناً غريباً. وعلى العكس من ذلك. فقد نشأت البوذية في الهند، ثم رحلت نحو الشرق، وكما أن تاريخ المسيحية ضروري لفهم تطور حضارتنا نحن. فإن تاريخ البوذية ضروري لفهم حضارة الشرق الأقصى، وكان الدين في الحالين هو الذي حمل العلم على جناحيه. أما الدعوة الإسلامية التي أحيت عقيدة التوحيد، فإنها نجحت أعظم نجاح، ونفذت أعمق نفاذ إلى مالك الغرب المسيحية، ومالك الشرق البوذية على السواء. وبينما كانت الحضارة الهندية مقفلة على نفسها. وأكثر منها في ذلك الحضارة الصينية. فقد اختلطت الحضارة العربية بالحضارة اللاتينية اختلاطاً كثير التشابك. فإذا كان بالإمكان أن نستبعد ما حدث في الهند والصين من تطورات، حين تكون بإزاء تفسير الحضارة الغربية. فإن استبعاد التطورات العربية ليس في استطاعتنا. أن قصة الحضارة العربية تيسر لنا فهم حضارتنا، لأنها ما هي إلا جزء داخلي منها.

وإذا كانت اللغات التي كتب بها العلم والفلسفة في العصر الوسيط لغات أربعاً هي : اليونانية والعربية، واللاتينية والعبرية، وكانت كلها ذات أهمية. فإن أهمها جيئاً كانت هي اللغة العربية. وقد انفصل الكتاب اللاتينيون عن المنابع الإغريقية حتى نصب علمهم أو كاد باللغة اليونانية. وقدروا كل وسائل الاتصال بالمنبع الرئيسي للعلم لولا العرب.

وكما أن المسلمين تحققوا في حاجتهم إلى العلم لكي يقيموا حضارتهم قد تحقق اللاتينيون كذلك من حاجتهم إلى العلم «العلم العربي» فكانت

ضرورة لفهم اللغة العربية. إن العلم قوة. وقد أدرك الحكماء المسلمون ذلك منذ المبدأ.

معجزة العلم العربي

٤ - وفي بحث آخر بجورج سارطون يكشف جواذب أخرى عن موقف الإسلام من العلم - يقول: أستطيع أن أؤكد أنه لم يتع لنبي من قبل ولا من بعد أن يتصر انتصاراً تاماً كانتصار الرسول محمد، وأن الاصرار على تفوق اللغة العربية خاصة، أو على حاجة الدين إليها هو الذي جعل لها انتشارها الحاضر، ثم حفظ لها التفوق قرونًا عدّة.

يجب أن نقف لحظة لأسرد عليكم حادثة واحدة من أخصب الحوادث الكبرى في تاريخ الإنسانية، وهي: «ظهور الإسلام» فقد ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله القرشي - رض - في مكة نحو (٥٧٠ م). ثم صرّح بالدعوة نحو عام (٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة، بعد أن عظمت خبرته بالناس، وامتلاً صدره بإيمان متقد وطيد، في ذلك الحين كانت «مكة» المركز الرئيسي للتجارة في شبه جزيرة العرب، وسلك أهل مكة مع محمد رض، كما سلك أكثر الأقوام مع أنبيائهم، ثم هاجر النبي إلى يثرب التي أصبحت تدعى منذ ذلك الحين، مدينة الرسول.

أما اسم هذا الدين الجديد فهو «الإسلام» ومعنى «الإسلام» أن يسلم الإنسان نفسه إلى الله. أما اسم أتباعه فكان مشتقاً من المصدر نفسه «المسلمون» وقد كان الإسلام كما أوحى به إلى رسول الله، وكما صدق به رسول الله «ديناً بسيطاً نقياً».

ولكي أدل بأمثلة على عظمة الرسول. أتحدث في المرتبة الأولى عن

«عقرية اللغة العربية» ففي المرتبة الأولى لم يكن الرسول ﷺ يعرف لغة سوى لغته. ثم إن الإسلام نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام باللغة العربية: لغة القرآن ولغة الوحي ولغة أهل الجنة. ومن ثم أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم، وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى، وهي إلى اليوم لم تزل لغة أمّة موزعة في جميع بقاع الأرض.

وإن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله ﷺ كانت من أجمل اللغات في الوجود. إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جدًا، ويمكن لتلك أن ترداد بلا نهاية. وذلك لأن الاشتقاق المتشابك، والأنيق، يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة.

ولغة القرآن على أنها لغة العرب، كانت بهذا التحديد «كاملة» وها نحن هنا أمام اتفاق عجيب. فإن الرسول ﷺ مع أنه أميّ كان يملك ناصية اللغة. إذ أتاه الله بياناً ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين. وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة.

أما في المقام الثاني فقد جعل الإسلام «الحج» أمراً سهلاً نسبياً، لأولئك الذين يعيشون نسبياً في شبه جزيرة العرب، ولكن لما انتشر المسلمون في بقعة إسلامية من الأرض. أصبح أمراً فيه شيء كبير من المشقة، ينطوي على مصاعب لا تصدق، وعلى أنواع من الحرمان من أسباب الرفاه. ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الناس. وهذا يبعث حقاً على الدهشة كانوا يقومون بالحج على الرغم من كل عائق. وفي أثناء الموسم الذي خص بهذا الواجب المقدس كانت مكة والمدينة تبدوان مكان انعقاد مؤتمر دولي. وهناك كان المهتمون بالقضايا المشابهة يجتمعون ويتبادلون الآراء.

وخلاله القول أن الرسول ﷺ جاء بدين توحيدى، ثم أنه شعر بتفوق اللغة العربية من غير أن يكون عارفاً بلغة غيرها. كذلك نجح في الدعوة إلى إيجاد مركز ثقافي للإسلام في الحج.

واسمحوا لي أن أؤكد أنه لم يتع لنبي قبل، ولا من بعد أن ينتصر انتصاراً تاماً كانتصار الرسول محمد، إن الإصرار على تفوق اللغة العربية - خاصة - أو على حاجة الدين إليها في انتشارها الحاضر، ثم حفظ لها هذا التفوق قروناً عدّة. ومن أجل ذلك لم يكن محمد نبي الإسلام فحسب، بل نبي اللغة العربية. ولقد قبلت القبائل العربية الدين الجديد بسرعة مدهشة. وهكذا وجدت هذه القبائل نفسها للمرة الأولى في تاريخ وجودها موحدة على أساس متين. على أساس الدين، ولقد بدأ المسلمون التاريخ بالسنة الإسلامية بعد سبع عشر سنة فقط من الهجرة حين احتاج الغربيون إلى ألف عام لوضع تقويمهم. ولا ريب أنه مما سهل وضع التقويم الإسلامي، ورود الحث عليه في القرآن، ولذلك كان جزءاً أساسياً من الإسلام، يقصد الآية ﴿إِنْ عَدّةَ الشَّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشْرَ شَهْرًا﴾.

ولقد بلغ المسلمون ما يجوز أن نسميه (معجزة العلم العربي) وقد أوردت كلمة «معجزة» لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه المسلمين والعرب من الثقافة والعلم، مما يخرج تقريراً عن نطاق التصديق. وليس لذلك شبه في تاريخ العلم كله، ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذي لا يكاد يصدق في العلم العربي لم يبدأ إلا منذ القرن الثاني للهجرة.

ويحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الإنتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما. وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين. إن هذا الحكم ينطوي على خطأ فادح. فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكاراً صحيحاً من أكثر من ذلك الظماء الذي تملك على القادة العرب حواسهم في سبيل المعرفة، على أننا لا نشك أن قسماً من

هذه المعرفة احتاج إليه العرب حاجة مباشرة للإدارة والحكم.

وأعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك علم الحساب الجديد، وعلم المثلثات الجديد. الواقع أن العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسننكريتية نسخاً، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة. ولكنهم جمعوا بين المصدررين، ثم لحقوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية. وإذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكاراً فليس في العلم إذن ابتكار على الإطلاق.

أما ذروة الفلسفة العربية والحكمة العربية، فبلغت مداها على يدي رجلين غربيين. ومن غريب الاتفاق أن يولد هذان الرجلان على مدى بضع سنوات، وفي مدينة واحدة هي «قرطبة» التي كانت أعظم المدن في غرب أوروبا بهاءً وعظمة، والتي كانت المنافسة الغربية لبغداد، وقد ثبت بالبراهين الواافية أن ما وصل إليه المسلمون من التقدم الفكري والعلمي كان في العصور الوسطى في غاية الأهمية، التي برهنت أن ثلاثة قرون على الأقل من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر الميلادي شهدت تفوق العلم عند العرب.

ويقارن جورج سارطون بين سماحة الإسلام وبين موقف غيره من الأديان من العلم فيقول: إن «ابن النفيس» قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى. قبل أن يعرف ذلك ميخائيل سرفيت الإسباني بمائتين وخمسين عاماً. وقد عرف الغرب لابن النفيس فضله في ذلك. بينما سرفيت الإسباني أحرق علناً في جنيف، يسوسيرا عام ١٥٥٣ م.

أما التشريح فقد كان في أوروبا من نوعاً البطة. فإذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة، وخصوصاً في المغرب. وما يقال عن الطب والتشريح عامة يقال عن أمراض العين خاصة. فإن

المسلمين كانوا لا يزالون حتى القرن الثالث عشر قادة العالم في أمراض العيون.

أما اللغة العربية فقد استمرت حتى القرن الرابع عشر تحتل مكاناً مرموقاً في عالم التأليف العلمي إذ كانت اللغة الثانية بعد اللغة اللاتينية من حيث الاتساع. أما من حيث التأليف فقد وجب أن تكون بلا ريب أرقى من اللاتينية يدلنا على ذلك كثرة ما نقل من كتب العلم والفلسفة في العصور الوسطى من العربية إلى اللغتين اللاتينية والعبرية، ومع أن دانى الليجيري شاعر إيطاليا لم يكن يعرف العربية. فإن كتابه: «الكوميديا الإلهية» متأثر بالإسلام إلى حد بعيد. وكذلك استمر أثر «ابن رشد» بارزاً في القرن الرابع عشر. والحق أنك لا تدرك عظمة العرب العلمية حتى تدرك الروح التي كافحوا بها في سبيل العلم. لقد عدت المعارك التي خاضها العرب ضد الفرنجة في الأندلس وحدها (٣٧٠٠ معركة) وأن أمة تكون أيديها مغلولة بثلاثة آلاف وسبعمائة معركة، ثم لا تنسى رسالة العلم المقدسة. بل تبلغ بالعلم والتفكير ذروة الرقي والتقدم لأمة عظيمة حقاً.

٥ - أما الدكتور فرانز روزنتال فإنه يعالج مناهج العلماء المسلمين في مجال العلم والتأليف والتحقيق العلمي على نحو يدل على قدر وافر من المراجعة والتحقيق، والدكتور روزنتال ألماني الأصل مولود عام ١٩١٤ في برلين. وقد عمل أستاذاً للغات السامية بالولايات المتحدة. وأستاذ اللغة العربية في جامعة بنسلفانيا. ثم شغل كرسى اللغات السامية في جامعة بيل وله أبحاث متعددة في الفكر العربي الإسلامي. أهمها كتابه عن مناهج المسلمين في كتابة التاريخ وكتابه مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي.

إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة

التجريبية ضمن دائرة - ملاحظتهم، واختبارهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيين حين يلاحظون ويحصون. وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة، أو أخذوه من الرواية والتقليد. ولذلك فإن أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيراً عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف.

ولذا يحتل التاريخ والجغرافية المقام الأول في أدبهم وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة، وبصفتهم مفكرين فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في حقل الرياضيات والفلك وللسبب ذاته نجح العرب في التشريع وفي وضع قواعد اللغة من صرف ونحو في شكل شامل محكم. إن الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع في أي بحث، أما البحث الذي لا يعلم صاحبه إلى أين سيؤدي به، ولا النتائج التي قد يسفر عنها. فيحرم في الإسلام، وحاجة هذا العلم أن يعرف الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وأعتقد أن العقيدة بالقضاء والقدر لم تؤثر التأثير السيء في النشاط الفكري الإسلامي طيلة قرون عشرة ازدهرت فيها الحياة الفكرية. ومن الجلي الظاهر أننا لن نستطيع فهم الشرق والعرب والمسلمين جمیعاً فهماً صحيحاً إذا ظل التحيز والتغصّب مسيطرین على عقولنا. ومن المزالق التي يندر أن يتحامها الباحثون الغربيون عن تقديرهم البحث العلمي عن المسلمين، أنهم يضعون مقاييس أشد صرامة من تلك التي تطبقها على ذاتنا نحن الغربيين.

ويضيي الدكتور روزنتال فيقول: لقد كان المؤرخون المسلمون كما كان علماء الدين أيضاً يعتمدون على الوثائق المدونة، ولم يكن للمعارف التي تعتمد عليها الذاكرة شأن في تأليفهم، ولم يستكشف المؤلفون المسلمين عن ذكر الجازات التي كانوا يدونون عليها الملاحظات، أو ينسخون فيها

المقتبسات عن الكتب التي كانوا يقرؤونها. وينبغي لطالب العلم المسلم أن يعني بتحصيل الكتب المحتاج إليها في العلوم النافعة ما أمكنه شراء أو إيجارة أو إعارة، لأنها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم، ونصيبه من الفهم، ويستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها من لا ضرر منه بها، وإذا استعار كتاباً فلا يبسطء به في غير حاجة، وإذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه ويصير غاصباً له، وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف نظماً ونثراً كثيراً. ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه، قلت: وهذا محله في غير القرآن. فإن كان مغلوطاً أو ملحوناً فليصلحه. إذ لم يكن خط المصلح مناسباً فليأمر من يكتب ذلك بخط حسن، ولا يكتب شيئاً في بياض فوائحه ولا خواقه، إلا إذا علم رضى صاحبه، ولا يعيره غيره، ولا يودعه لغير ضرورة، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه، وإذا نسخ من الكتاب أو طالعه، فلا يضعه مفروشاً على الأرض. بل يجعله مرتفعاً. وإذا وضع الكتب مصفوفة، فلتكن على شيء مرتفع غير الأرض، لثلا تندى فتبل، ويراعي الأدب في وضعها باعتبار علومها، فيوضع الأشرف أعلى الكل، فإذا استوت كتب في فن، فليراع شرف المصنف فيجعله أعلى، ول يجعل المصحف الكريم أعلى الكل، ثم كتب الحديث الصرف كالبخاري ومسلم، ثم تفسير القرآن ثم تفسير الأحاديث، ثم الفقه، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والتصريف ثم أسعار العرب ثم العروض، ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير، كيلا يكثر تساقطها. ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس، ولا مخددة، ولا مروحة، ولا مستندأ، ولا متكتأ، وإذا استعار كتاباً في ينبغي أن يتقدّه عند إرادة آخذة من ورقة تحتاج إليها. وإذا اشتري كتاباً نظر أوله وأخره، ووسطه وترتيب أبوابه، واعتبر صحته، وإذا نسخ شيئاً من كتب العلم الشرعية، في ينبغي أن يكون لها طهارة. مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب، واللحر والورق. ويبتدىء كل بكتابه «بسم

الله الرحمن الرحيم» وإن كان مصنفه تركها فليكتبها هو ثم ليكتب. قال الشيخ أو قال المصنف، ثم يشرع في كتابة ما صنفه، المصنف، وليختمن بقوله: آخر الجزء «الأول أو الثاني» ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن أكمل الكتاب فإن أكمله فليقل: «تم الكتاب الفلافي» ففي ذلك فوائد كثيرة. وكلما كتب اسم الله تعالى اتبعه بالتعظيم مثل تعالى أو سبحانه أو عز وجل، أو القدسي، أو تبارك. وكلما كتب اسم النبي ﷺ، كتب بعد الصلاة عليه والسلام، ولا يسام من تكرييرها. وإذا مر ذكر أحد الصحابة كتب رضي الله عنه. وإذا مر ذكر أحد من الأئمة والأعلام كتب «رحمه الله».

ويضيّي فيقول: ولا يهتم المشتغل بالبالغة في حسن الخط، وإنما يهتم بصحته وتصحیحه، ويتجنب التعليق جداً، وهو خلط الحروف التي ينبغي تفرقتها، ولا يكتب الكتابة الدقيقة، لأنه ربما لم يتتفع به وقت حاجة الانتفاع به من كبر وضعف. والكتابة أولى بالحبر، وينبغي ألا يكون القلم صلباً جداً، فيمنع سرعة الجري، وعلى الكاتب مقابلة كتابه بأصل صحيح موثوق به.

وينبغي أن يفصل بين كلامين أو حديثين بدائرة أو قلم غليظ، ولا يواصل الكتابة كلها على طريقة واحدة. ولا بأس بحواشی الكتاب من فوائد متعلقة به. وعليه ألا يكثر الحواشی كثرة يظلم معها الكتاب. ولا بأس بكتابه الأبواب والتراجم والفصول، ونحو ذلك باللون الأحمر، فإنه أظهر في البيان، وفي فواصل الكلام. وفي مجال المخطوطات كانت الدقة والأمانة في النسخ من الشروط الأساسية التي يجب توافرها. فقد يقصر الناشر المحترف أحياناً في واجبه من هذه الناحية، ولكن قل أن تجد ناسخاً كان يعتمد الأخطاء قصد تغيير نص أو تحريفه، وكان العالم المسلم حريراً على أوثق النسخ لاستنساخها.

وكانت أعظم النسخ قيمة تلك التي كتبها المصنف نفسه، وعليها

توقيعه، لم تأتِ في الدرجة الثانية، وتکاد تخل محل المخطوط الموقعة، المخطوطة التي نسخها أحد الطلاب المصنف كما سمعها منه إملاء في حلقة الدرس أو بإشراف المصنف نفسه.

وبصورة عامة نستطيع أن نقول: إن «العلماء المسلمين» كانوا حذرين حريصين على ألا يمسوا النسخة الخطية بإصلاح أو تعديل.

* * *

وقد عني علماء الحديث والفقه في الدرجة الأولى بالأمانة والدقة في ذكر المصادر المأخذوذ عنها، لأن «الأسانيد» هي جزء من مادة البحث، وكل علم آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين «الحديث والفقه» تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب المتبع في درسها ومعالجتها. مثال ذلك كتب «الترجم» التي نشأت بداعي علمي الحديث والفقه. فإن أصحابها كانوا يعنون عنابة خاصة بذكر المصادر التي يأخذون عنها.

أما أصحاب الكتب التاريخية، فإنهم كانوا شديدو الحرص على ذكر المصادر التي يأخذون عنها، وكان المؤلفون الذين يحرصون على ذكر مصادرهم يشعرون بأنهم قاموا بما عليهم، وفي أحيان كثيرة لم يعد العلماء يعتبرون العبادة «والله أعلم» تعبيراً مرضياً عند التحفظ أو عدم الجزم بالرأي.

أما النقل من الذاكرة، فلم يكن يعتبر عند العلماء المسلمين نقلًا دقيقاً، وكانوا يشيرون إليهم، وكانوا يقولون صراحة إذا نسي أحدهم المصدر الذي نقل عنه نصاً، كما فعل البيروني. وإذا أرادوا الإشارة إلى غاية اقتباسه مقتضباً من مصدر آخر قالوا «انتهى ملخصاً».

ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العلم من غير دينهم، ويحترمون الثقات منهم أيما احترام. وقد ألف العلماء المسلمون كتاباً

لدحض آراء معينة، وكلما رأى المؤلف موجباً للنقد، فإنه يثبت آراءه وملحوظاته، وكانت القوائم النقدية لكتب المراجع تحتوي على تقدير المؤلف لكتب من سبقه من العلماء، يذكرون هذه الكتب المراجع للتدليل على أن الموضوع الذي سبقت معالجته على أيدي القدماء ما ينبغي أن يعالج مرة أخرى على ضوء المعارف الجديدة.

* * *

وبصورة عامة نستطيع القول بأن العلماء المسلمين حرصوا الحرص كله على الحفاظ على الأفكار والأخبار التي كانوا يعتقدون أن لها قيمة فعلية.. وكثيراً ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك. عندما يجاوبون المشاكل التاريخية التي يبحثونها. ويعتقد «الطبرى» أن الظن والحدس لا يصلح أن يكون حكماً في إثبات الحقائق. وأن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا. ويوصي «رشيد الدين» عم «ابن أبي أصيبيعة» المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا في كل خبر نظراً عارياً عن محنة أو بغض، وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوا.

ومن الظاهر أن أقوال المفكرين المسلمين في ترجمة حياتهم، تذكر لنا الصراع الفكري الداخلي حول الشك الذي كان يخامرهم، في بعض العقائد الدينية في فترة من فترات حياتهم. وقد كانت الغاية المثلى للتربية عند المسلمين أن يقرب الإنسان من الكمال ما أمكنه الاقتراب في كل ناحية من نواحي العلم في سن مبكرة جداً. فإن ابن سينا يباهي بأنه كان يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال. ولكن أكثر العلماء المسلمين لا يشاطرون ابن سينا رأيه في أن تحصيل جميع العلوم، واتقان كل الفنون أمر يسير كما تصوره هو، فإن كثريين منهم قصوا الحياة كلها في التحصيل، ويقول القاضي الفاضل «البيساني» في رسالة بعث بها إلى عماد الدين

الأصفهاني «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا المكان لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن. ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل» فقد كان العلماء المسلمين يرون أن التغيير هو الذي يتحكم في العلاقة بين الأجيال المتالية، ويقول: (الأزدي) في كتابه (تاريخ المالك الإسلامية): إن الزمن لا يقف، بل إن صفتة الدائمة التغيير، ولم تكن فكرة التطور الفكري المستمر من جيل إلى آخر فكرة غريبة كليةً عن التفكير الإسلامي وكان (الرازي) يرى أن تاريخ الفلسفة بناء متواصل على أساس وضعتها الأجيال السابقة، وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجي بعين الاعتبار في مجال الطب والكيمياء لم تكن فكرة التطور والنمو التدريجي غريبة عند العلماء المسلمين. وقد اعتبروا بلوغ الكمال بمعنى أن المتأخر يتم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التي يتتصف بها التطور والنمو من جيل إلى جيل.

وقد كانت نشأة العلوم في نظر العلماء المسلمين نتيجة السعي والجهد العقلي عند الإنسان أو نتيجة وحي سماوي.

٦- أما الدكتورة سجريد هونكه فإنها قد قدمت للغرب دراسة خصبة ضخمة كشفت فيها بإنصاف عن دور المسلمين والعرب في مجال البحث العلمي - وهونكة باحثة ألمانية درست في جامعة برلين الفلسفة والتاريخ، ونفسيات الشعوب، وعن طريق أطروحة الدكتوراه التي تقدمت بها. وموضوعها (الأثر العربي في الشعر الغنائي الأوروبي) تفتح الطريق أمامها إلى معرفة قدر العرب والمسلمين، وفضلهم على الحضارة. ومن أجل استكمال البحث قامت (هونكه) برحالة إلى العالم الإسلامي . وتعرفت على ثقافة أهلها. وتقول إن الذي دفعها إنصاف الفكر الإسلامي أنها لم تجد في المكتبة الأوروبية كتاباً شاملاً يوضح فيه هذا القطاع من الفكر، ويزرع هذه الحقائق التاريخية . وتقول: لو أنك اطلعت يوماً على كتب التاريخ التي

يتداولها تلامذة المدارس في أوروبا لوجدت أن ذكر العرب كشعب وحضارة وثقافة يرد على أنها علاقة عداء وحروب فقط. أضف إلى ذلك تلك الترسيبات المتراكمة على عقول الأوروبيين. والناجحة عن صراع قديم. ومن خرافات حرقاء. أضف إلى ذلك أثر الدعاية السيئة ضد العرب، وأثر التصورات الغربية عن الشرق بلاليه وحربيه وأساطيره. والجهل الذي لدى الأوروبيين بحقيقة الماضي والحاضر، لأجل هذا كله آثرت أن أطلع أبناء أمتي على هذه الحقائق.

وتقول الدكتورة هونكه: يبدو أن الأولان قد حان بالنسبة للغرب. لكي يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب. هذا الشعب الذي أثر بكل عمق في مجرى الأحداث العالمية، والذي يدين له الغرب والإنسانية جماء بالشيء الكثير، ولعل التعصب هو الذي حل الغرب دائماً على تشويه منجزات العرب العظيمة. وطمس مساهمتهم الأساسية في الحضارة الأوروبية. وأن طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العربي منذ ظهور الإسلام إلى يومنا الحاضر لتبيّن كيف يمكن للعواطف والأهواء أن تملّى التاريخ بصورة معينة.. أي بصورة مشوهة. وأبعد ما تكون عن الصدق.. ولكن هذه النظرة التي كانت سائدة في العصر الوسيط لم يعد يمكن القبول بها في الوقت الراهن.

وحين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى وجهاتها وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون. ولشد ما يغبن حقهم من يكتفي بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم بعد ما حفظوه من الدمار. فذلك يعني في الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري، وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير. والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الغرب مدموغة بآثارهم.

إن قواميس اللغات الأوروبية تضع بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بال حاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها وأصطلاحاتها. وقد أخذ الغرب عن العرب فكرة البريد، كما نقلوا كثيراً من فنون الزراعة. وقد أخذ الغرب الأرقام الهندية في أواخر القرن الحادي عشر، وكانت معروفة عند الهنود منذ القرن السادس بعد المسيح، ويعود الفضل الأكبر في تعريف الغرب على الأرقام العربية إلى «الخوارزمي» الذي نقلت كتبه جائعاً إلى اللاتينية. وكانت مرجعاً هاماً للعلماء الغربيين، ولا يزال الغرب يعترف بفضل «الخوارزمي» هذا وما تزال الكلمة «لوغاريتما» مشتقة من اسمه.

وكان العرب يعرفون النجوم وحركاتها، ويفهمونها أعظم من الإغريق والرومان، ويسمونها بأسمائها، ويجمعونها في كوكبات تمثل مشاهد من حياتهم اليومية. ولقد شيدوا مراقب أشهرها مراقب المؤمنون في بغداد ودمشق والعزيز والحكيم في القاهرة. والمراقب الذي بناه السلطان عضد الدولة في حديقة قصره في بغداد.

ونفع العرب في العلوم الفلكية روحًا جديدة، وذلك بميلهم إلى الجمع والترجمة، وبه انتزعوا - من النسيان - ثروات القدماء العلمية، وأعادتهم على ذلك مواهبهم المرموقة للرياضيات، ومحاسهم حل المسائل بواسطة الحساب، ولعل الساعة التي أهدتها هارون الرشيد إلى شارلمان عام ٨٠٧ م تشكل برهاناً ساطعاً على المقدرة الفنية التي توصل إليها العرب في ذلك الحين، وكان العرب يسعون إلى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة علمية معينة، ولا يكتفون من أجل ذلك بمشاهدة واحدة أو عشر مشاهدات، بل يقومون بالمئات منها. ولقد حسروا دون انقطاع ما يمكنون من أدوات المشاهدة، وبذلوا عناء أعظم في استقصاء السماء بحيث توصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها. منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم

بصورة متزايدة الدقة، وتدقيق لواائح بطليموس - وتحسينها ووضع لواائح أخرى خاصة بهم. ظل الغرب يستخدمها حتى أيام كوبرنيكوس. وأشهرها لواائح الخوارزمي ، ولواائح ابن يونس والبتاني.

* * *

ولقد توصل فلكي بغداد في نهاية القرن العاشر إلى أقصى ما يمكن بلوغه دون عدسات أو مناظير. ولنذكر من هؤلاء الفلكيين «الفرغاني» الذي كان سباقاً إلى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات في الاتجاه المعاكس للحركة النهارية. «وثابت بن قرة» الذي حسب ارتفاع الشمس الظاهر وطول السنة الشمسية، و«البتاني» الذي حقق منجزات فلكية عديدة. و«البيروني» الذي صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس «وابن الهيثم» الذي اشتهر في ميدان البصريات أكثر منه في مجال الفلك. فقد كان «ابن الهيثم» أول من قرر أن الرؤية تم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه الأجسام المضيئة إلى العين التي تراها، بل بواسطة جسمها الشفاف، ووضع نظرية الظل. وكان سباقاً إلى استخدام الغرفة المظلمة في تجاربه. وفي مجال الجبر وقف الإغريق والمهند عند حد محدود. ولكن العرب جمعوا بين حسن الكميات الحسابية، وحسن الكميات الهندسية. بحيث لم يخلقا فروعاً علمية جديدة فحسب. بل طوروا بعض الفروع الأخرى إلى درجة من النضج لم يبلغها الإغريق أو الهندوين فقط، وهذا كان العرب لا الإغريق أساتذة الرياضيات في عصر النهضة، ويكتفي أن نذكر هنا مؤلفات الجبر لأبي كامل والبيروني وابن سينا وعمر الخيام الذي رفع الجبر إلى قمة لم يتمكن أحد من الارتفاع إليها حتى ديكارت الفرنسي في القرن السابع عشر.

وكان العرب أول من استخدم الفاصلة للإشارة إلى الكسور، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستيني وقسموا الدائرة إلى ١٦٠ درجة.

ووضعوا الحساب التفاصيلي الذي أسمى ابن سينا.

وأخيراً فإن نظريات «الفارابي» - أكبر المعلمين بعد أرسطو - في الفنون الموسيقية. قد قادته قابل قوسين أو أدنى من اللوغاريتم، وإن نظريته عن المقادير المتناهية في الصغر مع نظرية ابن سينا. قد أهمت العلماء الغربيين الذين تعمقوا بعد عدة قرون في هذه الميادين واستثمروها.

لقد كان النور الذي أحدهته الشرارات المنطلقة من العبرية العربية فائقاً للغاية. ولعل الطب هو أهم محاولات التفوق العربي.

في تلك الأيام كان منح البركة والتعاويذ والصلوات هي أساليب العلاج الرئيسية التي يطبقها أطباء الغرب في سبيل تخلص البشر من أدوائهم الجسدية.

ولقد كان العرب يمارسون التلقيح ضد الجدري حتى قبل الإسلام، ويكفي أن يذكر المرء «الرازي» الذي كان أحد الأطباء في كل الأزمان «وابن سينا» الطبيب الأكبر، و«ابن النفيس» الذي اكتشف دوران الدم الصغير قبل وليم هارفي الإنكليزي بأربعين عام. و«عبد اللطيف البغدادي» الذي قال: مهما كان احترامنا لجالينوس عميقاً، فإننا نفضل أن نصدق عيوننا الخاصة.

* * *

وكان العرب مهرة في الجراحة، وخاصة في أمراض العين، كما كانوا أول من طبق طريقة التخدير العام في العمليات الجراحية، كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة الكمامات الحارة. بل لقد كانوا يطبقون طريقة المعالجة بعضادات الحيوية، وقد ترك العرب مؤلفات طبية تفوق مؤلفاتهم في أي ميدان علمي آخر. وقد خدمت هذه المؤلفات في تعليم أجيال عديدة من الأطباء الغربيين.

والعرب هم الذين نقلوا إلى العالم الغربي طراز الحكم المركزي السائد حالياً فيسائر الدول الأوروبية كما علموه أنظمة الأموال والجمارك وسائر الشؤون المالية.

ولقد نادى النبي العربي بالطموح إلى المعرفة في كل مكان وزمان. لأن المعرفة تنير سبيل الإيمان، وهكذا لم ينصرف القرن الإسلامي الأول المكرس للفتوح، حتى ازدهر العلم العربي مثل محيط من الزهور. بينما كانت الكنيسة في الغرب تخنق العلم الوثني. كان العرب يستولون على الغنية الفكرية الضرورية من أجل ثقافتهم من الإغريق، ومن فارس، ومن لدن الصينيين والهنود على السواء.

* * *

وكانت عملية إنقاذ هائلة حيث حفظ العرب مؤلفات القدماء من الدمار. لكنهم لم يخفوها تحت المكيال. بل أحيوها حين ترجموها إلى لغة القرآن الحية. وهذا ما يشكل الجذر الثاني للازدهار الفكري. لأن كل مسلم يجب أن يكون في مستطاعه قراءة القرآن وتلاوته باللغة العربية. وبالتالي أن يتعلم هذه اللغة بحيث أصبحت «روائع العلم» المترجمة في متناول سائر مواطني الامبراطورية العربية، وحين كان الغربيون يتباھون بجهلهم القراءة، والكتابة. كان الشعب العربي بأسره يؤم المدارس، ولا عجب بعد ذلك إذا ازدهرت الثقافة، وإذا عمد العرب بعدهما استقوا من اليابس المتوافرة من قبل إلى تفجير ينابيعهم الخاصة، وحين أخذت العرب هذه الأشياء جميعاً عنهم، فإنهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب، وإنما فإن الإغريق هم وسطاء أيضاً. والهنود كذلك، فكل عصر يستولي على الميراث العلمي السابق له، وبقدر ما يسقط هذا الميراث في يد خلائقه، فإنها تعدل في جوهره، وتحوله وفق ناموسها الخاص.

إن لكل عبقرية طابعها الخاص وطريقتها الخاصة. وأن مآثر العرب

الخالدة تقوم في تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية الموروثة عن الإغريق، وأن العرب هم مبدعو «التجربة» بالمعنى الدقيق للكلمة، وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمي. فقد كانوا أول من جعل من الواقع المعزولة عن متها نقطة الانطلاق لكل بحث. وعندئذ أصبح الارقاء الصبور من الخاص إلى العام. وأصبحت الطريقة الاستقرائية هي الطريقة العلمية الأساسية.

وأن الفكر الغربي لم يستيقظ من ذلك الخدر الذي أثقل عليه طوال قرون. بل طوال ألف عام. ويفرد جناحه لكي يطير، إلا بعدما امتلك المعجزات العربية في الميادين التقنية والإدارية، ثم تبني هذه المعجزات على المستوى الحضاري.

٧ - أما العلّامة مسمر الذي كان رئيساً للبعثة المصرية في فرنسا عام ١٨٨٠ - فإنه قد تعرض للرد على الاتهامات التي وجهها (أرنست رينان) للتفكير الإسلامي في محاضرة ألقاها في جامعة السربون، وردد فيها الكثير مما شملته كتب المشرين وخصوص الإسلام، فيتصدى له عالم من بنى جنسه باحث مقتدر. له مكانته العلمية. ففند ما أورده، ودحض ما ذهب إليه من شبّهات.

يقول العلّامة مسمر: الحق أن الإسلام جاء ليوقف بين فريق كبير من بنى آدم كان بعضهم يقاتل بعضًا بسبب تخالفهم في الأديان ولينشر العلم والحكم في أمم كانت قبل مجئه تتخبط في دياجير الجهل.

ولما كان كلامنا موجهاً لن يعرف التاريخ فلنقتصر على الإشارة إلى حالة العلم في القرن السادس من الميلاد ولنقل أن الجahلية كانت متسلطة عليه، وأن الأفراد القليلين من الأذكياء في تلك الأثناء كانوا منهنكين في المجادلات الدينية، وإذا كانت قد نشأت للنصوص الغامضة في الدين

المسيحي تفسيرات لا يقبلها العقل، وكان المتخوّشون من قبائل الجوشين والهونبيين وغيرهم يجهزون على بقية ما كان أسسه الرومانيون من مدنية، فلا جرم كان العالم في هذا الوقت، أي وقت ظهور محمد في حاجة ماسة لمن ينchezه من الولايات التي كان فيها. ومن شط في هذا الوطن. وزعم أن محمداً كان مدعياً للنبوة. فقد زاد هذه المسألة تعقيداً بدون أن يحلها.

وقال: إن التوحيد الذي هو أساس الدين الإسلامي كان السبب الأول في نجاح دعوة محمد. وقد أصبه بعض المؤلفين في قوله: «إن اعلان محمد هذا التوحيد في عصر ملت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به. فقد استثار العقول. حتى أنه ما كاد يفوّه بالدعوة إلى توحيد الله، حتى استثار العالم بدعوته».

وفضل الدين الإسلامي يظهر مما جاء على لسان محمد ﷺ، وهو يسقط الأصنام التي كانت حول الكعبة. وهو: «قل جاء الحق وذهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً». قوله: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. كلكم من آدم وآدم من تراب».

فهل يجوز لنا أن نجهل «حقيقة الإسلام» في عهتنا هذا. عهد المناوشات الحرة، والأراء المستقلة. فما علم نابليون بمعنى الإسلام حتى قال: النصرانية وعيد، الإسلام وعد. وما ذكرى الكاتب (مراشي) الذي كان موجوداً منذ قرنين حين مدح الإسلام بقوله: إن الدين محمدي حفظ ما كان معقولاً من الدين المسيحي وزاد عليه كل ما هو موافق لقانون الطبيعة. إلا أن هذا الكاتب لم يكتبه أن يعلل انتشار العلوم الذي صحب الإسلام منذ ظهوره، مع أن هذه العلل ماثلة في القرآن والحديث.

إذا قيل أن ما في القرآن وال الحديث يوجد عند المسلمين قولًا لا فعلًا. قلنا إنك لو سألت أي سائح عن هذا الأمر لأجابك بأنه ما من

مسجد قديم إلا وفيه مكتب للتعليم. وكان من عوائدهم أن يختلفوا أول دخول الطفل إلى المكتب فيلولا الولان، ومن يتأمل آي القرآن يجد أن أساس الإسلام «التوحيد» وقطبية التأخي، وتحسين شؤون العالم تدريجياً بواسطة العلم. فهذه هي الأسباب الحقيقة لظهور الإسلام.

ويعرض الباحث للعلاقة الأكيدة بين الإسلام والعلم فيقول: إن صلة الإسلام بالعلم صلة جذرية. وإذا وقع العداء بين العلم وبين بعض الأديان. فإن الأمر على العكس من ذلك بالنسبة للإسلام: الذي تقوم بينه وبين العلم رابطة أكيدة. وعرض الباحث لما يتردد من اتهام الإسلام بالضعف نتيجة لفترة التخلف التي مرت بال المسلمين. وأعلن أن هذا القول باطل من أساسه. وقال: إن الدين الذي تحفي به هذه الملايين العديدة من النفوس، وتدافع عنه بأموالها وأرواحها لا يمكن أن يكون على شفا الزوال. بل الحق أنه في طريق القوة والعلاة.

الباب السادس

الاسلام والحضارة

كثيرون من كتاب الغرب أؤلئك الذين تناولوا موقف الإسلام من الحضارة من ناحية. وأثر الإسلام في بناء الحضارة الإسلامية. وقد اخترنا كاتبين علميين في هذا الصدد هما: الدكتور لوبيجي رينالدي والأستاذ رينيه ميليه.

أما الدكتور لوبيجي رينالدي فإنه يتحدث عن أثر مدينة الإسلام في الغرب فيقول:

بينما كان نجم المدينة الرومانية التي قامت على أطلال المدنيات القديمة قد أخذ في الأفول، وكانت أوروبا قد عادت وسقطت في ظلمات الجهل، كان المسلمون والعرب قد أخذوا يشرفون برؤوسهم من سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولم يلبثوا أن قاموا منهم تلك البعثة الخطيرة التي أيقظت الأمم الأوروبية النائمة. وأن ظهور المسلمين والعرب في الغرب لحدث جليل يستحق أن يذكر هنا بالشكر والامتنان. لأن مدينة هذا الشعب العظيم كان لها تأثير، وأي تأثير في حياة الشعوب اللادينية.

* * *

كان العالم اليوناني وأخوه الروماني قد سقطا في كل مكان عندما أخرج «محمد العظيم» خلفاءه من أبناء الصحراء ونشرهم في أنحاء العالم، حتى شيدوا ذلك الملك الكبير الباهر الذي كان يمتد في بلاد الهند إلى بلاد

الأندلس. ومن بحر الخرز حتى المحيط الأطلسي ، وقد كانت سياستهم مع الشعوب المختلفة هي سياسة التقرب والتحبب. وذلك باحترام دياناتهم، وإعطائهم كامل الحرية في إقامة شعائرهم وقوانينهم وأنظمتهم ، وتركهم لهم حريةهم الشخصية .

* * *

وقد أشار المؤرخ الإيطالي «amarri» في مؤلفه «المسلمون في صقلية» إلى أن الرعايا كانوا يعيشون في راحة وسرور تحت حكم أمراء المسلمين، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجو رمانيين والفرغة، وبفضلهم تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ، وما تزال حتى الآن براءات ملوك النورمان مكتوبة باللغات العربية واليونانية. كذلك كانت «اللغة العربية» إحدى اللغات التي تضرب على نقوذهم. وعليها شارت الإسلام والمسيحية ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط. بل كان يوضع عليها أيضاً نص قاعدة العقيدة الإسلامية بالعربية فقط وهي : «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» كذلك استمر الأمراء الذين خلفوا النورمانين في حكم البلاد على ضرب نقوذهم باللغة العربية .

ولقد كان ملكهم : فردرick الثاني كثير الاهتمام باللغة العربية وأدابها حتى ضرب فيها بسهم وافر، ولا يزال بين بعض أهل الجزيرة حتى الآن بعض عادات تشبه عادات اليمن. وقد ترك المسلمون عدداً عظيماً من كلماتهم في اللغتين الصقلية والإيطالية ، ولا تزال عدة أماكن بصقلية تحمل أسماءها العربية كالقلاء مثلاً، قلعة النساء، وقلاء أخرى. وكذلك كلمة «مرسى» مثل «مرسى علي» وغيرها.

* * *

ولا تنسى أن العرب والمسلمين تركوا بعض الآثار في إيطاليا خارج

صقلية حيث وضعوا رحالم فترة من الزمن، ولكن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في لغتنا الإيطالية التي تفوق الحصر. قد دخلت في اللغة لا بطريق العرب، ولكن بطريق المدنية التي كثيراً ما تؤلف وتواхи بين مظاهر الحياة المختلفة.

إن وجود هذه اللغات في اللغة الإيطالية دليل على ما كان للمدنية الإسلامية العربية من نفوذ عظيم في العالم الغربي، وبما كان من العلاقات التجارية بين بلادنا وبين المسلمين في الشرق. وفي إفريقيا الشرقية وصقلية.

ويستطرد لوبيجي رينالدي فيقول: وقد احتاج العلم الغربي حوالي عام ١٠٠٠ ميلادية إلى نفوذ إسلامي جديد، يتمثل ذلك اللقاء في «التهذيب العلمي والمدنية العربية» فإن شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الأرض بعد سقوط المدينتين الرومانية واليونانية، واندثار معالمها. وبذلك قام المسلمون والعرب في ظلمات ببرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية. وقد أشار (بريس دافن) في كتابه عن (الفن العربي): أنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي. وذلك أولاً لكثره فطاحل الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم. وثانياً لما أحدهته فنون هذا الشعب وعلومه من التقدم العجيب في العالم مدة قرون عديدة.

* * *

وفي أيام سقوطنا لجأ العلم إلى ظل الأديرة. وكانت مدنية العرب في القرنين التاسع والعشر في الأندلس وصقلية قد بلغت أوج الكمال. فلما شعرنا بال الحاجة إلى دفع هذا الجهل الذي كان ينقل كاهلنا تقدمنا إلى المسلمين ومددنا إليهم لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدة في العالم.

وقرب العلم من إسبانيا وصقلية المسلمين إلى أوروبا. وقد تلقى جلبرت «سلفستر الثاني» دروسه كلها في مدارس العرب بالأندلس. ولما رجع إلى أوروبا. وأراد نشر ما أخذه من العلوم بين مواطنه. ظهر لهم ما نشره بينهم غريباً جداً. وبينما كان الغرب في صراع مع العالم الإسلامي، والحملات الصليبية تذهب بعدها وعدتها لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي العرب في الشرق. كان الغرب ينقل عن المسلمين العلم والعرفان.

ولقد كانت عادة العرب إذا دخلوا مدينة أن يؤسسوا فيها مسجداً ومدرسة. وما كان أعظم جامعاتهم في بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وأشبيلية وصقلية. وكانت مدرسة القاهرة الجامعة المسماة «بيت زويلة» من أعظم جامعات العلم ومكانها الآن مسجد المؤيد. كذلك كان في الأندلس وحدها سبعون مكتبة، وكان في مكتبة قرطبة وحدها زهاء الستمائة ألف مجلد أيام الخليفة الحكم الثاني. الذي كان يرسل رجاله في جميع بلاد الشرق للبحث والتنقيب. وكان يجزل العطاء لهم كلما ظفروا بكتاب نافع. وقد أسس الحكم في قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة، كان يتعلم فيها أولاد الفقراء مجاناً. حتى لقد كان كل واحد في الأندلس - كما روى دوزي - يعرف القراءة والكتابة. بينما كان الجميع في أوروبا حتى النبلاء لا يفكرون في التعليم، وكانت ترى في شخص الأمير أو الخليفة المسلم صورة الكاتب والشاعر والعالم. وكانت قصورهم محظ رجال العلماء وال فلاسفة، ولا يجد الإنسان صعوبة في التعرف إلى العلاقة بين الشعر العربي الأندلسي، والشعر البروفاني لأن الشعر الإسباني والبروفاني يتتسبان إلى الشعر العربي. ولقد أثبت المؤرخ «ماري» أن صقلية مدينة للعرب. وكذلك «إيطاليا» مدينة لصقلية باتكاري الشعر الوطني. وأن ذلك كان سبباً في نهوض الشعر الإيطالي، ولم يساعد العرب فقط على أنها من الشعر الصقلي والإيطالي، بل إنهم أمدوا قصصنا بشكلها ومادتها. فإنك لتجد

كتابهم «كليلة ودمنة» قد ترجم إلى كثير من اللغات. وهو أصل كتاب الطراز الأول لمحادثات الحيوان مؤلفه فيرنسكو. وكذلك كتاب الفلسفة الأدبية مؤلفه لدوني.

* * *

وقد أخذ من الأدب العربي أمثال: بوكاشيو وبيوجيو وباندينو وبانلو ولافونتين. ووضعوه في كتبهم، ومن مراجعة رسالة للشاعر بترارك إلى صديقه الطبيب (جيوفاني دابادفا) يمكننا أن نفهم إلى أي حد وصل النفوذ العربي في إيطاليا. فإن الشاعر الإيطالي سجل الفخر الذي يرفع به العلماء والحكماء الإيطاليين إلى نجوم السماء علماء العرب وشعرائهم وفلاسفتهم ورياضتهم وخطبائهم.

وقد أعد (دانتي الليجيري) مكاناً مشرفاً لفيلسوف العرب (ابن رشد) إذ وضعه في قصيده السامية (الكوميديا الإلهية) إلى جانب كبار العلماء والحكماء. ولا ننسى أن ابن رشد هذا هو مبتدع مذهب (الفكر الحر) وهو الذي كان يعيش الفلسفة، وهيئ بالعلم، ويدين بها. وكان يعلمها لتلاميذه بشغف. وكان بين الإثني عشر فيلسوفاً العظام الذين ظهروا في العالم (كارتادو) بين الإثني عشر فيلسوفاً العظام الذين ظهروا في العالم وكتاب (القانون) لابن سينا. كان يدرس في جميع الجامعات سواء في الشرق أو الغرب. وخصوصاً إيطاليا فإنه كان يدرس في جامعة سالرنو، أعظم مدرسة للطب في أوروبا.

* * *

وكان للمسلمين العرب الفضل في علم النبات، وعلم الكيمياء، وعلم الفلك، والهندسة وطريقة الحساب العربية. وفي اللغات العلمية في جميع مدننا الإيطالية لا تزال في معاجم اللغة كلمات كثيرة على أصلها

العربي كالطير والزعفران والزنجبيل والسكر والبن والقهوة. يرد إلينا من أمريكا ولكننا نفضل عليه البن العربي.

وكلمة «موسلين» اسم نسيج عربي كان يصنع في مدينة الموصل العربية. وكذلك كلمة (ركامون) ومعناها التطريز هي كلمة عربية، ولم يقتصروا على إجادة الفنون الجميلة. بل عنوا بها عنابة كبيرة، ونبغوا فيها بوعاً عظيماً. وقد أتقنوا الموسيقى والنقوش والخفر وهندسة المباني.

وقد يحزنني والله ويحزن غيري من ينصفون أن يكون بينما نحن الغربيين من ينكرون فضل العرب والمسلمين على الحضارة. وهذا بلا شك افتاء ونكران للجميل، وما زال العربي يحتفظ بصفاته العجيبة. وذكائه النادر، ونحن لم نصل إلى ما وصلنا إليه من المعرفة إلا بفضلهم. ولا شك أنهم سيهضرون لاستثمار هذه المدينة التي كانوا لها يوماً موحدين، وعلى إعلاء شأنها عاملين.

ويعرض الأستاذ رينيه ميليه موقف الإسلام من الحضارة فيقول: لقد أتى المسلمون بعقائد سهلة ملائمة للفطرة، وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار. لقد جاءوا بمبدأ جديد، مبدأ يتفرغ عن الدين نفسه وهو مبدأ «التأمل والبحث».

في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالإسلام. هو درس هذا الدين مستقلاً عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره. فلو عرفنا كيف كانت حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش. إن الذي ساعد على الانتشار أن الإسلام دين جاء بخلاف ما كان موجوداً. فقد اعتصم عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد في الأمور، ولم يقر وساطة بين الله والشعب، ولم يسن نظام الصوامع. وقضى على عادة التنسك والخروج من الدنيا. فقد قرر الاشتغال بالدنيا والأخرة معاً.

وبالجملة فقد أتى الإسلام بنظام ملائم لحاجات الناس، وهذا سر غلبه. ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حاليه الطبيعية، ولم يأت بشيء من العقائد الفلسفية. بل قال بكل وضوح: لا إله إلا الله. وبذلك خلا الإسلام من الاعتقاد الذي قسم الدول.

* * *

أذكر أنني أيام كنت أدرس تاريخ الإسلام كان الأساتذة يقررون سرعة انتشاره دون إيقافنا على أسبابه، وغاية ما كانوا يذكرون هو أن طبيعة العرب طبيعة حربية، وأن خيولهم جيدة تقاد تسقيط ظلالها. مع أن الحقيقة أن الفتوحات العربية كانت على البغال.

إلا أن العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد، ثم إنهم فوق ذلك أتوا مشبعين بروح التسامح وذلك سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وإفريقيا ونصف إسبانيا.

ويضيف الكاتب فيقول: أتى المسلمون بعقيدة سهلة ملائمة للفطرة. وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار، فارتفقت العلوم والفنون والأداب باجتهادهم الذي عجز عنه معاصرهم، وأتى ليُبين أنَّه كانت على أبصار أهل القرون الوسطى غشاوة من تنفسك منعthem من إدراك الأشياء على حقائقها.

وقد جاء المسلمون في الوقت نفسه مبدأ في البحث جديد. مبدأ منشق عن الدين نفسه هو مبدأ «التأمل والبحث» مالوا إلى الاستغفال بعلوم الطبيعة، وبرعوا فيها، وهم الذين وضعوا أساس الكيمياء وقد وجدهم كبار الأطباء ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبع فيهم الشعراء المجيدين الذين قالوا شعراً قريباً من العقول يغذيها ويعتها. وأنه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة. ولا أطيل القول في الشيء المشهور من

أن «الحضارة العربية الإسلامية» بلغت شأواً عظيماً في بغداد وقرطبة. وأول ما يتadar إلى ذهن الباحث التزير هو أن «الإسلام» أعطى أشهى ثمرة لما سرت إليه المدنية القدية خالصة من الشوائب.

انظروا إلى قرطبة تلك المدينة التي سقطت الآن في حضيض الهوان. انظروا إليها في عهد الدولة الإسلامية عامرة آهلة، يبلغ عدد سكانها زهاء خمسمائه ألف نسمة. وعدد مساجدها ثلاثة آلاف، وعدد منازلها مائة وثلاثة عشر ألفاً. عدا (ثلاثمائة من الحمامات العامة). وإذا أردتم أن تتفقوا على أخلاق أمراء المسلمين في تلك الدولة، ودرجة آدابهم ورقيمهم فإليكم صورة ما جاء في وصية عبد الرحمن الأول أحد خلفاء قرطبة. وقد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التي تتعلق بتاريخ الإسلام في إسبانيا.

تقول الوصية: ﴿إِنَّ الْمُلْكَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزَعُهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فعليك بتقوى الله وطاعته. واعمل خيراً للناس كافة، خصوصاً أولئك الذين وكل الله شؤونهم إليك، واعدل في حكمك وقضائك بين الفقراء والأغنياء، ولا تول أمور الناس إلا من عرفت فيهم الحكمة والخبرة. عامل جندك بالشدة واللين معاً، ليكونوا حماة للدولة، لا عوناً للظلمة من الحكام. وواجب عليك أن تظل الزراع بحمایتك. وأن تودهم بعونتك لأنهم مورد حياتنا. واحرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك﴾.

ويضي الكاتب مستعرضاً أثر الحضارة الإسلامية فيقول: لبشت هذه المدنية التي أنت بالمدهشات، والتي لا يزال الناس في حيرة من أمرها. زاهية زاهرة ثمائة سنة. فإذا أضفنا إلى ذلك المائتين أو الثلاثمائة التي اتسعت فيها دولة الأتراك، وبلغت شأواً من العظمة الحربية. علمنا أن الدولة الإسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريباً. وهي مدة تناهز عمر الدولتين: «اليونانية والرومانية».

لقد ألزم مسلمو الأندلس التسامح مع غيرهم، وموذتهم حتى في الزمن الذي اضمحلت فيه الدولة. فإذا أتيح لأحدكم أن يتجلو في أنحاء إسبانيا الآن، يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك، وعلى بقايا ما شيدوه ليستخلص من دراسة تلك الآثار أن الأندلس كانت بلاد غنىً ورفاهية في هذا العهد. كانت بلاد «غرناطة» زهرة أوروبا. وكان الذين ي يريدون أن يستشفوا نسيم الحرية المدنية يذهبون إلى تلك البلاد فارين من بلاد أوروبا التي كان يحكمها الأمراء. وهي مهد القسوة والظلم. حيث كان النساء يعاقبون من يأسرونهم في الحروب بإلقاءهن إلى الكلاب المفترسة لتمزق أجسادهن.

هذا وإن كانت هناك حقيقة يجب أن نبيئها فهي أنه في هذه الفترة التي تعارف فيها المسلمون والمسيحيون منذ انتهاء الحروب الصليبية إلى فتح القسطنطينية كان «الإسلام» هو العنصر المؤثر، والعالم الأوروبي هو العنصر المتأثر، ومن جهة العلوم والآداب فإن أوروبا لبشت ثلاثة عقود تقريباً تقتبسها من الإسلام. وكانت المدنية الغربية خلال ذلك تجني ثمارها اليائعة.

ولقد كان استيلاء الغرب على غرناطة عملاً وحشياً ببريرياً لم أعهد في التاريخ أسوأ منه. فقد كانت غرناطة عروس إسبانيا وزيتها. ولقد زرت غرناطة ورأيت آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البدعة النقوش، التي جرى هدمها. هذه الحمامات التي كان المسلمين يتنظرون بها. لقد كانت أوروبا في علاقتها مع المسلمين والإسلام فظة غليظة القلب. إن آثار التعصب لتبدو واضحة في إعطاء العهود للعرب بعد سقوط قرطبة. ثم اخلاف الغرب لهذه العهود في محاولة للقضاء على الحضارة الإسلامية.

لقد عجز الأوروبيون أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنية مدناتهم، وأن يقفوا على كنه عقول ليست من عقول إخوانهم في الجنس. وقد أدركوا

اليوم ضلال خطتهم الأولى، وأسرعوا يلتمسون خطة جديدة غايتها الوصول إلى المعرفة الصادقة.

ويمني هنا أننا لا نستطيع أن نحكم على تلك الأمة بالسقوط، لأن الأمة التي أمكنها أن تنهض في وقت ما، يمكنها أن تعيد نهضتها في المستقبل. لقد أفل نجم المدينة الإسلامية بعدها أمرت وأينعت فترة طويلة من الزمن ويكفي هذه المدينة نفحة من نسميم الحياة الجديدة ل تسترجع جمالها وعظمتها وجدها.

إن تلك الصبغة العامة للينة التي اتصف بها مبادئ الإسلام هي التي جعلته يقبل بضرورب المدينة ولا ينافيها بل يقابلها بصدر رحب.

* * *

بقيت مسألة جديرة بأن نبحث عنها وهي ما تنموا فيه من نهضة المسلمين. إن علينا أن لا ننظر بعين الكره والسخط إلى يقظة المسلمين. فإن من شأن هذه الحياة الجديدة التي بدأت تسري روحها في العالم الإسلامي أن تقرب من العالمين والمدنيتين.

* * *

ويقول البعض: إذا كان المسلمون اليوم يسيرون في طريق المدينة الغربية سيراً حثيثاً، فلماذا نتصور أن تكون هناك مدنستان (مدينة غربية، وأخرى إسلامية) ولماذا لا تفني المدينة الإسلامية في جسم المدينة الغربية، ما دام العلم هو أساس المدينة. على أني لا أقبل هذا الرأي. ذلك لأن المدينة الإسلامية مدينة جامعة بين المادة والروح، والعلم والدين، ولا تفصل أحدهما عن الآخر، والعلم له دائرة محدودة، ولا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس. وعلى ذلك فلا أرى حداً لبقاء «الإسلام» ذلك الدين الذي أتى بأحسن العقائد ملائمة للفطرة، والذي

سعد حظه بأن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية
الأديم لم تتلبد بالغيوم فظل نوره سارياً في تلك البلاد الواسعة الأطراف،
ولم تستطع الأحداث أن تطفئ ذلك النور الرباني الساطع.

إن مبدأ التفريق بين عالم المادة، وما وراء المادة، قد تبيّنه المسلمين،
 يجعلهم يقبلون على علومنا ولا يرون فيها ما ينافق دينهم المشهور
بالتسامح.

الباب السادس

الدعوة إلى الإسلام وانتشاره

ما تزال قصة انتشار الإسلام بهذه الصورة القوية البارعة موضع التساؤل والعجب من كتاب الغرب الذين يدهشون لقدرة الإسلام على النفاذ إلى القلوب على هذا النحو السريع. وقد تناول هذا الموضوع كثير من الكتاب الغربيين، وحاول بعضهم - ان جهلاً أو تعصباً - أن يدلي بآراء غير سليمة منطقياً أو تاريخياً.

غير أن هناك بعض المنصفين ما لبوا أن حرروا هذه القصة وأعلنوا منها آراء منصفة قريبة إلى الحقيقة وفي مقدمة هؤلاء أدوارد مونيه وتوماس أزوالد.

١ - أما سير توماس أرنولد فهو من خيرة كتاب الغرب المنصفين، وهو إيرلندي الأصل، تعلم في جامعة كمبرidge وعين مدرساً في كلية عليكرة الإسلامية في الهند عام ١٨٨٨ م. وهناك اتصل بال المسلمين، ودرس شريعتهم وعقيدتهم. واستطاع أن ينصف الحقائق الإسلامية في مؤلفه الضخم الذي أطلق عليه الدعوة إلى الإسلام فضلاً عن مؤلفاته الأخرى.

- ١ - تعلیم الإسلام .
- ٢ - المعتلة .
- ٣ - الخلافة .

ومن تلاميذه العلامة شibli النعmani المفكر الإسلامي الكبير الذي أنشأ دار العلوم في لكتو. والفيلسوف الإسلامي الذايع الصيت: محمد إقبال المتوفى عام ١٩٣٠.

وقد عرض توماس أرنولد إلى انتشار الإسلام، وكيف كان لقوة الإسلام الذاتية أثراًها البالغ - لا الفتح ولا قيام الدولة الإسلامية وحدها - في نشر الإسلام. وهذا ملخص رأيه:

أعلن تعاليم الإسلام لأول مرة على أهل بلاد العرب «نبي» انضوت تحت لوائه قبائلها المترفة. فأصبحت شعباً واحداً، ثم دبت فيهم الروح القومية الجديدة، فملأتهم حياة ونشاطاً. ثم سرت في جيوشهم حماسة، فملأتهم بأساً وقوة. وبهذه العدة خرج المسلمون إلى القارات الثلاث فاستولوا أول الأمر على سوريا وفلسطين، ومصر وشمال أفريقيا، وببلاد فارس، ثم انطلقوا بعد هذا غرباً إلى إسبانيا وشرقاً إلى ما وراء أندونيسيا. ولم تمض على وفاة النبي مائة عام، حتى وجد المسلمون أنفسهم سادة امبراطورية أوسع رقعة من امبراطورية روما في أوج قوتها.

* * *

ورغم أن هذه الامبراطورية قد انقسمت من بعد فإن فتوح الإسلام الروحية قد بقيت لا تحول دونها الحوائل. حدث هذا برغم إغارة «المغول» على بغداد ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م وقيام حكام الأندلس، وعلى رأسهم فردينالد صاحب ليون وقشتاله بإخراج المسلمين من قرطبة عام ١٢٣٦ م. كان ذلك يجري والمسلمون يضعون أقدامهم في أرض جديدة يدخلون أهلها في دين الله، تلك هي جزيرة سومطرة، ثم كانوا على وشك أن يبدأوا تقدمهم الموفق في جزائر أرخبيل بالملايو. وهكذا قام الإسلام في هذه الفترة بطائفة من أعظم غزواته الروحية وفي التاريخ الإسلامي طرفان حرجان.

الأول: حين دهمهم الترك السلاجقة في القرن الحادى عشر.

الثانى: حين جاء المغول في القرن الثالث عشر.

ورغم أن الغزوة أخضعوا المسلمين لسلطانهم السياسي في كلتا الحالتين، فإنهم خضعوا لسلطان «الإسلام» ورضوه ديناً لأنفسهم. وفي مرة أخرى نجد المبشرين المسلمين في غير اعتماد على سلطان الحكم وصولة الجيش يحملون الإسلام في أواسط إفريقيا والصين وجزائر الهند الشرقية، واليوم يمتد نطاق الإسلام من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين. ومن البوسنة إلى غيانة الجديدة، ولو أنها تركنا البلاد التي يسكنها عدد كبير من المسلمين كالصين وروسيا. وجاوزنا حدودهما إلى البلاد التي لم تؤمن بالإسلام لوجودنا بها بعض الجماعات الإسلامية القليلة العدد المحدودة الكيان، تشهد على قيام الإسلام، مثل ذلك لتوانيا. وقد حمل تجار الهند الإسلام معهم إلى جزر الهند الغربية، وغيانا البريطانية والمولندية. وأخيراً نجد للإسلام أنصاراً في إنجلترا وشمال أمريكا واستراليا واليابان.

* * *

يرجع انتشار «الإسلام» في تلك المساحات الواسعة على ظهر الأرض إلى أسباب كثيرة اجتماعية وسياسية ودينية - ولكن أهم العوامل التي أحدثت هذه النتيجة المثيرة للعجب في جهود المسلمين المتتابعة، هؤلاء الذين اقتدوا بالنبي ﷺ نفسه، فجاهدوا في سبيل إدخال الناس في دين الله، ولم يكن واجب «الدعوة إلى الإسلام» فكرة متأخرة. بل كان أمراً محتملاً على المؤمنين منذ فجر الدعوة. ومهما تكن العوامل التي نجمت، فهناك حاجة المسلمين إلى طبقة خاصة، تختص بنشر العقيدة. فقد وجدوا ما يعوضهم عنها في ذلك الشعور الناشيء عن المسؤولية التي أقيمت على كواهل المؤمنين من الأفراد، ولما لم يكن هناك واسطة بين المسلمين، وربهم

كانت مسؤولية خلاص الشخص ملقة على كاهله وحده. وكان المسلم أكثر تشدداً واهتمامًا في أداء واجباته الدينية، وأشد تحملًا للمتعاب في سبيل الله، تعلم مبادئ دينه ومشاعره، ومهمها رد الباحثون القول بأن كل مسلم داعية إلى دينه، ويبقى هذا القول صادقاً. ومن كل أصحاب الصناعات والحرف، نجد أولئك الذين قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم.

وما يثير اهتمامنا أن نشر الإسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم. بل لقد قامت النساء المسلمات أيضاً بنصيبيهن، فيرجع الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة.

وحتى المسلم الأسير يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة أسرته أو إخوانه إلى دينه. فقد تسرب الإسلام إلى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم سبقه أسيراً، وجيء به إلى بلاد «بتشنج» بين الدانوب الأعلى، ونهر الدون، وقد بسط بين يديه كثير منهم تعاليم الإسلام فأعتنقه في إخلاص، ولم يمض وقت طويل حتى دخل شعب البتشنج دين التوحيد. وفي عهد الامبراطورة جهانجيز ١٦٢٨ م كان هناك عالم سني من علماء التوحيد يدعى «أحمد مجده» تميز بقدرته على مجادلة بعض الفرق غير المسلمة في عقائدهم فاستطاعوا إدخاله السجن بتهمة تافهه. وفي خلال الستين اللتين قضاهما في الحبس. أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأواثان، ولما رفضت الحكومة البريطانية بنفي أحد مولوية الهند إلى جزائر «اندمان» نفياً مؤبداً، هذا المولوي أدخل في الإسلام قبل وفاته كثيراً من حكم عليهم. وفي إفريقيا الوسطى حدث مثل هذا.

وإذا كان المسلمين قد بلغوا مثل هذه الحماسة في نشر الدعوة إلى حد أنهم كانوا على استعداد للتحدث عنها في مناسبة وغير مناسبة. فقد كان في مقدمة هذه الأسباب: «بساطة العقيدة الإسلامية» لا إله إلا الله محمد رسول الله وكل ما يطلب من الذي يدخل في الإسلام قبول هاتين الشهادتين.

إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة. وما كانت خالية من المخارج والخيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد. فإذا قبل الذي يدخل الإسلام هذه العقيدة البسيطة، وتعلمتها لم يكن بد عنده من أن يتعلم فرائض الإسلام الخمس.

١ - الشهادتان.

٢ - الصلاة.

٣ - الزكاة.

٤ - صوم رمضان.

٥ - الحج إلى مكة.

وفي الحج نجد عملاً ساماً. نرى زنجي ساحل إفريقيا الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق. ويتعرف التركي على أخيه المسلم من أهل جزائر الملايو. في عطف وحنان، ويجتمعون حول الكعبة. هذه التي يولون وجوههم شطراً في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في أوطنهم النائية. ولم تستطع أي محاولة يقوم بها عباقرة أي دين، أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، وإنواعهم التي ارتبطت بروابط الدين.

إلى جانب نظام الحج نجد «نظام إيتاء الزكاة» فرضاً آخر يذكر المسلم دائمًا بأن المؤمنين إخوة، وهي نظرة دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش في المجتمع الإسلامي.

كذلك نجد أن أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس أو الاحتفاظ المسلمين منهم. وقد أحسن مونتسكيو في قوله:

«إن المرء لأشد ارتباطاً بالدين الحافل بكثير من الشعائر منه بأي دين آخر أقل احتفالاً». إن دين المسلم يتمثل دائماً في مخيلته. وفي الصلوات اليومية. وقد استطاع «رينان» أن يقول: «ما دخلت مسجداً قط دون أن تهزمي عاطفة حادة» ومن يسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته وسجداته الكثيرة. وعبادته للإله الذي لا يراه في سكينة واستغراق. قد تؤثر في الإفريقي الوثني، الذي وهب إدراكاً قوياً للقوى الخفية. وإن معارف الإسلام التي عرفها الناس على هذا النحو قد تجذب أحياناً فرداً يدخل في الإسلام. كان من الممكن أن ينصرف عنه.

ولا حاجة إلى القول بأن صيام «شهر رمضان» جزء من دليل ثابت. يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في لذاتهم الشخصية.

ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية دون أن يقلوا بها كواهلهم أو يجعلهم مغمورين في الحياة. فتجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تغييراً ظاهراً في حياة المؤمن. ومن ثم نجد أنها بعد أن أصبحت متشابكة في نظام حياته اليومي تجعل المسلم الفرد إماماً ومعلمًا لعقيدته أكثر مما هو الحال في معظم الديانات الأخرى.

ولما كانت عقيدة مصوغة في مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة، كانت لا تتطلب الذكاء إلا قليلاً، وأن تحدد هذه العبادات وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يختلج في نفسه أمر الشك فيها هو مكلف بادائه، فإذا أدى هذه الواجبات اطمأن وجداً إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد في هذه الوحيدة بين النظامين العقلي والطقطسي في هذا الدين سر السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس.

ومن الأمور التي ساعدت على نجاح الدعوة إلى الإسلام هي: أن هذه الدعوة كانت إلى حد كبير في أيدي التجار خاصة في إفريقيا وبلاط أخرى غير متمدنة، حيث نرى التاجر غير موضع الشك والريبة، على حين نرى خبرته بالناس والأخلاق، وحنكته التجارية تيلانه قبولاً حسناً. فالموطن هناك لا يشك في نواياه، ولا يظن أنه قد احتمل هذه الأسفار الطوال ليدعوه إلى دين، ولما كانت نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى. فقد كان ذلك أقوى منفذًا إلى القلوب. وقد ظل أصحاب الأديان الأخرى ينعمون بدرجة من التسامح في ظل الحكم الإسلامي لم نكن نجد له مثيلاً في أوروبا حتى في عصور حديثة جدًا.

وأن التحويل عن طريق الإكراه إلى الإسلام محظوظاً طبقاً لتعاليم القرآن «لا إكراه في الدين» قوله: «فَإِنَّمَا تُكْرَهُ النَّاسُ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» وأن مجرد وجود كثير من الفرق والجماعات الدينية المختلفة التي ظلت قروناً في ظل الحكم الإسلامي لدليل ثابت على ذلك التسامح، كما يدل على أن الاضطهادات التي كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدي الطغاة والمعصيين، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة، وإقليمية أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب.

وأن ما حدث من التعسف في بعض المواقف لم يكن بمعرفة الشرع الإسلامي في شيء. وقد ورد عديد من الآيات القرآنية التي تنهى عن الإكراه في الدين، وتوصي باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة. وقد أعلن كبير وزراء صلاح الدين «القاضي الفاضل» عبد الرحمن بن علي: «أن رجلاً قد أرغم على الدخول في الإسلام لا يصح شرعاً أن يعد مسلماً».

ولم يفعل أي حاكم من حكام الإسلام الأقوباء ما فعله الإسبان

بالعرب من استئصال شأفة الرعاعيا من أصحاب الأديان الأخرى. أو نفيهم من بلادهم، وكان هؤلاء الرعاعيا في الأغلب عزلًا عن أي سلاح، وأن الذين لم يفعلوا ذلك. إنما تحرروا بتسامح الإسلام، وأقوال الشريعة السمحاء.

ولا شك أن من العوامل التي نشرت الإسلام حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون. وقد أتى ذلك في عديد من الرحالة الغرباء. وأثر في الأوروبيون أيام الحروب الصليبية.

* * *

وهناك في الوقت الحاضر عاملان رئيسيان يعملان على تنشيط الدعوة إلى العالم الإسلامي. أولهما: انتعاش الحياة الدينية التي يبدأ تاريخها من حركة الاصلاح الوهابية، وحركة الوحدة الإسلامية التي تسعى إلىربط جميع شعوب العالم برباط من المودة والتعاطف. وأن ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير سيكون أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية.

٢ - ويحاول العلامة الفرنسي ادورن مونتيه الذي كان عام ١٩٢٩ مدرساً بمدرسة الألسن الشرقية في جامعة جنيف أن يصور في بحث مفصل انتشار الإسلام. وكان هذا الباحث قد قام بترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية ترجمة جيدة وصفها الأمير شكيب أرسلان بأنها كانت أقرب ما تكون إلى النص الأصلي كما صنف كتاباً باسم الإسلام أخرجه عام ١٩٣٣ - وقد ألقى مجموعة محاضرات عن الإسلام في الكوليج دي فرنس تلخص رأيه ومفهومه. يقول:

انتشر الإسلام بسرعة منذ أول ظهوره وقليل من الأديان التي شابتة، وانبثت دعوته إلى اليوم مثله. وأن النجاح الذي صادفه منذ انتشاره. قد كان داعياً إلى التقول في أسبابه خطأ. إذا عجب الناس كيف انتشرت سلطة محمد. وإصلاحه خارج جزيرة العرب. وقا، القائلون ولا

يزالون يقولون: إن السبب الداعي إلى انتشار الدين الإسلامي كان منبعثاً من أسباب زمانية كانت من طبيعة محمد والخلفاء الأول. وقيل كل شيء دعت إليها القسوة وقوة السيف. ولكن الواقع كذب هذا الظن. إذ لم ينظر الناظرون إلى الأسباب المختلفة التي نشأت منها سرعة انتشار الدعوة إلى هذا الدين.

كان محمد رسولًا قام باعتقاد خالص، وأقى على الوثنية، وتوخى أن ينقذ مواطنه من حالة في الأخلاق والمدنية منحطة كل الانحطاط. فلا مجال للشك في إخلاصه أو عقيدته الدينية التي كانت متشبعة بها نفسه وفكرة، ثم نشأت جرثومة مزج «الإسلام» للسلطتين الدينية والمدنية اللتين تحلى أمرهما في الحضارة الإسلامية. وكانت سبب عظمتها ومجدها.

إن هذا الدين ما برح يتشر إلى اليوم، ويرجع ذلك إلى أسباب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ففي إفريقيا مثلًا أناس من المرابطين هم دعاة تبشير حقيقين، وهناك طرق دينية أخذت على نفسها نشر الدين الإسلامي. على أن الإسلام يتشر بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم، لأن كل مسلم هو داعية دين بحد ذاته، والمسلم على الجملة مؤمن مخلص في إيمانه.

ومن خصائص الإسلام أن يستولى على المعتقد به، فيجعله مأخوذًا به قلباً وقولاً. والإيمان بالجماعة هو خلق أساسي فيمن يدينون بالإسلام. والمسلم يبشر بدینه، وهو متوفّر على تجارتة، أو عامل في صناعته. والإسلام يتشر من نفسه بواسطة القوافل التي ترحل إلى البلاد الوثنية، ودعاة الإسلام فيما عرّفوا من الغيرة يعمدون إلى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب التي يبيّنون دعوتهم بين أهلها. وللوسائل الاجتماعية والاقتصادية دخل كبير في ذلك.

وهم في كل حالاتهم يظهرون «الإسلام» بأنه دين الفطرة. والمدرسة هي إحدى العوامل الفعالة في نشر الدين. فالمسلمون على الجملة يتزلفون ويتوطّنون في بقعة جديدة يصرفون أول عنايتهم في إنشاء مسجد ويجعلون بجانبه مدرسة. وترى المرأة عند قبائل البحيرة النازلة بين النيل الأزرق، وأعلى البلاد الممتدة من شمال سطح بلاد الحبشة أرقى بعقلها من الرجل. ولذلك يختار دعاة الإسلام تعليمهن. والاعتماد عليهن في بث الدعوة على نحو ما يفعل السنوسية.

الباب السابع

لماذا أسلمت

لم يزل الإسلام قادرًا على أن يوسع آفاق دعوته، ويحقق اعتناق عدد كبير من الناس له، غير أن الظاهرة الجديدة بالتأمل والدرس، إنما هي ظاهرة إسلام المتأذين والمثقفين من العلماء أو المؤرخين، وخاصة من أبناء العالم الغربي. هذه الظاهرة جديرة بأن تدرس من خلال كتابات عدد كبير من هؤلاء المسلمين. وكنا قد قدمنا في كتابنا «الإسلام في غزوة جديدة لل الفكر الإنساني» طائفة منهم. وهذه طائفة أخرى تضم:

* الدكتور عبد الكريم جرمانوس: أستاذ الأدب العربي بجامعة بوخارست.

* المخرج السينمائي وكس انجرام.

* الكاتب جيم جورج ولسن.

* الكاتب المؤرخ: ليوبولد فايس «محمد أسد».

* الكاتبة البريطانية: إيفيلين كوبولد.

١ - ولنبدأ بالدكتور جرمانوس الذي يصور تجربته مع الإسلام فيقول: خالجني منذ طفولتي حنين إلى أرض الإسلام، وإن أنا الرجل الأوروبي الذي لم يجد في بيته إلا عبادة الذهب والقوة والسيطرة الميكانيكية: تأثرت أعمق التأثير ببساطة الإسلام، وعظمته سيطرته على نفوس معتنقيه. بينما الأوروبيون يتوجهون بملكات الكشف والاختراع إلى وسائل التدمير

والفتك، يبقى الشرق الإسلامي مستولياً على لبى روحانيته، ومثله العالية، يحافظ الإسلام على مبادئه الداعية إلى الإخاء والحرية والمساواة بين أبناء الجنس البشري. وربما التمس الأوروبيون أسباب سعادتهم في الاستزادة من نعيم البدن. بينما يقدم الإسلام لمعتنقيه سعادة نفسية، إذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون في عرض زائل. وما زال الإسلام هو العقيدة التجددية أبداً. قالوا إن الدين الإسلامي هو علامة على سقوط المسلمين، ولكنني أستطيع أن أجهر بمنتهي الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس، وثقافة الإسلام بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم، أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة.

«فالقرآن» كتاب ملؤه الصراحة والوضوح لمن صدق رغبته في تفهمه. وأن «محمدًا» رسول الله الأعظم مصلح ثوري عرفه التاريخ.

إن حجر الزاوية في بناء هذا الدين أن الناس أمام الله سواء. ومن آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته، ويطلب الإسلام من المسلمين أن ينظرون أحدهم إلى الآخر كأخ له. وفي التاريخ الإسلامي الدليل الصحيح على أن المسلمين الصادقين لم يضطهدوا أحداً من جيرانهم الذين لم يؤمنوا بآياتهم.

إن أوروبا لم تعرف الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية، بينما دعا الإسلام إليه وطبقه المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام.

ولقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية من ابتكار القرن السابع عشر في أوروبا. بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأ.

ولم يعترف حكام أوروبا «بالاشتراكية» إلا في السنوات الحديثة، بينما سبّقهم الإسلام إلى المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب «يهود و المسيحيين

وغيرهم» فأقام بذلك النظام الاشتراكي الصحيح، واستمتع في ظله كافة الناس بكل الحقوق الإنسانية.

ولقد حرم الإسلام الخمور، وسبق أوروبا في مجال القانون بأكثر من ألف عام. وحضر على النظافة، وعلى اتباع آداب المعاملة الرفيعة، ولقنهم الفروسيّة.

وإني أجرؤ على القول بأن الإسلام منح المرأة حقوقاً قانونية أكثر مما كان لها في ظل المسيحية. ولقد اعترف بإباحة تعدد الزوجات في حدود معقوله. وبالأمر الواقع، أي ما تقضيه غريزة الرجل، فحال بهذا دون التعدد غير المشروع الذي يسود الجماعة الأوروبية هذه الأيام.

وال المسلم إذا كان صادق العقيدة، فهو إنسان متدين روحي مستنير ذو حاسة إنسانية من طراز سام مما يثير التقدير والحب له.

إنني ما زلت متعلقاً بالإسلام، على الرغم من أنني «أوروبي» حالٍ من كل دم دخيل. وذلك لاعتقادي: أن مستقبل العالم، وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده لن يكون إلا في المزاوجة، السعيدة بين الحضارة بدرسها وعلمتها، والروح الإسلامية التي تنطوي عليها عقائد الإسلام. ولاني لأمل أن يكون الإسلام قادرًا مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة. وهي «وحدة الجماعة الإنسانية».

٢ - ويقول: وكس انجرام: لماذا أسلمت، لماذا اخترت الإسلام ديننا؟

ذلك لأنني أعتقد أن الإسلام هو الدين الذي يدخل السلام والسكينة إلى النفس، ويلهم الإنسان العزاء وراحة البال، والسلو في هذه الحياة. وقد تسرب روح الإسلام إلى نفسي فشعرت بنعمة الإيمان بالقضاء الإلهي، وعدم المبالغة بالمؤثرات المادية من لذة وألم.

إنني لم أقدم على هذا التعبير لمجرد خاطر وقتي طرأ على فكري، بل إنني قد درست الدين الإسلامي مدة ستين، ولم أتخذه ديناً إلا بعد بحث قلبي عميق، وتحليلي النفسي طويل، لم أغير ديني إلا لكي أجده الراحة من ضجيج الحياة الجنونية، ولأنعم بالسکينة في ظلال المهدوء والتأمل. بعيداً عن متاعب الهموم والمحن التي يسببها التكالب على الكسب، والتهالك على المال. الذي أصبح معبود البشر، والهمم، ولما أسلمت استطعت أن أخلص نفسي من براثن الإغراء، وخدع الحياة الباطلة، والشراب والمخدرات، وجنون الجازبازان، نعم لما أسلمت أنقذت ذهني وعقلي وحياتي من الهدم والتدمير.

لقد كان على رجل عربي طويل مهيب. أن يقف على مأدنة ويؤذن للصلة لتصويره في شريط سينمائي لي. وبينما كان ذلك والمصورون يصورون المنظر، وأنا أقف جانباً، أرقب ذلك كله. كان صوته في ارتفاعه وانفاسه ينفذ إلى أعماق قلبي.

ولما انتهينا من التصوير دعوت هذا العربي إلى مكتبي، وأخذت أسأله عن دقائق الديانة الإسلامية، واعتنقت الإسلام بعد ذلك، وأخذت أصلّي معه، وشعرت بقناعة النفس تغمرني رويداً. وبدأت أشعر بالسعادة. وأذكر كل الرغائب التي كانت تأسر نفسي.

وكان بعد ذلك أن جاء اليوم الذي اعتتقدت فيه أنني لا أستطيع أن أوقف بين عملي السينمائي وديانتي الإسلامية، ولا بد أن يذهب أحدهما، وكان ثمة عراك نفسي شديد. هل أضحي بعملي ومستقبلني من أجل ديني. أم ديني من أجل مستقبلي. هكذا بقيت أسرهر الليلة بعد الليلة، راقداً في فراشي وعيني مفتوحتان حتى الصباح أفكراً - في حل هذه المشكلة حتى جاءني الرد من الله.

يجب أن أترك عمل السينمائي، وأبعد عن أخاديع «هوليود» ومغرياتها. ولقد كان ذلك أليّاً على حقاً. ولكنني قطعت في الأمر نهائياً عندما كنت أقوم بعمل شريط سينمائي في «ينس» فقد قمت ذات ليلة أصلّى. وبقيت أصلّى مدة طويلة. فزادت قوتي، واشتدت عزيمتي. وفي اليوم التالي قلبت ظهري لعملي، وأعطيت جسمي ونفسي وحياتي لحمد.

وأنا اليوم، ابن الإسلام، وإن سعيد أكثر مما كنت في أي يوم من أيام حياتي. وربما أذهب إلى إفريقيا. وإذا ذهبت فسأخلع مدنبي الغريبة مع ثيابي الغربية، وكمؤمن يدين بدين الشرق. أصبح شرقياً. وإذا ذهبت مرة فلن أرجع فحياتي كرستها لله. وعملي قد مات ونسيته.

٣ - ويصور الكابتن ولسن تجربته إزاء الإسلام فيقول:

ولدت في اسكتلندا من أب وأم إنجلزيين، ولم أر أبي الذي قتل في حرب البوير ١٩٠٠. وما زلت طفلاً. ومرت الأيام ونحن نعيش عيشاً رغيداً حتى قامت الحرب العظمى ١٩١٤ طوّعت في الجيش وركبت البحر إلى فرنسا. وانضمت إلى فرقة الفرسان، وتقاذفتني ميادين القتال، كأنها ديار الجحيم، وقضيت في الميدان الغربي فترة رأيت فيها من أهوال الحرب وفظائعها. ما لا طاقة لي بوصفه أواخر ١٩١٨، بعد أن أمضيت أربع سنوات في هذا الجحيم، فلما عدت وجدت أمي قد ماتت. وإخوتي الثلاثة قد قتلوا في الحرب، فهمت على وجهي ورحت أطوف الدنيا، فجست خلال الهند والصين واليابان. ولم أجد ما أقطع به الوقت سوى دراسة اللغات والديانات. وفي سوريا تعلمت العربية. ودرست مختلف الأديان. فلم أجد مثل ما وجدت من العزاء والطمأنينة في مطالعة القرآن الكريم، طالعته مراراً وتعنت في معانيه، وأشربت روحي بروحه، فرأيت فيه سحراً حلاً، ولم يكن يوم يمر بي دون أن أتلور آياته. وفي الثلاثينيات قدمت إلى الاسكندرية، وهمت على وجهي حتى وصلت إلى دمنهور، وعلى شاطئ

ترعة هناك رقدت. وفي أثناء نومي رأيت دخاناً يتصاعد من الأرض حتى يتکاشف في السماء وينعد. وقد أضاء نور عجيب. ثم تكونت منه كلمة «الإسلام» وصحوت وكلمة الإسلام لا تزال ملء ناظري وحواسي، وما كنت أفك من قبل في اعتناق الإسلام، وشعرت للمرة الأولى براحة وطمأنينة. وفي الطريق ما مررت بقروي إلا أقراني السلام ودعاني للطعام، وبدل جهده في إكرامي، وأضافني في منزله. أنا غربي وهم شرقيون. أختلف عنهم طباعاً وديناً، فما لهم يسارعون إلى إكرامي، أنا الذي رأيت كيف يربّ الناس من بعضهم. ولو أنك مررت على فلاح في أوروبا وقرأته السلام فهل يكرمك مثل هذا الإكرام. وإذا وجدت رجلاً يأكل ووقفت إلى جانبه فهل هو مشارلك طعامه عن طيب خاطر. وهل إذا قرعت باباً يفتح لك مصراعيه فتنزل ضيفاً كريماً. تواردت هذه الخواطر على نفسي، وحاوت الإجابة عنها. وعند ذاك علمت أن «الإسلام» هو الذي جعل تلك النفوس سامية كريمة.

ونِمْتُ مرة أخرى ورأيت عمود الدخان ينقلب حروفاً من ضوء وتتجمع فتكون كلمة «الإسلام» وأفقت وقد أيقنت أن الله اختار لي (الإسلام) ديناً. وشعرت براحة عجيبة. في أن اعتنق هذا الدين، دين الشفقة والحنو والإيثار.

٤ - أما العلامة ليوبولد فابس: «محمد أسد» فإنه يصل إلى أعماق النفس الإنسانية في تخبرته الفريدة.

«لماذا اعتنقت الإسلام؟».

يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جواباً شافياً، لم يكن الذي جذبني تعليماً خاصاً من التعاليم. بل ذلك البناء المجموع العجيب والمترافق. بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الأخلاقية إلى منهج الحياة العملية، ولا أستطيع أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها. فإن

الإسلام على ما يبدو لي (بناءً تام) الصنعة. وكل أجزائه قد صيغت ليتم بعضها بعضاً.

ومنذ ذلك الحين سعيت إلى أن أتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه: لقد درست القرآن الكريم، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام. لقد درست لغة الإسلام وتاريخ الإسلام، وقضيت أكثر من خمس سنوات في الحجază ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة إليه. وقد تمكنت من دراسات وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الإسلامي. هذه الدراسات والمقارنات قد خلقت في العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهاته الروحية، والاجتماعية لا يزال أعظم قوة نهضة باهتمم عرفها البشر.

إن الإسلام فلك ثقافي مستقل، ونظام اجتماعي واضح الحدود.

والإنسان في الإسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا، وليس ثمة حاجة إلى تقشف يفتح به الإنسان باباً سرياً إلى التطهر الروحي ، فالإسلام ليس عقيدة «صوفية» ولا هو «فلسفة» ولكنه نهج في الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله خلقه. ذلك هو السبب على ما أظن لهذا الشكل في الصلاة الإسلامية حيث يتزوج الخشوع ببعض الحركات الجسمانية.

* * *

إن بعض النقاد يجعلون هذا النوع من الصلاة برهاناً على أن زعمهم بأن الإسلام دين رسوم ومظاهر، أولئك الذين تعودوا أن يفصلوا تماماً بين الأمور الروحية والأمور الجسدية، كما يفعل اللبناني حينما يخوض الحليب ليستخرج زبدته، ولا يفهمون بسهولة أن الحليب الصريح في الإسلام يجمع هذين العنصرين فيعيشان معاً متجانسين، ويعبران عن نفسيهما أوضح التعبير.

وكذلك الأمر في فريضة الطواف، أي السعي حول الكعبة في مكة. ما معنى هذا؟ هكذا يقولون. إن الجواب واضح تماماً. إذ نحن حول شيء ما، فإننا نقرر أن هذا الشيء إنما هو النقطة المركزية لعملنا.

إن الكعبة التي يولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز إلى وحدانية الله، وأن الطواف حولها يرمز إلى جهود الحياة الإنسانية.

إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال الخشوع الخالص، كالصلوات والصيام مثلاً. ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً. إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل، إنه يعلمنا أن عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها. هي معنى هذه الحياة.

ذلك أن «الإسلام» على أنه تعليم لا يكتفي أن يأخذ على عاتقه تحديد الصلوات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وحالقه فقط، ولكنه يعرض أيضاً بمثل هذا التأكيد للصلات الدنيوية بين الفرد وبينه الاجتماعية. وعبادة الله في أوسع معانيها تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية. هذا الإدراك وحده يربينا إمكان بلوغ الإنسان (الكمال) في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا. ولا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات الجسدية. بل يؤكد أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية.

ومن أجل هذا نرى الإسلام وهو ليس بدين لقهر النفس يترك للإنسان مجالاً واسعاً في حياته الشخصية والاجتماعية. كيما تستطيع الصفات المختلفة من العواطف والميلول النفسيانية أن تجد سبيلاً إلى التطور الإيجابي المتفق مع استعدادها الذاتي.

إن أساس (حرية) الاختيار في الإسلام تقوم على أساس أن الأصل في طبيعة الإنسان هو الخير، وذلك على خلاف ما تقول بعض الأديان. الإنسان خلق خاطئاً، أو دنساً، نرى الإسلام يقر أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تماماً.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثم إن الإنسان يستطيع أن يحتفظ بكماله الشخصي أو يستعيده، فيما لو فقده. إذا أدرك بوعيه الكامل وحدانية الله تعالى، ثم تقييد بشرائع الله.

وعلى هذا فليس الشر في الإسلام أساسياً أبداً ولا أصيلاً أيضاً. ولكن مما يكتسبه الإنسان أثناء حياته، ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حدّ من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقّقة واحدة. ليس في الإسلام خطيئة أصيلة موروثة، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية. إن كل مسلم رهين بما كسب، فهو يحمل في نفسه جميع وجوه الإمكان للنجاة الروحية، أو للخيبة الروحية، والإسلام ينظر إلى الحياة بهدوء واحترام. ولكنه لا يعبدها، لكنه ينظر إليها على أنها (دارمر) ضرورية، فليس من حق الإنسان أن يحتقر الحياة الدنيا، ولا أن يبخسها شيئاً من حقها. من أجل هذا كان لحياة الإنسان قيمة عظمى. فليست مملكة المسلم في هذا العالم وحده، ولا مملكته ليست في هذا العالم. بل هو يختار طريقاً وسطاً. إن النجاح المادي مرغوب فيه. ولكن ليس غاية في نفسه. بل يقود الإسلام الإنسان نحو الشعور بالتبغية الأدبية في كل ما يعمل، والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب أن يكون خلقياً.

* * *

إن الإسلام لم يقف يوماً سداً في وجه التقدم والعلم، إنه يقدر الجهد الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة، وما من دين

ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل. وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظروا بعيون غربية، ويرروا الآراء الغربية. إن المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية، إنها عامة بمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامة. إلا أن وجهة النظر التي ترى فيها هذه الحقائق، وتعرض تختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب.

إن العلوم تتعلق بلاحظة الحقائق، وبجمعها واستخراج القواعد المعقولة منها. أما النتائج الاستقرائية أي فلسفة العلوم فإنها لا تبني على الحقائق والمشاهدة فقط. ولكنها تتأثر إلى حد بعيد جداً بزاجنا المتأصل فيما، والعلوم ليست في ذاتها مادية ولا روحية، ولكنها يمكن أن تقلب إلى هذا المظهر، أو ذاك حسب استعدادنا العقلي الخاص. والغرب ذو استعداد مادي، وهو من أجل ذلك مناهض للدين في مدركاته، وكذلك نظام التربية الغربية على وجه العموم، ومن سوء الحظ أننا اعتمدنا أبداً على الوجهة الأوروبية في عرض العلم، وعلىنا ألا نتردد في درس العلوم الرياضية والطبيعية حسب الأسس الغربية. ولكن يجب ألا تتنازل للفلسفة الغربية عن أي دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين، وسيكون من واجب العلماء المسلمين إذا وصلوا إلى حدود البحث العلمي أن يستخدموا نظرهم العقلي مستعينين عن النظريات الفلسفية الغربية. ومن الممكن دائمًا أن ندرس العلوم من غير أن تخضع خصوصاً للاحتجاه العقلي في الغرب، كما أن تعليم الأدب الأوروبي على الشكل الذي يسود اليوم في بعض مؤسسات التعليم في بعض الأقطار الإسلامية يقود إلى جعل «الإسلام» غربياً في عيون الناشئة المسلمة، مما يؤدي إلى خلق بعض التبرير لسعى الأوروبيين أن ينظروا إلى الفروق بين الشرق والغرب نظراً مبنياً على مقاييس مزعوم «رومانيون وبرابرة» ثم أن براهينهم تقوم على الرعم بأن تطور العالم لا

يمكن أن ينظر إليه إلا على أساس تجارب الثقافة الغربية.

ومن شأن قبول هذا أن يخلق شعوراً بالنقض، كما أن الأخلاق في الإسلام، وخصوصاً في إدراكتها للسلوك الاجتماعي والشخصي، وللعدل والحرية، إنما هي أكثر نمواً، وأحسن كمالاً من المدنية الغربية. لقد أبطل الإسلام العصبية العرقية (الحقد الجنسي) وشق الطريق إلى الإخاء الإنساني وإلى المساواة.

* * *

إن أهم مآثر الإسلام، تلك المآتى التي تميزه من سائر النظم المطلقة، هو التوفيق التام بين الناحية الخلقية، والناحية المادية من الناحية الإنسانية. هذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الإسلام في إثبات قوته أينما حل. لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة. هذه الخاصة الظاهرة في الإسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن «نبينا» كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كل اتجاهيها: في المظهر الروحي، والمظهر المادي، وسنة الرسول تالية للقرآن. وهي المصدر الثاني للشرع الإسلامي، وللسلوك الشخصي والاجتماعي.

إن الإسلام يحمل الإنسان على توحيد جميع مناحي الحياة، وبما أن هذا الدين واسطة إلى هذه الغاية، فإنه يمثل في نفسه مجموع مدركات لا يجوز أن يضاف إليها شيء، أو أن ينقص منها شيء، كما أنه ليس في الإسلام مجال للخيرية. فإذا قبلنا تعاليمه كما بسطها القرآن الكريم فعلاً، أو كما أوردها الرسول. فيجب أن نقبلها تامة وإلا خسرت قيمتها. ومن سوء الفهم الأساسي للإسلام أن نظنه، وهو دين العقل يخضع تعاليمه للاختيار الشخصي. هذا شأن الإسلام. فإن العقل بعيد عن الهوى يقبله، وليس من شخص بعيد عن الهوى يحاول في الإسلام ليزعم أن فيه

شيئاً مخالفًا للعقل. إلا أنه ما لا شك فيه أن ثمة أشياء وراء حدود العقل الإنساني، ولكنها لا تختلف.

إن عقلنا لا يستطيع بما يركب في طبيعته أن يحيط بفكرة (الكلية) أننا نستطيع أن نفهم من كل شيء تفاصيله فقط. إننا لا ندرى ما اللامائية، ولا ما الأزل حتى إننا لا نعلم ما الحياة. أما في قضايا الدين المبنية على أساس مطلقة، فإننا نحتاج ضرورة إلى هاد يتصرف عقله بشيء فوق ما يتصرف به التفكير المادي. إننا نحتاج إلى من أشرق عليه نور الله. أو بكلمة واحدة إلى «نبي» فإذا كنا نعتقد أن القرآن الكريم كلام الله. وأن محمدًا رسول الله، فإننا نصبح حينئذ ملزمين بأن نتبع الرسول أديباً وعقلياً.

نحن نعد الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها. أنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، أنه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجود الإمكان إلى السمو، بل يهتم أيضاً لما فيه من قيود طبيعية، إنه لا يحملنا على طلب المحال، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة - حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل. إنه ليس سبيلاً من السبل، ولكنه السبيل الوحيد. وأن الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هادياً من الهداة، ولكنه «الهادى» فأتباعه في كل ما فعل، وما أمر، أتباع للإسلام نفسه. أما إطراح سنته فهو إطراح لحقيقة الإسلام.

وبعد فليس ثمة علاقة ظاهرة تدل على الإنسانية في نوتها الحاضر. قد استطاعت أن تشب عن الإسلام، بل إنها لم تستطع أن تخلق نظاماً خلقياً أحسن من ذلك الذي جاء به الإسلام. إنها لم تستطع أن تخلق نظاماً على أساس علمي، كما استطاع الإسلام أن يفعل، أنها لم تستطع أن

ترفع قدر الإنسان، ولا أن تزيد من شعوره بالأمن، ولا في رجائه الروحي، ولا في سعادته.

٥ - أما الكاتبة البريطانية «إيفلين كوبيلد» فقد صورت في كتابها (البحث عن الله) تجربتها الشائقة مع الإسلام. وهي مجموعة يوميات كتبتها بعد أن قامت بأداء فريضة الحج بعد إسلامها عام ١٩٣٣. والكاتبة نبيلة إنجلizerية استطاعت أن تهتمي إلى الإسلام عن طريق قراءتها في مقارنات الأديان. وقد ترجم بحثها إلى اللغة العربية. وهذه خلاصة تجربتها.

تقول: سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟ .

وأجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي، ففترضت الإسلام ديناً. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريباً إذا ما راح المرء يفكر في أن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه.

إن لأذكر أيام طفولتي، وكيف أني صرفت الشتاء مع والدي في قصر عربي بالجزائر. وكيف كنت كثيرة الرغبة. وأنا ما زلت طفلة في الذهاب إلى المسجد مع بعض الرفاق، استمتع بما يغمره من حياة روحية لطيفة رائعة: ولعمري لقد كنت مسلمة منذ ذلك العهد. وإذا كان هذا مما لم يدر في خلدي ولا ألقى في روحي .

ثم تناست مع الأيام بعد مغادرتي الجزائر صلاتي في المسجد، وذهبت الأيام بما كنت قد تلقايتها من مبادئ العربية الأولى: ومضت الأيام: وفيما أنا في حوار مع بعض المعرف. قلت من غير أن أدرى إنني من المسلمين. ولعمري ما أزال أحار في الحافر الذي دفعني إلى ذلك. وما أعلم أنني رحت أفك في الإسلام في كثير أو قليل. ومهما يكن السبب.

فهذا نور جديد أضاء لي ما أمامي : فكان من الحق عليّ أن أقرأ كل ما يتعلّق بهذا «الدين» الذي أرْتَضَيْتَ لنفسي . وكلما أمعنت في القراءة زاد إيماني واعتقادي بأن الدين الإسلامي أكثر الأديان طواعية وعملية قرباً من العقل : وأنه الدين الوحيد الذي يستطيع تفسير النظم المتعلقة الحاضرة والبلوغ بالإنسانية إلى ما ترجيه وتطلبه من سلام وطمأنينة .

و«الإسلام» كلمة تعني التسليم لله ، وهي تعني السلام أيضاً ، ولعل أجمل ما في الإسلام ما يضطرب فيه من وحدانية إلهية ، وإخوة إنسانية : وخلو من التقليد والبدع ، والتتصاقه كل الالتصاق بما في الحياة من أمور عملية .

ولقد سُئلَ محمد عليه الصلاة والسلام يوماً عن الإسلام فقال: إطاعة الله ومعاملة الناس بالإحسان والإنصاف .

وسُئلَ مرة أخرى عن المسلم فقال: المسلم من سلم الناس من يده ولسانه . والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبداً .

وهذا ما يجده المرء مردداً في القرآن في مختلف سوره وشتي آياته . ولقد فرض الإسلام الحج على المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ومن ينكر فضله، وما يغمر النفس فيه من انطلاق إلى المثل العليا والروحية . وانفلات من أغراض الدنيا والتوجه إلى الله بقلب سليم مع هذه الألوف المؤلفة من البشر على اختلاف أ MCSارهم، وتباعد لغاتهم، وتعدد مشاربهم يأتون من أقصى الأرض، ويتحملون في طريقهم المشاق . وبعد المسافات .

ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الأستاذ سنوك فقال: لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبيّة إلى التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره

من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلاً، ولعمري أن هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما ينجل الجماعات الأخرى التي لم تفطن لها ولا دعت إليها.

أما القرآن فإن بديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعرifaً.

وقد أشار الدكتور ماردويل إلى ما للقرآن من مزايا لا توجد في كتاب غيره فقال: أما الأسلوب القرآني فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا. ذلك الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه ذلك الأسلوب لا يكون إلا إلهياً. الحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتياحاً وشكراً قد خضعوا لسلطان تأثيره وسحره. وأن سلطانه على ملابس المسلمين لبالغ الحد الذي جعل المبشرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الأبد.

هذا هو الكتاب الذي خلق العرب خلقاً جديداً، ثم وحد صفوفهم ودفعهم إلى العالم فاقتحموه وعملوا فيه على نشر حضارتهم وثقافتهم وفلسفتهم. بينما كانت أوروبا تتخبط في جهل فادح، واختلاف داهم.

والواقع أن للقرآن أسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنتهجه العرب من نظم ونثر، فحسن تأليفه، والثبات كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله. كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملا القلب روعة لا يمل قارئه، ولا يخلق بتردیده. وقد امتاز بسهولة ألفاظه، حتى قل أن نجد فيه غريباً. فإذا أضفت إلى ذلك سمو معانيه أدركنا بلاغته وإعجازه.

وإن أثر القرآن في كل ما بلغه العرب من التقدم لا ينكر. فهو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكنهم من إنشاء امبراطورية فاقت

امبراطورية الإسكندر الأكبر، والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمراناً وحضارة، كما أن الإسلام هو الذي مكن العرب من بين الشعوب السامية أن يتزلوا أوروبا فاتحين حاكمين بخلاف الفينيقيين الذين نزلوها متجرين، واليهود الذين قدموها هاربين. وقد جاء العرب إلى أوروبا ومعهم شعلة العلم في ذلك الزمان الماضي، وهو ما يحملنا على أن نبكي مصرع الأندلس. لأن مصرعها كان ضربة للحضارة الحديثة والعمaran القديم.

ولقد كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها، ولا أهمية لقبائلها، ولا لجماعتها. فلما جاء محمد خلق هذه الأمة خلقاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات.

ولقد زرت القبر الشريف الذي يضم النبي محمد، ووقفت باهتهة ذاهلة باكية مسترجعة من خشية الله. ذلك أن العظمة والعبقرية يهزان القلوب، ويشيران الأفتداء. فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها. وقد راحت تصحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية، وخير البشرية.

رحمتك اللهم، رجل تبعث به أمة كاملة، وترسل على يديه ألوان الخير إلى الإنسانية. ثم مشيت نحو المسجد، وكانت الشمس قد أشرقت أو كادت. وكان النهار ما يزال بارداً زاهياً. فلما تلمسنا مدخل المسجد النبوي تولتني رعدة عظيمة، وخلعت نعلي وتقدمت أمسي في صحن الجامع أتابع خطوات رفيقي. ثم أخذت لنفسي مكاناً قصياً. صليت فيه صلاة الصبح، وأنا غارقة في عالم هو أقرب إلى الأحلام، وأخيراً تقدمت نحو القبر الشريف. وكان الزحام شديداً حوله، والمؤمنون سكتون يصلون في قلوبهم والقلوب واجفة، والأفتداء خاشعة، والعيون منكسية، ولم يكن هناك حوله من يصلني، ذلك أن «محمدًا» منع الصلاة عند قبره، ونوى عنها حتى لا يتخذ الناس قبره موطنًا للعبادة، أو كعبة يتقرب بها إلى الله، ذلك إنما

تكون الصلاة لله وحده جل جلاله، وليس في الإسلام صلاة لغير الله، ولا قبلة غير الكعبة.

ولو استطعت ما فارقت المسجد ذلك أني وجدت فيه انطلاقاً من هذا الجو الدنيوي، لم أكن أعهده ولا أعرفه. ذلك أني وجدت فيه حالة روحية جديدة ملأتني نشاطاً وقوّة ورقةً وجهاً لله وعبادة، والحق أقول أن الحب عندنا. وكما يفهمه الغربيون لا يزال قريباً من الغريزة محصوراً في دائرتها على ما تلهمه هذه الغريزة لتخليد النوع وتحسينه. أما المناطق العليا التي يرتفع الحب المذهب إليها. أما الحب بمعناه الإنساني السامي من الاشتراك في تمثل الحياة لتزيد الحياة قسوة وجحلاً وسناءً. أما الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقي النفسي إلى عالم الخير والجمال والحق، فهذا لا يفكر فيه أحد، أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود في الإسلام متتطور في هذه الأخوة الإنسانية التي تجعل من الفرد عبداً ليعمل لخير المجموع وفرداً قصارى همه أن يعمل للإحسان وبالإحسان أبداً.

وإن من طرافة الإسلام هذا السلام الذي أمر به القرآن أمراً: **﴿وَإِذَا** حيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها) وقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنجليزي إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذة في تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعم الغرب من أقصاه إلى أقصاه، ويتصل بين المرء وولده، وشقيقه ونسيبه وجاره كيف أن الإسلام يقف وحيداً في هذه الظاهرة حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات والعري.

وفي مكة طفت وسعيت في البيت وزرت الكعبة وطفت حولها. ولقد تولاني ما تولى هذه الجماعة من خشوع وذهول، وتبوية واستغفار وإيمان، فرفعت رأسي إلى السماء ودعوت مع الداعين، وبكيت مع الباكين. وطفت مع

الطائفين، وأسلمت نفسي للواحد الأحد، وغمرتني روحية الإسلام فتناسيت نفسي وتناسيت كل شيء.

اخترت الدفاع عن الإسلام

هذا بحث كتبه المؤرخ الغربي «جيمس متشنر» في الصحف الأوروبية، فأثار ضجة كبيرة عندما انتدب نفسه للدفاع عن الإسلام يقول:

إن حمداً هذا الرجل الملهم الذي أقام الإسلام. ولد حوالي ٥٧٠ م في قبيلة عربية تعبد الأصنام، ولد يتيمًا محباً للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين. ولا بلغ العشرين من عمره استغل بالتجارة وأدرك فيها النجاح - وأصبح يشرف على قافلة لأرمدة غنية. وفي الخامسة والعشرين عرضت عليه هذه السيدة الزواج منها اعترافاً بفضله. وقد عاش وفيها طوال حياته. وفي الأربعين من عمره، كان أخذ الوحي ينزل عليه، وأحس محمد بكل نبي عظيم قبله بالإجفال من حمل رسالة الله إلى الناس. وقد أمره جبريل أن «اقرأ» ولم يكن محمد يعرف القراءة والكتابة. ولكن جبريل أخذ ي ملي عليه هذه الكلمات المتزلة التي سرعان ما أحدثت ثورة في جانب من العالم حين دعت إلى توحيد الله.

وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكماً بأمره أو قديساً. ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبداً من عباد الله أرسله الله إلى الناس بشيراً ونذيراً. وقد أحدث «محمد» بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية. وفي الشرق كله فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعوه إلى الله وحده، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الاجتماعية.

والجنة التي وعد بها محمد المتquin أسيء فهمها أيضاً، فهو في هذه الصحراء الملتئبة. وفي هذه العواصف الرملية أندر الكافرين بعذاب جهنم. ووعد المتquin جنات تجري من تحتها الأنهار فيها «حور» عين. وكلمة «الحور» غريبة على خيال الغرب. وقد حاولوا أن يترجموها بكلمة من الكلمات النازلة في اللغة الإنجليزية، وحينما قبض الله إلى جواره إبراهيم، وهو الابن الحبيب للنبي محمد كسفت الشمس. وقيل إن الله قد واساه على هذه الصورة. ولكن محمدأً أعلن: «إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله، لا تكسفاً لموت أحد ولا لموته».

وعند وفاة محمد ظن البعض أنه لا يمكن أن يموت، ولكن خليفته قضى على هذا الوهم بخطبة من أ Nigel الخطيب في تاريخ الأديان قال: أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ويؤمن المسلمون بأنهم أتباع الله. ومحمد النبي العظيم كان إنساناً، وكان بشراً وهم يعبدون الله وحده.

ولعل القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو بكل تأكيد أيسرها حفظاً، وأشدتها أثراً في الحياة اليومية لمن يؤمن به. وقد نزل «القرآن» باللغة العربية، وفي كل مكان في العالم الإسلامي حرص المسلمون على تعلم العربية، وهي ليست باللغة السهلة ليتمكنوا من قراءة كتابهم المقدس. وأن يؤدوا الصلاة باللغة العربية.

والسيحي واليهودي الذي يقرأ القرآن لا يجد نفسه غريباً عما جاء في آياته المنزلة، ولو أنناقرأنا هذه الآيات التالية التي اخترناها من مئات الآيات في أي معبد لدين آخر خليل للناس أنهم يستمعون إلى آيات من الكتب المقدسة عندهم.

* قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين *.

* ﴿وَإِنْ يُونَسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبْقَى إِلَى الْفَلْكِ الْمَشْحُونِ. فَسَاهَمَ فِي كَانَ مِنَ الْمَدْحُضِينَ. فَالْتَّقِمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾.

* ﴿قَالَتْ أُنَّ يَكُونُ لِي غَلامٌ وَلَمْ يَسْسِنِي بَشَرٌ وَلَمْ أُكُّ بَغْيًا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيْنَ﴾.

ولقد ترددت في القرآن أسماء كثيرة وردت في المسيحية واليهودية.
فهناك خمس سور سميت باسم نوح ويونس ويوف و Ibrahim وMiriam.

وهناك أسماء أخرى تعدد ذكرها في الآيات. مثل: عيسى، وآدم،
وداود، واليسع، ويعقوب، وموسى، ولوط، وسليمان.

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملي في العاملات بين الناس،
وهو في ذلك يقول: ﴿إِذَا تَدَايَتُمْ بَدِينَ إِلَى أَجْلٍ مُسْمَى فَاكْتُبُوهُ﴾.
ويقول: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنَ مِنْ رَجُلَكُمْ﴾. وهذا التوفيق بين عبادة
الله الواحد، وبين التعاليم العملية جعل القرآن كتاباً فريداً، ووحدة
متماضكة.

إلى جانب القرآن ترى الإسلام يعتمد على السنة. وهو ما روی
عن الرسول من أحاديث وأفعال. والوعي الإسلامي إنما يرجع إلى هذه
الأحاديث التي قالها محمد.

وكل مسلم عندما يبدأ طعامه أو عمله يستهل ذلك بقوله: «بِسْمِ
اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وهي فاتحة القرآن. والمسلم إذا لقي مسلماً أقرأه
السلام قائلاً: السلام عليكم، والدعوة إلى الصلاة الجماعيةأخذت أيضاً
عن السنة. وهي تبدأ عادة بالأذان. وبعض هذه المبادئ النبوية أثرت في
سلوك الغربيين.

وتدل كل الأحاديث على أن محمداً كان رجلاً له طباع الأطهار، وأنه
نادى بتحرير الأرقاء، وحرم وأد البنات، وطالب بإعطاء الأرض

- للمعدمين، ودعا إلى السلام بدلاً من الحرب، ونادى بسيادة العدالة الاجتماعية. ولكي تكون مسلماً يجب أن تؤمن بمبادئه خمسة:
- ١ - أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وختام النبيين. وأنه قد حمل آخر رسالة سماوية وهي الإسلام الذي أكمل كل الرسالات.
 - ٢ - إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، وكل الذين زاروا البلاد الإسلامية، شاهدوا منظراً فريداً في عالم الديانات. ففي مساجد أصواتها خافتة. يقف مئات المسلمين كتفاً إلى كتف. ويركعون ويسجدون متوجهين إلى بيت الله الحرام في مكة. وهذه الصلاة هي التي ولدت الأخوة في الإسلام.
 - ٣ - الزكاة: وهي واجبة على المسلمين في مداخيلهم، وهذا المبدأ أهمية بالغة عند المسلمين.
 - ٤ - صوم رمضان: ويدھلک أن تعرف کم عدد الذين يحرضون على الصيام. فالصائم يتناول سحوره قبل الفجر، ويشرب آخر كوب من الماء. ويتناول آخر لقمة من الخبز، ويظل هكذا إلى الغروب مهما ترھقه حرارة القيط.
 - ٥ - حج البيت: والمسلم يجب أن يحج إلى مكة إذا كان قادرًا جسمياً ومالياً.

ولم يحدث أن انتشر دين بهذه السرعة، فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢ م. كان الإسلام يحتل جانباً كبيراً من شبه الجزيرة العربية، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم إليها سوريا وبلاد الفرس ومصر. والتخوم الجنوبيّة لروسيا، وامتد إلى شمال إفريقيا حتى بلغ مداخل إسبانيا. وفي الزمن الذي جاء بعد ذلك كان الإسلام باهراً.

* * *

واعتقد الغرب أن توسيع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعتمد

ال المسلمين إلى السيف . ولكن الباحثين المنصفين لم يقبلوا هذا الرأي ، فالقرآن صريح في تأييده ل حرية العقيدة . والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ، ما دام أهلها يحسنون المعاملة ، ويدفعون الجزية . وقد حرص « محمد » على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب ، أي اليهود والنصارى .

وقد عاش أهل الكتاب يعاملون معاملة طيبة . وظلوا أحراضاً في عباداتهم . ومن الحقائق التي يجب أن تعرف أن كثيراً من الغربيين قد درجوا على تصديق كتب التاريخ التي تزعم بأن المسلمين برابرة . وأصبح عسيراً عليهم أن يدركون مدى العمق الذي تأثرت به حياتنا العقلية بفضل المفكرين المسلمين في مجال العلم والطب والرياضيات والجغرافيا والفلسفة . والصلبييون الذين غزوا الأرض المقدسة وحاربوا المسلمين قد عادوا إلى أوروبا بأفكار جديدة عن الحب والشعر والفروسيّة ، وفن القتال ، ونظام الحكم ، وفكرتنا عن قيام جامعة من الجامعات ، وما يجب أن تكون عليه إنما تأثرنا في ذلك بعلماء المسلمين الذين أتقنوا « فن التاريخ » والذين حملوا إلى أوروبا تعاليم الإغريق .

وعلى الرغم من أن الإسلام نشأ في الجزيرة العربية . فإن العرب نسبة قليلة في العالم الإسلامي ، وأقل من ربع المسلمين يتكلمون العربية كلغة أصلية . والإسلام أكثر الأديان دعوة إلى التآخي بين كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وشعوبهم . وقد تعددت ألوان المسلمين . فهناك السود في إفريقيا والصفر في الصين ، والسمر في الملايو ، والبيض في تركيا .

وإذا نظر إنسان إلى الخبر العميم الذي حققه الإسلام ، وخاصة في شعوب ناهضة مثل مصر وباكستان وأندونيسيا فلن يسعه إلا أن يدرك العظمة الدائمة للإسلام .

وقد درست الإسلام سنوات طويلة. وقد وجدت تعاوناً واضحاً بين الإسلام والمسيحية، وبين العالم اليوم أن يعلم أن الإسلام كدين خصماً سافراً للإلحاد.

ومن عجب أن الإسلام اليوم ما زال مفهوماً فهماً سيئاً في أمريكا وأوروبا. فما زالت هناك أفلام سينمائية، وتماثيل مختلفة، تصور الإسلام بصورة لا تمثل حقيقته، فضلاً عن إطلاق اسم المسلمين على أتباع الإسلام. وهذه كلمات ظالمة لهذه الديانة العظيمة.

لقد نادى النبي محمد بتحرير الأرقاء، وحرم وأد البنات، وطالب بإعطاء الأرض للمعدمين، ودعا للسلام بدلاً من الحرب، وسيادة العدالة الاجتماعية بين الناس من أجل هذا «اخترت الدفاع عن الإسلام».

الخاتمة

هذه الحصيلة المنشورة التي قدمناها في هذا الكتاب لأول مرة في الدراسات الإسلامية. إنما تمثل محاولة صادقة علمية لفهم الإسلام والفكر العربي الإسلامي من جانب مجموعة من مفكرين غير مسلمين مختلف جنسياتهم وأديانهم.

وقد كان علينا أن نواجه هذا التيار الجديد في الفكر العالمي وعلاماته تزايد كل يوم دلالة على أنه قد أصبح هناك من يحاول أن يفكر خارج نطاق العقائد والفلسفات المرتبطة بحاليه الحاضرة، وماضيه. ملتمساً طريقاً جديداً لتحرير فكره، أو باحثاً عن قيم جديدة خارج نطاق الفلسفات والعقائد التي تسسيطر على الفكر الغربي المعاصر، وترتبط بالحضارة الحديثة.

وقد جاء هذا الاتصال بين الباحثين وبين الإسلام والفكر العربي الإسلامي من أكثر من طريق.

١ - جاء من طريق وضوح الحقيقة التي طالما حاول الغرب إنكارها وإخفائها. وهي أن الفكر العربي الإسلامي هو مصدر هام من مصادر الحضارة الغربية والفكر الغربي. وأن الفكر الإسلامي هو مبدع المذهب العلمي المنهجي.

وقد انقضى وقت طويلاً قبل أن يجرؤ مفكر غربي على الاعتراف بأن الجذور العربية الإسلامية هي مصدر الحركة العلمية.

٢ - جاء من تطلعات فردية للفكرin استهدفوا دراسة الأديان والثقافات الإنسانية للبحث عن الحق مجردًا من الوراثة والبيئة.

وقد كان الاعتراف بأثر الإسلام والفكر العربي الإسلامي في جذور الحضارة والثقافة الحديثة مصدراً من مصادر التطلع إلى جوهر الإسلام. وهذه الحضارة، كما بلغ فريق من المثقفين والأعلام والمنصفين ذوي النظر الحر أن يجدوا في الإسلام حاجتهم العقلية والروحية، وأن يكتشفوا عن جوهر هذا الفكر في دراستهم.

ومن هنا استطاع الإسلام والفكر العربي الإسلامي أن يحفر مجرى جديداً بدأ أول أمره ضيقاً، ولكنه توسع من بعد وعمق. والحق أن هذه المرحلة في الكشف عن جوهر الإسلام والفكر العربي الإسلامي بإنصاف قد امتدت أكثر من مائة عام على الأقل. حتى أصبح في الإمكان أن يقال أن «الإسلام» استطاع أن يلفت النظر إليه على أنه عقيدة تقدمية إيجابية حية قادرة على الحركة والحياة والالتقاء بالثقافات والحضارات المختلفة والمتابعة. وأن هذه الخاصية في جوهره خاصية أنه دين ونظام مجتمع: هي مصدر حياته وقوته واستمراره، وأنها هي التي حالت دون سقوطه. بعد أن ضعفت الأمة التي تعتنقه. وقد سقط كثير من العقائد مع الأمم التي ضعفت وسقطت.

وفي ظل الحملة العنيفة على الإسلام والفكر العربي الإسلامي التي يشنها خلال أكثر من قرن ونصف قرن، وموالاة اتهامه بالضعف والقصور والتخلف، واتهام رسوله وكتابه بكل منقصة. هذه الحملة التي قادها الفكر الغربي المتمثل في القوى الاستعمارية، والنفوذ التبشيري، وما يؤيده من نفوذ سياسي وطائفي واستشرافي، وما يلقاه من تأييد المتابعين للاستعمار والتغريب من دعاة الشعوبية وأتباع المبشرين والمستشرقين في ظل هذه الحملة العتيبة يبرز هذا التيار ويستطيع بعض المثقفين التبشيريين أن يصلوا

إلى جوهر الإسلام من خلال كتابات خصومه والمعصبين له. وأن يتاح لهم كشف الحقيقة.

ولقد اتسع نطاق هذه الظاهرة، وعمق وكان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. قد أصدر منذ ثلاثة أعوام كتابنا «الإسلام في غزوة جديدة للتفكير الإنساني» وقد حاولنا فيه تصوير المعركة بين الإسلام وخصومه وكشفنا عن نماذج من هذا التيار الذي بدأ واضحاً يلفت نظر الباحثين. غير أننا في خلال هذه السنوات استطعنا أن نكشف مزيداً من الكتابات المتعمقة العلمية الصادرة عن إنصاف ودراسة وقد توالىت هذه الدراسات، واتسع نطاقها، وأصبحت تمثل «ظاهرة» تحتاج إلى أن تدرس ككل، وأن يجري البحث في مجموعها. ولما كنا نحرص على أن لا نكرر أنفسنا. فقد أقمنا قواعد هذا البحث على ضوء الوثائق والأسانيد الجديدة التي وصلنا إليها. والتي كانت متشرة هنا وهناك على أبعاد بعيدة، وكانت في جزئياتها لا تمثل إلا نظارات منوعة، فلما استطعنا جمعها وتنسيقها وفحصها وتقويمها ودراستها أمكن أن نصل إلى حقائق أساسية تكشف عن مفهوم الإسلام في نظر المثقف غير العربي وغير المسلم، ولا نسaru في إصدار الحكم على صحة هذا المفهوم، أو خطأه، ولكننا نرى أساساً أنه يمثل اجتهاد الباحث المتطلع إلى «طاقة جديدة من النور» للنفس الإنسانية، وللتفكير الإنساني. وقد استطاع الإسلام أن يعطيه ذلك الفيض الذي تطلع إليه.

ويمكن القول بأن ضياء الإسلام قد استطاع أن ينفذ إلى النفس الغربية المثقفة. وببدأ يأخذ مكاناً، لا على أنه تراث أو تاريخ أو ماضٍ كان له الفضل في تأسيس أحجار البناء في الحضارة البشرية المعاصرة فحسب، ولكنه بوصفه «قوة جديدة حية متفاعلة قادرة» على أن تقدم للإنسانية اليوم وبعد اليوم حاجتها في مجال الحياة والثقافة.

وعندي أن هذا التيار الجديد الذي بدأ ضعيفاً رقيقاً قد أخذ مجاله

يتسع اليوم ويعمق. وعندنا أن هذا التيار لن يموت. بل سيزداد مع الأجيال القادمة قوة وتدفعاً. ولا يستبعد أن يكون مصدر الضياء الجديد الذي تترقبه الإنسانية بعد رحلة طويلة في البحث عن «منهج حياة» فقد أتيح لها منذ القرن الخامس عشر أن تطوف في آفاق المذاهب والفلسفات والعقائد خلال خلال خمسة قرون كاملة توسيع فيها العلم وبلغ مدى قدرته في الكشف عن آفاق البحث التكنيكى، ثم وصل إلى القمة عندما فجر النذرة، واستطاع أن ينفذ إلى آفاق الجو بالصواريخ والأقمار.

ولم تكن هذه المذاهب في مجموعها إلا محاولات من خلال العقل البشري لإيجاد «منهج حياة» وحين اتصل الغرب بالشرق في العصر الحديث كانت محاولاته أن يفرض فلسفاته على المناطق التي سيطر عليها بنفوذه السياسي والاقتصادي، واستطاع أن يبلغ من ذلك ما شاء، في بعض الأقمار. ومع بعض الأمم. أما في نطاق العالم الإسلامي. فإن ذلك بدا له عسيراً غاية العسر. فإن مفهوم الإسلام في عقائده وفكره وثقافته، وما ترسمه مقوماته ومفاهيمه قد حال كثيراً دون أن يخضع أو يذوب أو يتحول بالرغم من الحملات العنيفة التي وجهت إليه. وقد أصر الإسلام في حركة اليقظة التي بدأها قبل وصول الحملات الاستعمارية بوقت طويل أن يستمد مقومات نهضته من قيمه الأساسية الرازخة بجوانب القوة والعدل الاجتماعي والوحدة والشورى والإخاء الإنساني. وقد استمد مناهجه الجديدة من تراثه ووجوده أصلاً مع انتفاعه بتجارب الأمم يأخذ منها دون أن ينحاز.

بل إنه أحدث في ظل ذلك حدثاً باهراً، حيث وسع الإسلام نطاقه ونشر كلمته في آفاق العالم الوثنية في إفريقيا وجنوب شرق آسيا فحقق نتائج باهرة أذهلت خصومه، ومحاولي القضاء عليه فاعتنقه في خلال القرنين الأخيرين عدد ضخم يزيد أضعافاً عن عدد أصحابه الأصليين.

بل إن الإسلام قد أسفر عن جوهره حين كشف عن أنه كان العامل الفعال الحي في حركات التحرر، وأنه كان رمزاً على مقاومة النفوذ الأجنبي، وأية الوحدة والتجمع وملاذ السود المضطهددين من جحيم التفرقة العنصرية في قلب إفريقيا. وفي قلب القارة الأمريكية.

وكانت تجربته الضخمة الباهرة قدرته على تزكية الثورة على الاحتلال في الجزائر، وبروزه كقوة فعالة في الحيلولة دون القضاء على كيان أمّة كاملة ضاعت لغتها. ولكن الإسلام ظل هو عامل البقاء الوحيد. ولقد شهد الغرب هذا الموقف كلّه. وعجب كيف يكون الإسلام في محنة. وقد جثمت عليه قوى الاستعمار، وسيطر النفوذ الأجنبي على أرضه، فأزال وحدة دولته، ومع ذلك فقد عجز أن يزيل مقومات فكره. بل إن فكره هذا قد تجدد واستيقظ. وببدأ حركة المقاومة الضخمة الباهرة في مواجهة محاولة القضاء عليه، وكشف عن جوهره، وصحّح كثيراً من المفاهيم، ورد كثيراً من الاتهامات، وواجه الحياة المعاصرة، والحضارة والثقافة الغربية بروح من السماحة والقدرة على الأخذ والعطاء. وبذا الإسلام والفكر العربي الإسلامي قادرًا على الحركة الإيجابية التقدمية، وبرزت قيمه الأساسية قادرة على التلقى والامتصاص من مختلف الثقافات والحضارات دون أن تتوقف أو تجمد أو تعصب. كانت آفاقها دائِيًّا مفتوحة سمحّة، واضحة القدرة والحيوية تقدمية القيم والمفاهيم.

ولقد استطاع النفوذ الغربي المعارض للإسلام والفكر العربي الإسلامي أن يشكك أهل الإسلام في جوهر عقائدهم وثقافتهم، وحاول ذلك أيضاً مع أهل الغرب أنفسهم حتى يقول الدكتور خالد شلدريريك: إنه حين أراد أن يدرس الإسلام عجز أن يجد في مكتبات وطنه كتاباً منصفة. وأن كل ما وجده وهو كثير غاية الكثرة كان يحمل على الإسلام حملات متعصبة غاية في الظلم.

ومع هذه المحاولات فقد استطاع هؤلاء أن ينفذوا إلى ضياء الإسلام فيعرفوه ويواجهوه في صراحة وتجرد، ولستنا ندعى أن كل من كتب عن الإسلام كان سليماً منصفاً. ولكنه كان على أي حال من وجهة نظره متحرراً من التعصب، أو محاولاً إلقاء الضوء غير المتحيز.

* * *

واعتقد أنه من حق الإسلام علينا، ونحن ندعوه، وندافع عنه أن ننظر في هذه الكلمات التي كتبها أكثر من ثلاثين كاتباً في وحدة متكاملة لنرى رأي كتاب منصفين في فكرنا العربي الإسلامي، وفي دين الإسلام والرسول محمد، واللغة العربية والقرآن، ولو أننا تجاهلنا هذا الذي كتب عنا من باب الإنفاق، لكان ذلك تباعداً بيننا وبين وجهة نظر جديدة تأخذ طريقها إلى الفكر الإنساني، وتشق تلك الجبهة الصماء التي كانت تحمل لواء الخصومة والتعصب منذ الحروب الصليبية إلى اليوم.

وإذا كان علينا أن نواجه اليوم رأي خصوم الإسلام، وما يشرونـه من شبـهـاتـ، فإنـ عـلـيـنـاـ أـيـضاـ بـنـفـسـ الأـهـمـيـةـ أـنـ نـعـرـفـ وـجـهـةـ نـظـرـ مـنـ بـدـاـ هـمـ إـلـاسـلـامـ قـادـرـاـ عـلـىـ حـلـ مـشاـكـلـ إـلـانـسـانـيـةـ وـمـنـحـهاـ زـادـاـ مـنـ القـوـةـ وـالـحـيـوـيـةـ هـوـ فـيـ ذـاتـهـ رـأـيـاـ لـصـدـعـهـاـ،ـ وـبـلـسـمـاـ جـراـحـهـاـ.

ونحن قد لا نرضى تمام الرضا عن كل ما يقال في باب الإنفاق، لأنـهـ قدـ يـصـلـ إـلـىـ مـدـىـ إـيمـانـاـ بـإـلـاسـلـامـ وـالـنـبـيـ وـالـقـرـآنـ،ـ وـلـكـنـ لـاـ نـشـجـبـهـ ولاـ نـغـضـيـ عـنـهـ،ـ لـأـنـهـ يـمـثـلـ وـجـهـةـ نـظـرـ مـفـكـرـيـنـ بـدـأـواـ حـيـاتـهـمـ فـيـ مـعـسـكـرـ أـعـدـاءـ إـلـاسـلـامـ،ـ ثـمـ اـسـتـطـاعـواـ أـنـ يـنـفـصـلـواـ عـنـهـ.ـ وـأـنـ يـكـوـنـواـ فـيـ إـنـفـاقـ وـتـجـرـدـ «ـرـأـيـاـ جـديـداـ»ـ يـخـالـفـ مـاـ وـرـثـوـهـ وـمـاـ دـرـسـوـهـ فـيـ مـطـالـعـ حـيـاتـهـمـ.

ونـحـنـ الـسـلـمـيـنـ نـسـتـفـيـدـ مـنـ هـذـهـ الـآـرـاءـ فـيـ مـجـمـوعـهـاـ فـائـدـةـ أـخـرىـ.ـ تـلـكـ هـيـ أـنـاـ نـرـىـ إـلـاسـلـامـ فـيـ ضـوـءـ الـعـقـلـ إـلـانـسـانـيـ.ـ وـمـنـ خـلـالـ الـفـكـرـ

البشري، ومن خلال نفسيات ذات طابع خاص في حياتها وتفكيرها ربما كان مخالفًا لطابعنا ومفاهيمنا الأساسية. وبجملة فإن هذه (ظاهرة) في تاريخ الإسلام المعاصر لا نستطيع أن نتجاهلها أو نغمض عيوننا عنها.

ومن هنا تأتي أهمية النظرة التي تعطي الثقة بأن الإسلام ما زال منذ مطالع فجره إلى اليوم، وهو يشق طريقه إلى العقل الإنساني، والنفس الإنسانية، وأنه كلما ازدادت حركة التطور الاجتماعي وإناء الحضارة واتساع دراسات العقل والعلم والتجربة ازداد الإسلام بذاته العميقه قدرة على اقتحام مجالات جديدة وعقليات جديدة. وتلك هي إحدى طوابعه الخالدة.

المراجع والمصادر

- بحث علمي عن القرآن: فيليب طرازي.
- تاريخ العرب العام: سيديو.
- الأبطال وعبادة الأبطال: توماس كارليل.
- البيانات الموجودة في الهند: دكتورة آني بيزنت.
- رسول الله: اتيان دينيه. ترجمة. د. عبد الحليم محمود.
- حياة محمد: إميل درمنجم.
- محاسن الإسلام: دكتورة لورا فينيشيا فاليري.
- الإسلام نشأته وانتشاره وتطوره: مقال لأرنولد توينبي.
- الإسلام والعرب: روم لاندو.
- المنازعة بين العلم والدين: درابر.
- مقدمة لتاريخ العلم: جورج سارطون.
- مناهج العلماء والمسلمين في البحث العلمي: فرانز روزنتال.
- شمس الله تسقط على الغرب: دكتورة سيجريد هونكه.
- مدنية الإسلام في الغرب: دكتور لويجي رينaldi.
- الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد.
- الإسلام على مفترق الطرق: ليوبولد فابس (محمد أسد).
- البحث عن الله: ايفلين كوبيلد.

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مطالع البحث
٧	(١) التحديات في وجه الاسلام
٢٩	(٢) الهجوم على الاسلام
٤٧	(٣) من الهجوم إلى الدفاع
٦٥	(٤) ضوء جديد من الاسلام
٦٧	(١) أصول الاسلام
٧٩	(٢) التشريع الاسلامي
٨٥	(٣) تاريخ الاسلام
٨٧	(٤) حضارة الاسلام
٩٥	(٥) الاسلام والاستعمار
١٠١	(٦) مستقبل الاسلام
١٠٦	(٧) القرآن
١١٦	(٨) محمد ﷺ
١٢٥	(٩) الاسلام والأديان
١٣٣	عبد الله كوليم
١٣٨	لورد هيلي
١٤٤	هنري دي كاستري
١٤٦	ليوبولد فايس
١٤٩	تشكتنابا دهبابا
١٥٠	قسطنطين ملحم
١٥٢	هاري هيinkel

١٥٣	د. خالد شلدريرك
١٥٦	إيتان دينيه
١٥٨	سلطانه جاهان مهو وبال
١٦١	الدكتور بنوا
١٦٢	شهادات الاسلام
١٦٥	(٦) غزوة حديدة للفكر الانساني
١٨٥	ماذا يمكن أن يعطي الاسلام للبشرية
١٨٥	مدخل
١٨٩	(١) الاسلام دين ومدينة
١٩١	(٢) وثيقة الاسلام الخالدة: القرآن
١٩٤	(٣) انتشار الاسلام
١٩٦	(٤) الاسلام والعلم
١٩٧	(٥) التفسير التاريخي للاسلام
١٩٩	(٦) طابع الشمول
٢٠١	(٧) الاسلام على الاستمرار
٢٠٣	(٨) اللغة العربية: لغة الاسلام والعرب
٢٠٤	(٩) دور العرب والمسلمين في العلم والحضارة
٢٠٦	(١٠) الشريعة الاسلامية
٢١١	الباب الأول : القرآن وثيقة الاسلام الخالدة
٢٢٧	الباب الثاني : محمد رسول الله
٢٤٩	الباب الثالث : جوهر الاسلام
٢٨٧	الباب الرابع : الاسلام والعلم
٣١٧	الباب الخامس : الاسلام والحضارة
٣٣١	الباب السادس : الدعوة إلى الاسلام وانتشاره
٣٤٣	الباب السابع : لماذا أسلمت
٣٦٩	خاتمة
٣٧٧	المراجع والمصادر
٣٧٩	الفهرس